

فَلَيْسَ فِيهِ السِّيَرَةُ

# السِّيَرَةُ وَالْوَحْيُ

الدكتور محمد سعيد أحمد المسير

مكتبة دار التراث  
المدينة المنورة - ص. ١٦٤٧ ب

دار الزكوى  
دمشق - بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السَّيِّدُ الْوَلِيُّ الْوَجِي

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ لِلنَّاسِخِ  
الطَّبْعَةُ الْأُولَى  
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م



رئيس - شايخ مسلم البارودي - بناء ضولي وصداقي

هاتف: ٢٢٣٠١٨ - ص.ب.: ٣١١

بيروت - ص.ب.: ١٣١٨/٤

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ..

أما بعد :

فمن مهبط الوحي في المدينة المنورة أتقدم إلى القارئ الكريم بهذا الكتاب الرابع في سلسلة «فلسفة السيرة» حول «الرسول والوحي»، وهو دراسة موضوعية تعتمد على التحليل العقلي، والفهم الصافي لمعالم السيرة النبوية الشريفة، في جانب هام يتصل اتصالاً وثيقاً، ويرتبط ارتباطاً جوهرياً بعقيدة المسلم ..

إنها دراسة للنبوة المحمدية من خلال اتجاهات أربعة تمثل أبواب الكتاب، هي :

- ملامح الشخصية المحمدية .
- العمق التاريخي .
- الضرورة الإنسانية .
- الوحي .

وفي الباب الأول: تجسيد لملامح سيدنا محمد الهاشمي القرشي، ويتضمن ستة مباحث:

## الأول: اليتيم:

لقد ولد محمد ﷺ يتيماً فأواه الله . . وإن حكمة بالغة تشدُّ عقل الإنسان هنا إلى آفاق عليا من التأمل . .

فالأسباب المادية التي تعارف الناس عليها ليست هي كل شيء، ووراء كل ظاهرة في الطبيعة والإنسان تدبير إلهي محكم . .

ومحمد ﷺ هو اليتيم الذي كفله أكثر من شخص، وعاش في أكثر من بيت، فما وُجد فيه عيب، وما عُرف عنه مطعن، وإنما كان الطاهر النزيه، والعفيف الزاكي . .

وقد أشار البحث إلى إرهاصات المولد الشريف وأكد أن لدينا من الحق والصدق ما يباعد بيننا وبين قصص الوضعيين، ويجب أن نفرّق بين إمكان الشيء ووقوعه . .

## الثاني: راعي الغنم:

لعل الله حكمةً في رعي سيدنا محمد ﷺ للغنم في شبابه، فهو يكسب صاحبه يقظة حتى لا يعدو الذئب على شاة منها، ويجعله حريصاً على المصلحة، صابراً على المشاق، مثابراً على الهدف . . ويدع للراعي فرصة التأمل في مظاهر الطبيعة ونظام الكون حين يجلس الراعي في امتداد الصحراء . .

وعاش محمد ﷺ بعيداً عن زخرف الحياة، فلم يسعَ إلى شهرة، ولم يعبأ بمادة، وكان قبل البعثة وبعدها عزيز النفس كريماً، يتسامى على كل المتع، ويتعالى فوق كل إغراء . .

والمتتبع لتاريخ الأنبياء يجد أن للغنم دوراً في هذا التاريخ، فإسماعيل وقصة الفداء، وموسى وعصاه وامرأتا مدين، وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث . .

لقد كان للرعي دورٌ أساسي في التاريخ الإنساني، ولا زال للأنعام ارتباطها الوثيق بحياة البشر.

الثالث: الصادق الأمين:

لقد كان الصدق والأمانة هما العلم المرفوع من أعلام النبوة في يومها الأول حين قال الرسول ﷺ: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكتتم مصدقي؟!».

قال الناس يومئذ:

ما جربنا عليك كذباً..!!

والمنطق السليم يقول:

لم يكن ليزر الكذب على الناس ويكذب على الله..!!

لقد شارك محمد ﷺ في بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود، وارتضاه القوم حكماً بينهم وقالوا:

هذا الأمين، رضينا..!!

وشهد محمد ﷺ في دار عبدالله بن جدعان حلف الفضول، لنصرة المظلوم ومؤازرة الحق، وقال:

ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دُعي به في الإسلام لأجبت..!!

وتحنّث محمد ﷺ في غار حراء، تأملاً وفكراً، وانقطاعاً وخلوة، وصلة وبراً..

كل ذلك بإلهام الله وتوفيقه.

الرابع: الأمي:

إن حكمة إلهية كبرى تكمن في أن هذا الوصف ملاحظ في صدق الرسالة وحقيقة الوحي إلى سيدنا محمد ﷺ.

إن معجزات الأنبياء السابقين معجزات حسية ترتبط بشخصية رسولها  
ووقت ظهورها ولا تُعلم إلا لمن شاهدها أو نُقلت إليه تواتراً..

أما معجزة القرآن العظيم فهي معجزة عقلية ذاتية، تحمل الدليل  
معها على أنها من عند الله، لا ترتبط بزمن ولا تختص بحياة الرسول..

وكل من أدرك أن سيدنا محمداً ﷺ أُمي، وأن القرآن المجيد سجد  
له البلغاء، وتلمذ عليه الفلاسفة، وأصلح شؤون الحياة كلها؛ يزداد عمق  
إيمانه ويقيه بأن محمداً رسول الله..

وكل شواهد الحياة المحمدية تدل دلالة قاطعة على أنه ﷺ ما توقع  
رسالة ووحياً، ولا أعد نفسه لزعامة أو سلطان، ولا عُرف عنه الانفعال  
والثورة..

وعندما يتحمل بعد ذلك رسالة للعالمين لا تكون إلا تكليفاً إلهياً..

الخامس: كلمة تنبيه:

إن اليتيم والفقر والأمية لا شك أنها - في مجموعها - قاذحة في  
شخصية الإنسان على وجه العموم..

لكنها في نطاق الإعداد للنبوة والاصطفاء للرسالة تضعنا في نطاق  
القدرة الإلهية والعناية الربانية..

ولا يحق لمسلم أن يقيم على فقر أو أمية مدعياً أن الرسول كان  
كذلك، وإن الفقر الذي ينشأ عن تكاسل وترك للسعي مع القدرة عليه هو  
فقر معصية، يُحاسب عليه الإنسان أمام ربه، كما أن الفقر الذي ينجم عن  
التبذير والإسراف هو أيضاً فقر معصية، يُسأل عنه المرء يوم القيامة..

السادس: حديث هرقل:

إن حديث هرقل مع أبي سفيان حين جاءه كتاب النبي ﷺ يدعوه  
إلى الإسلام يمثل منهجاً صحيحاً في الاستدلال، فهو قائم على استقراء



أحواله ﷺ وتتبع أطوار حياته وملامح شخصيته ليتخذ من ذلك كله أعلاماً للنبوّة ..

### الباب الثاني:

لسيدنا رسول الله عمق تاريخي يتجلى في تذكير الله تعالى لأنبيائه وأقوامهم بتلك الرسالة الخاتمة التي يبعث بها النبي العربي والرسول الأمي، باعتبارها الرسالة العامة الخالدة ..

والدراسة في هذا الباب قائمة على خمسة مباحث:

#### الأول: ميثاق النبيين:

وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

#### الثاني: دعوة إبراهيم:

وهي المشار إليها في قوله جلّ شأنه: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(٢)</sup>.

#### الثالث: بشرى عيسى:

وقد تظاهرت آيات القرآن المجيد مؤكدة حقيقة البشارة بسيدنا محمد ﷺ في التوراة والإنجيل، وملزمة لأهل الكتاب ضرورة الإيمان بهذه النبوة الخاتمة تصديقاً لما معهم ..

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٨١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٢٩.

#### الرابع : دراسات عن البشائر :

قامت دراسات مستفيضة عن البشائر في الكتب المقدسة، على أيدي علماء أجلاء، أخلصوا لله وللحق، منهم من كان مسلماً، ومنهم من أسلم بعد الدراسة والتمحيص..

ولسنا في مجال الاستقصاء، وحسبنا أن نشير إلى :

١ - «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»

للإمام ابن تيمية (٦٥١ - ٧٢٨ هـ).

٢ - «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب»

للقس إنسلم تورميدا

الشهير بعبدالله الترجمان الأندلسي (في القرن التاسع الهجري).

٣ - «إظهار الحق»

للعامة الشيخ رحمة الله الهندي (١٢٣٣ - ١٣٠٨ هـ).

#### الخامس : شاهد من أهلها :

زعم الأستاذ العقاد أن البشائر المحمدية في الكتب السابقة لم تنفع أحداً من الذين كانوا يقرؤون التوراة في عهد الدعوة المحمدية، وليس لها من تأثير عند أحد أسلم قديماً أو حديثاً..

وهذا الزعم مصادم تماماً لنصوص القرآن وحقائق التنزيل، الشاهدة والناطقة بتواصل التأكيد على النبوة المحمدية والبشرى بالنبى الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ! وأن أحبار أهل الكتاب يعرفون محمداً بصدقه وأمانته ورسالته كما يعرفون أبناءهم بالنسب والصلة...

ومنذ فجر الإسلام وإلى اليوم والغد بعده يتوالى المؤمنون بالرسالة المحمدية إذعاناً للحق وتصديقاً بالبشائر..

وقد سقنا نماذج من هؤلاء ..

### الباب الثالث :

إن الإنسانية قبيل البعثة المحمدية كانت في حاجة ماسة، وضرورة ملحة لتلك الرسالة الخالدة؛ فلم يتوفر للناس صحة الإيمان وصدق اليقين في مذهب أو نحلة أو دين ..

وباستقراء الواقع التاريخي لا نجد إلا وثنية مشرقة أو يهودية مادية أو نصرانية محرقة ..

وهذا الفساد العقدي لا ينجم عنه إلا فساد خلقي، فأخلاق الناس على قدر دينهم .

ومن ثم جاءت أبحاث هذا الباب على جانبين :

١ - الدين .

٢ - الأخلاق .

في الجانب الأول : ناقشنا ظهور الوثنية في جزيرة العرب، وكيف بلغت المهانة الدينية مبلغاً جعل العقل الجاهلي يصنع الصنم فيعبده، وانقلبت الحقيقة فأصبح العابد يصنع المعبود .

وعرضنا لعقائد المجوس ونظرتهم إلى الطبيعة وما وراءها ..

وأظهر البحث أن اليهود أعداء الإنسانية، فدينهم لا يمنح سكينه النفس والعقل، وهم يعتبرون عقيدتهم حكراً عليهم، لا يقبلون أن يتهود البشر ولا يرضون للإنسان إلا أن يكون ذليلاً لهم، مسلوب الإرادة أمام مخططاتهم ..

والنصرانية لم تكن بالدين الصحيح الذي جاهد عليه المسيح، واكتنفها الغموض ودخلها التحريف ومزقتها الصراعات ..

وفي الجانب الثاني: قدمنا تصوراً عاماً عن الفساد الخلقي من الواقع الجاهلي في المنطقة العربية، وعرضنا لأنواع النكاح في الجاهلية، ووآد البنات وقانون الغاب الذي ساد فيها..

ولم يكن هذا العرض إلا مثلاً لما يجري في العالم أجمع، ففي فارس جعل «مزدك» الناس شركاء في النساء والأموال، وفي الهند ساد نظام الطبقات الاجتماعية الشاذ، وعلى الصعيد العالمي دارت الحرب سجالاً بين الفرس والروم، وشقي الناس بويلاتها..

ولا ينبغي هذا أن هناك أضواءً خافتة ظهرت في حياة هؤلاء البشر: فالحنفاء بحثوا عن الدين الصحيح..

ووجد من أحياء المؤودة..

ومنهم من أحبّ مكارم الأخلاق..

لكن هذه اتجاهات فردية وليست ظواهر اجتماعية عامة، وليس لها من صحة القصد وسلامة الاعتقاد ما يجعلها مذهباً أخلاقياً..

#### الباب الرابع:

كل هذه المقدمات تؤدي بنا إلى إرهاصات النبوة المحمدية، وتؤكد بيقين صدق الرسالة التي تحملها محمد ﷺ..

لكن: ما الوحي في حقيقته؟

وما أنواعه؟

وكيف يتنزل ملك الوحي؟

تساؤلات تحتاج إلى جواب..

وبعض الفلاسفة يُثير شبهات حول الوحي أو يفسّره تفسيراً مادياً..

فكيف ندحض هذه الشبهات؟

لقد جاءت الدراسة على النحو التالي:

## ١ - الوحي في اللغة :

نعرض لكلمة الوحي ومعانيها اللغوية واستعمال القرآن لها في تعبيراته الشريفة .

## ٢ - الوحي في الفلسفة :

لسنا نعرف على وجه اليقين أنبياء بعثوا في أرض اليونان، وإن كان سقراط اعتقد أن هناك هاتفاً روحياً يحمله تبعات رسالة يجب أن يؤديها لشعب أثينا .

وتحدث أفلاطون عن الإشراق الروحي والاتصال بعالم المثل، إلا أن النبوة بمعناها الحقيقي لم يتعرض لها .

وإذا انتقلنا إلى فلاسفة المسلمين صادفتنا مشكلة هامة خلال حديثهم عن الوحي والنبوة، لقد تلقفوا الموقف الفلسفي القديم بمقولاته العامة وطوّعوا لها المفاهيم الإسلامية . .

وإذا استطلعنا رأي الفارابي باعتباره أكبر فلاسفة المسلمين، وجدناه يربط النبوة بنظرية العقول وقوى النفس الإنسانية . .

وجاء ابن سينا فوضّح رأي شيخه وبسطه، وجعل للنبي أو العارف خصائص ثلاثاً، هي القوة القدسية والمخيلة القوية والنفس المحركة القادرة . .

وبعد عرض هذه الاتجاهات جاء التعقيب وحميت المناقشة، وظهر أن التفسير الفلسفي للنبوة في مصدرها وقوى النفس الخاصة بها ورؤية الملك القرين لها؛ مما ياباه الشرع وينفر منه العقل الفطري .

## ٣ - الوحي من الشرع :

إن التلقي عن الله في أمر المعاش والمعاد هو الحل الأول والأخير لحياة الإنسان؛ وليس كل واحد مهياً لأن يستمع للملأ الأعلى، فالاصطفاء الإلهي هو الأمر المعقول في هذا الجانب، وهو حق الله وحده يجتبي من رسله من يشاء . .

والوحي هو الصلة بين الرب سبحانه وبين من يصطفيه من خلقه ليتحمل أمانة التبليغ عن الخالق إلى الخلق..

وهذه الصلة يصحبها علم ضروري بمصدرها، ويصاحبها ظواهر نفسية وبدنية للمصطفى، ويتبعها آثار في التوجيه والسلوك..

وهناك ضمان إلهي في تبليغ الرسالة وصدق المخبر بها.. وهذا ما دفعنا إلى مناقشة قصة الغرائق المفتراة وبيننا ضرورة رفضها عقلاً ونقلاً..

ثم ناقشنا صور الوحي المحمدي استقراء من تتبع أحوال الوحي مع سيدنا محمد ﷺ..

وأخيراً ناقشنا المنكرين للوحي المحمدي وشبهات بعضهم حوله، مناقشة مستفيضة يدعمها منطق العقل الراشد ويقين المؤمن الصادق..

وجاء التأكيد قوياً بأن الدفاع عن الوحي المحمدي إنما هو دفاع عن شرف الأنبياء جميعاً ؛ وأن إثبات النبوة لمحمد ﷺ والإيمان برسالته إنما هو إثبات لنبوة الأنبياء كلهم..

﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون. لهم ما يشاؤون عند ربهم، ذلك جزاء المحسنين﴾<sup>(١)</sup>.

المدينة المنورة في ٣ من جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ

١٣ من يناير ١٩٨٦ م

أبو حذيفة

د. محمد سيد أحمد المسير

رئيس قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

كلية التربية - جامعة الملك عبد العزيز

بالمدينة المنورة

---

(١) سورة الزمر، آية: ٣٣، ٣٤.

# البَابُ الْأَوَّلُ

## ملاحح الشخصية المحمدية

- اليتيم .
- راعي الغنم .
- الصادق الأمين .
- الأمي .
- كلمة تنبيه .
- حديث هرقل .





## اليتيم

محمد بن عبدالله بن عبد المطلب، الهاشمي، القرشي، سلاسله  
الأطهار، وسليل الكرام... ﷺ.

سُمِّيَ محمداً لكونه جامعاً لصفات الخير فيحمده الله والناس..

ولم يجعل الله لهذا الاسم سميّاً إلا قبيل الميلاد الشريف، لما  
تسامع الناس أن نبياً يبعثه الله من العرب يُسمى محمداً، فكانوا ستة لا  
سابع لهم، وهم:

● محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي.

● محمد بن مسلمة الأنصاري.

● محمد بن براء البكري.

● محمد بن سفيان بن مجاشع.

● محمد بن حمران الجعفي.

● محمد بن خزاعي السلمي.

ويعلق القاضي عياض قائلاً:

«ثم إن الله حمى كل من يُسمى به أن يدعي النبوة أو يدعيها له  
أحد، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره..»<sup>(١)</sup>.

---

(١) نقلاً عن السيرة النبوية لابن كثير - تحقيق د. مصطفى عبد الواحد ج- ١، ص ١٩٧.

وعبدالله هو أصغر ولد أبيه، كان وسيماً، ومات في ريعان شبابه . .  
وجده عبد المطلب سيّد قومه، ويُقال له شيبة الحمد، لكثرة جوده  
وكرمه، وهو الذي جدّد حفر زمزم، وهو أول من طلى الكعبة بذهب في  
أبوابها . .

ومحمد الهاشمي، نسبة إلى هاشم بن عبد مناف، واسمه عمرو،  
وأطلق عليه «هاشم» لهشمه الثريد مع اللحم لقومه في أوقات الشدة  
والقحط، وهو أول من سنّ رحلتي الشتاء والصيف . .  
ويستمر النسب الشريف إلى النضر بن كنانة - الجدّ الثاني عشر -  
وهو قريش . .

وفي اشتقاق هذه الكلمة نجد أنها من القرش بمعنى الكسب  
والجمع، أو من التقرّيش بمعنى التفتيش . .  
فهو الذي وحدّ القبيلة بعد تفرق، وهو الذي كان يبحث عن حاجات  
الناس فيقضيها لهم . .

ويذكر المؤرخون الإجماع في النسب الشريف على عشرين جدّاً،  
هكذا:

محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي  
ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر  
ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن  
عدنان . .

ولا خلاف أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛  
وما بين عدنان وإسماعيل مختلف فيه، وكان ابن عباس وغيره إذا بلغ  
عدنان قال: كذب النسابون . . !!

وكره الإمام مالك رفع النسب إلى ما بعد عدنان . .

وُروى عن عروة بن الزبير قوله :  
 ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان ولا ما وراء قحطان إلا تخرصاً .  
 وكان قوم من السلف منهم عبدالله بن مسعود، وعمرو بن ميمون  
 الأزدي، ومحمد بن كعب القرظي إذا تلاوا ﴿ والذين من بعدهم لا يعلمهم  
 إلا الله ﴾ (١) .

قالوا : كذب النسَّابون (٢) !! .

ويكفي أن نؤمن بالحديث الشريف - كما في صحيح مسلم - أن  
 رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى  
 من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من  
 قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم » .

وفي مسند الإمام أحمد : قال العباس :  
 بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس . . فصعد المنبر فقال : « من أنا ؟ ! » .  
 قالوا : أنت رسول الله . .

قال : « أنا محمد بن عبدالله بن عبد المطلب . .  
 إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه . .  
 وجعلهم فريقين، فجعلني في خير فرقة . .  
 وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة . .  
 وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً . .  
 فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً » .

وقد وُلد محمد ﷺ من نكاح، ولم ينله من سفاح الجاهلية شيء،  
 فقد تزوج عبدالله بن عبد المطلب من سيدة بني زهرة - أمنة بنت وهب بن

(١) سورة إبراهيم، آية : ٩ .

(٢) راجع السيرة النبوية لابن كثير ج ١، ص ٧٥ .

عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ..

وبعد أن بنى عبدالله بآمنة خرج في تجارة إلى الشام، وفي طريق العودة تخلف عند أخواله بني عدي بن النجار بالمدينة لمرض ألمّ به، فمكث شهراً ثم وافاه الأجل المحتوم بعد حياة لم تزد عن خمس وعشرين سنة.

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يُولد محمد دون أن يرى أباه، فأرضعته أمّه كما أرضعته مولاة عمه أبي لهب ثوية، ثم استرضع في بني سعد من حليلة بنت أبي ذؤيب، وظلّ معها خمس سنوات في بيت زوجها الحارث بن عبد العزى، في جو الصحراء الطلق يستصفي لغة العرب ..

ويذكر الإمام السهيلي الأسباب التي دفعت قريشاً وغيرهم من أشراف العرب إلى استرضاع أولادهم، وهي:

«تفريغ النساء إلى الأزواج، كما قال عمار بن يسار لأم سلمة رضي الله عنها، وكان أخاها من الرضاعة - حين انتزع من حجرها زينب بنت أبي سلمة قال: دعي هذه المقبوحة المشفوحة<sup>(١)</sup> التي آذيت بها رسول الله ﷺ».

وقد يكون ذلك منهم أيضاً لينشأ الطفل في الأعراب فيكون أفصح للسانه، وأجلد لجسمه، وأجدر أن لا يفارق الهيئة المَعْدِيَّة<sup>(٢)</sup>، كما قال عمر رضي الله عنه:

تمعددوا، وتمعززا<sup>(٣)</sup>، واخشوشنوا.

وقد قال - عليه الصلاة والسلام - لأبي بكر - رضي الله عنه - حين قال له:

---

(١) المشفوحة: المبعدة.

(٢) نسبة إلى معد وكانوا أهل قوة وشدة.

(٣) اشتدوا.

ما رأيت أفصح منك يا رسول الله؟.

فقال: «وما يمنعني وأنا من قريش، وأرضعت في بني سعد».

فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرضعاء إلى المراضع الأعرابيات، وقد ذكر أن عبد الملك بن مروان كان يقول:  
أضرّ بنا حبُّ الوليد..!!

لأن الوليد كان لحاناً، وكان سليمان فصيحاً، لأن الوليد أقام مع أمه، وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البادية فتعربوا ثم أدّبوا فتأدّبوا..»<sup>(٤)</sup>.

ثم عاد محمد - ﷺ - إلى أمه فمكث معها عاماً، ثم خرجا في زيارة للمدينة فماتت وهي راجعة به إلى مكة، فكفله بعد ذلك جده عبد المطلب مدة عامين، توفي بعدهما، فانقل إلى كفالة عمه أبي طالب..

ومن الملاحظات الطريفة ما قيل:

إن في اسم الوالدة والقابلة الأمن والشفاء، فأمه آمنة وقابلته الشفاء<sup>(٢)</sup>..

وفي اسم حاضنته البركة والسخاء فهي أم أيمن..

وفي اسم مرضعته الأولى الثواب فهي ثوية جارية أبي لهب.

وفي اسم مرضعته المستقلة برضاعه الحلم والسعد فيه حليلة السعدية..!!

ولقد صاحب الميلاد الشريف آياتٌ تعتبر إرهاباً لما ينتظر هذا الوليد من شأن عظيم..

ويذكر كتابُ السيرة عن هذه المرحلة من حياة سيدنا محمد ﷺ مرويات تعقبها علماء الحديث.

(١) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام - ج ١، ص ١٨٧.

(٢) الشفاء بكسر الشين المعجمة وتخفيف الفاء، وقيل بفتحها وتشديد الفاء مقصراً.

فما يقال من أن مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون حضرا الميلاد الشريف، أو أن جبريل ختنه حين طهر قلبه، أو أنه ﷺ خرّ جاثياً رافعاً رأسه إلى السماء، أو ما يُذكر من أن إيوان كسرى ارتجس، ونار فارس خمدت، وبحيرة ساوة غاضت. . إلخ ففي كثير منها غرائب ومناكير. . وكان الإمام ابن كثير عقب رواية هذه الآثار يقول مثلاً<sup>(١)</sup>:

- في صحتها نظر. .!!

- وهذا غريب جداً. .!!

- لكن فلاناً هذا متروك كذاب متهم بالوضع، فلهذا لم نذكر لفظ الحديث إذ لا يُفرح به. .!!

- هذا الحديث لا أصل له في شيء من كتب الإسلام المعهودة ولم أره بإسناد أصلاً. .!!

حتى الإمام ابن إسحق يسوق عبارة الزعم - ومعروف أن (زعم) مطيئة الكذب - فيقول مثلاً:

ويزعمون - فيما يتحدث الناس والله أعلم - أن آمنة ابنة وهب أم رسول الله ﷺ كانت تُحدث:

أنها أتيت حين حملت برسول الله - ﷺ - فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولِي أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سميه محمداً، ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام».

ونحن لا ننكر أن للمرأة الحامل أوضاعاً نفسية تجعلها تتطلع إلى المستقبل في محاولة لاستقراء الغيب. .

---

(١) راجع السيرة النبوية جـ ١، ص ٢٠٩، ٢٢٠، ٢٢٩.

ونحن لا نشك أن سيدنا محمد ﷺ إرهابات في حمله وولادته ونشأته؛ أهمها حفظ الله تعالى الكعبة المشرقة من هجمة الأحابش..

ونحن لا نريد أن نتكلم رجماً بالغيب أو نتتبع قصص الوضّاعين والمجهولين والمتروكين، ويجب أن نفرّق بين إمكان الشيء ووقوعه، فكل شيء ممكن في قدرة العلي الأعلى، لكن السؤال المطروح هو: هل وقع ذلك أم لا؟!

إن من أغرب الخيال ما ساقه أبو نعيم منسوباً إلى ابن عباس: فكان من دلالات حمل النبي ﷺ أن كل دابة كانت لقريش نطقت تلك الليلة وقالت:

حُمِّل برسول الله ﷺ ورب الكعبة، وهو أمان الدنيا وسراج أهلها. ولم يبق كاهنة من قريش ولا قبيلة من قبائل العرب إلا حجت عن صاحبها وانترع علم الكهانة.

ولم يكن سرير ملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً، والملك مخرساً لا ينطق يومه ذلك.

ومرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات، وكذلك البحار يبشر بعضهم بعضاً به..

وفي كل شهر من شهوره نداء في الأرض ونداء في السماء أن أبشروا فقد آن لأبي القاسم أن يخرج إلى الأرض ميموناً مباركاً..

ثم تستطرد تلك الرواية المزعومة فتصف لحظة المخاض وما صحبها من طيور أقبلت، مناقيرها من الزمرد وأجنحتها من اليواقيت، وكشف عن بصر آمنة الحجاب فرأت مشارق الأرض ومغاربها، ثم تقول: رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت من السماء تنزل حتى غشيتها فغيب عن وجهي فسمعت منادياً ينادي، يقول: طوفوا بمحمد ﷺ شرق الأرض

وغربها، وأدخلوه البحار كلها ليعرفوه باسمه ونعته وصورته . . ويعلموا أنه سَمِيَ فيها الماحي، لا يبقى شيء من الشرك إلا مُحي به في زمنه .

ثم تجلّت عنه في أسرع وقت فإذا به مدرج في ثوب صوف أبيض أشد بياضاً من اللبن، وتحتة حريرة خضراء، قد قبض على ثلاث مفاتيح من اللؤلؤ الرطب الأبيض، وإذا قائل يقول: قبض محمد على مفاتيح النصر، ومفاتيح الذبح، ومفاتيح النبوة . .»<sup>(١)</sup>.

إن هذه الرواية أشبه بالأدب الرمزي، ونكاد نقطع أن السيدة آمنة لم تقلها وأن ابن عباس لم ينقلها.

وأيّن كان ابن عباس يوم الميلاد الشريف؟ .

إن هذه الأحداث كانت قبل وجود ابن عباس بما يزيد على الخمسين عاماً. وهل سمع أحد نطق كل دابة لقريش؟ .

وإذا لم يكن سمعها أحد فما قيمة هذا النطق؟ .

وإذا سمعها أحد فمن هو؟ .

وهل هذا الحدث - من السهولة - حتى لا يتناقله الناس ويتواتر؟! .

إن قدر سيدنا محمد ﷺ عظيم، ومكانته رفيعة وليس في حاجة إلى أوهام ننسجها حول ميلاده الشريف . .

وإن لدينا من الحق والصدق ما يزيدنا إيماناً على إيمان، وإن أعلام نبوته ﷺ أظهر من الشمس في رابعة النهار . .

ويكفي في ميلاده الشريف أن نتأمل العبرة الكبرى:

لقد ولد محمد يتيماً فأواه الله . .

ونشأ دون أب يرعاه فأدّبه ربّه . .

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني ص ٢٢١ .



وتلقفته أيدٍ كثيرة من شأنها أن تورث شتاتاً في الفكر والسلوك، ولكن الله تعالى أراد أن يصنعه على عينه وأن تتمحص العناية الإلهية في كفالة هذا اليتيم، فيستقيم له الفكر والسلوك فكان الصادق الأمين في الجاهلية، وكان خلقه القرآن في الإسلام..

ثم إن هناك تأملاً آخر، فالعادة جارية بأن اليتيم الذي تتلقفه أيدٍ كثيرة وتتعدد عليه الولايات، لا يخفى من أمره شيء، وتظهر أخلاقياته، وتتضح سلوكياته فلا شيء مستور منها..

ومحمد - ﷺ - وهو اليتيم الذي كفله أكثر من شخص، وعاش في أكثر من بيت وتعدد كافلوه؛ ما وُجد فيه عيب وما ظهر منه نقص، وما عُرف عنه مطعن، ولا أُخذ عليه مأخذ، وإنما كان الطاهر النزيه، والصادق الأمين، والعفيف الزاكي.. إنها كفالة الله.. وعناية المولى.. وتدبير الحكيم العليم..

ولعل نظرة في حياة الأنبياء ترينا أن أصحاب الرسالات الكبرى نشؤوا في غير كفالة أب، وتباعدوا عن جو الأسرة الحانية، وذلك لحكمة بالغة.. فإسماعيل عليه السلام ألقى به أبوه في وادٍ غير ذي زرع، وجاء في بعض الروايات:

«ثم قفَّ إبراهيمٌ منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتركننا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس؟!..

فقالت: الله أمرك بهذا؟!..

قال: نعم.

قالت: إذا لا يضيعنا..».

ويوسف عليه السلام ألقاه إخوته في الجب والتقطة بعض السيارة وبيع لعزير مصر، ثم دخل السجن، ثم خرج منه على خزائن الأرض واستخلصه الملك لنفسه..

وموسى عليه السلام أَلَقَتْ به أمه في اليم والتقطه آل فرعون وترى  
في قصر فرعون، ولبث فيه السنين الطوال..

وعيسى عليه السلام أتت به مريم قومها دون أن يمسه بشر ودون أن  
يقوم على أمر رعايته والد..

إن هؤلاء جميعاً كانوا أنبياء وتحملوا رسالة الوحي الإلهي.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً  
وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾ (١).

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ  
بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا جُرْ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا  
وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٢).

﴿فلما أتاها نُودِي يا موسى إني أنا ربُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ  
الْمُقَدَّسِ طَوَى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (٣).

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ  
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ، وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي  
الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ..﴾ (٤).

إن حكمةً بالغةً هنا تشدّ عقل الإنسان إلى آفاق عليا من التأمل..

فالأَسباب المادية التي تعارف الناس عليها ليست هي كل شيء..

إن وراء كل ظاهرة في الطبيعة والإنسان تدبيراً إلهياً محكماً..

---

(١) سورة مريم، آية: ٥٤ - ٥٥.

(٢) سورة يوسف، آية: ٥٦ - ٥٧.

(٣) سورة طه، آية: ١١ - ١٣.

(٤) سورة آل عمران، آية: ٤٥ - ٤٦.

وإن عقل الإنسان في إدراكه لقضايا الحياة قاصر عن الإحاطة والاستيعاب..

إن الحقيقة الكبرى التي يجب أن تكون فلسفة الإنسان في حياته كلها؛ هي ما عبّر عنه القرآن العظيم في قوله:  
﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٥٨.



## راعي الغنم

ورث سيدنا محمد - ﷺ - عن أبيه خمسة من الإبل، وقطيعاً من الغنم، وجارية هي أم أيمن<sup>(١)</sup>..

وتلك ثروة - في عرف زمانها - ضئيلة، إلا أن الله تعالى هياً له الأسباب وعمل سيدنا محمد في رعي الغنم، فقد رعاها وهو صبي في بني سعد، ورعاها وهو شاب في مكة، وكان يذكر ذلك مغتبطاً، فالعمل شرف، واكتساب الرزق فريضة..

وفي رواية البخاري قال عليه الصلاة والسلام:  
«ما بعث الله نبياً إلا وقد رعى الغنم» فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟

قال: «وأنا رعيته لأهل مكة بالقراريط»<sup>(٢)</sup>.

ولعلَّ الله حكمة في رعي الغنم، فهو يكسب صاحبه يقظة حتى لا يعدو الذئب على شاة منها، ويجعله حريصاً على المصلحة، صابراً على المشاق، مثابراً على الهدف كي يوفر لغنمه مآكلها ومشاربها..

ثم إن الرعي بعد ذلك يدع للراعي فرصة للتأمل في مظاهر الطبيعة

---

(١) أعتقها الرسول فيما بعد، وزوجها مولاه زيد بن حارثة فولدت له أسامة.

(٢) القراريط أجزاء من الدراهم والدنانير يشتري بها الحوائج البسيطة.

ونظام الكون حين يجلس في امتداد الصحراء يلحظ غنمه . .

والممتع لتاريخ الأنبياء يجد أن للغنم دوراً في هذا التاريخ . .

فإسماعيل عليه السلام ترتبط قصة حياته بكبش أنزله الله فداء له  
وتصديقاً لرؤيا أبيه . .

﴿ فلما أسلما وتلَّهُ للجبين ونادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا  
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ  
عَظِيمٍ ﴾ (١).

وموسى عليه السلام، وهو في الوادي المقدس، حال المفاجأة  
الكبرى، جرى هذا الحوار:

﴿ وما تلك بيمينِكَ يا موسى؟  
قال: هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ  
أُخْرَى ﴾ (٢).

ولما ائتمر القوم بموسى وتوجه تلقاء مدين وقعت أحداث كان للغنم  
فيها نصيب، فقد سقى للمراثين ثم دُعي إلى بيت أبيهما الشيخ الكبير،  
وانتهى الأمر بالزواج من إحداهما وظلَّ مع أبيها عشر سنين يرعى له الغنم:  
﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا: يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ  
الْأَمِينُ .

قال: إني أريد أن أنكحك إحدى هاتين على أن تأجرني ثمانِي  
حِجَجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ، وما أريد أن أشقَّ عليك ستجدني إن  
شاء الله من الصالحين .

---

(١) سورة الصافات، آية: ١٠٣ - ١٠٧ .

(٢) سورة طه، آية: ١٧ - ١٨ .

قال: ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيتُ فلا عُدوانَ عليَّ واللَّهُ على ما نقولُ وكيلٌ ﴿١﴾.

وداود عليه السلام تسوَّر عليه الخصمان مكان عبادته ليحكم بينهما في شركة: لأحدهما تسع وتسعون نعجة وللآخر نعجة واحدة، وأراد صاحب النصيب الكبير أن يستأثر بالشركة كلها لنفسه، فحكم داود وعدل وبين عبرة الحياة:

﴿قال لقد ظلمك بسؤال نعجتِكَ إلى نعاكِه. وإن كثيراً من الخُطأ لَيبغى بعضهم على بعضٍ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتٍ وقليلٌ ما هم..﴾ ﴿٢﴾.

وأشار القرآن إلى قصة نزاع بسبب الغنم تحاكم فيها أصحابها إلى داود وسليمان عليهما السلام، فحكم سليمان وهو صغير بحكم غير حكم أبيه، وكان حكم سليمان أرفق:

﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعِلماً..﴾ ﴿٣﴾.

قال أكثر أهل العلم:  
«إن الحرث الذي حكم فيه سليمان وداود - إذ نفثت فيه غنم القوم - بستان عنب.

والنفث: رعي الغنم ليلاً خاصة.  
وقيل: كان الحرث المذكور زرعاً.

---

(١) سورة القصص، آية: ٢٦ - ٢٧.

(٢) سورة ص، آية: ٢٤.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ٧٨ - ٧٩.

وذكروا أن داود حكم بدفع الغنم لأهل الحرث عوضاً عن حرثهم الذي نفشت فيه فأكلته .

وقال بعض أهل العلم: اعتبر قيمة الحرث فوجد الغنم بقدر القيمة فدفعها إلى أصحاب الحرث، إما لأنه لم يكن لهم دراهم أو تعذر بيعها ورضوا بدفعها ورضي أولئك بأخذها بدلاً من القيمة .

وأما سليمان فحكم بالضمان على أصحاب الغنم وأن يضمنوا ذلك بالمثل بأن يعمرُوا البستان حتى يعود كما كان حين نفشت فيه غنمهم، ولم يضيع عليهم غلته من حيث الإلتلاف إلى حين العود، بل أعطى أصحاب البستان ماشية أولئك ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان فيستوفوا من نماء غنمهم نظير ما فاتهم من نماء حرثهم، وقد اعتبر النماءين فوجدهما سواء . .

قالوا: وهذا هو العلم الذي خصّه الله به وأثنى عليه بإدراكه . . هكذا يقولون والله تعالى أعلم<sup>(١)</sup> .

لقد كان للرعي دورٌ أساسي في التاريخ الإنساني، ولا زال للأنعام ارتباطها الوثيق بحياة الإنسان . . وصدق الله حيث يقول:

﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمَلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ .  
وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ .  
وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ؟! .  
أَفَلَا يَشْكُرُونَ؟! ﴾<sup>(٢)</sup> .

والأنبياء ما هم إلا بشر يعيشون مجتمعهم بكل معالمه الإنسانية،

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - العلامة محمد الأمين الشنقيطي - ج ٤ ، ص ٦٦٩ .

(٢) سورة يس، آية: ٧١ - ٧٣ .



ولعل في رعي الغنم توطئة لرعي الخلق وسياستهم ..

ولم يكتف سيدنا محمد ﷺ برعي الغنم بل ذهب في شبابه المبكر مع عمه أبي طالب في تجارة إلى الشام ..

وفي مرحلة شبابه المتأخر تسامعت به السيدة خديجة بنت خويلد، فعرضت عليه أن يخرج لها في تجارة إلى الشام لما بلغها عنه من صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق ..

فبارك الله في هذا المال وربحت التجارة ربحاً كبيراً ..

ومن هنا حرصت السيدة خديجة - وهي ذات الشرف والنسب - على أن تقترن بهذا الرجل الأمين ليحفظ لها أموالها ويصون ثروتها وتسكن إليه في وحدتها فهي الثيب الأرملة بعد زوجها أبي هالة بن زرارة، وعتيق بن عائذ ..

وتحكي الروايات أن سيدنا محمداً أصدقها عشرين بكرة ..

وعاش معها ﷺ خمساً وعشرين سنة وفياً أميناً ورزقه الله منها البنين والبنات، ولم يتزوج عليها امرأة أخرى رغم فارق السن بينهما، وظلت حبه الأول والكبير حياته كلها ..

تقول السيدة عائشة - كما في الصحيح -:

«ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، وما رأيتها قط، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يبيعها في صدائق خديجة».

وعندما يكثر الرسول من ذكر خديجة تقول له عائشة:

ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدين<sup>(١)</sup>؟! .  
فأبدلك الله خيراً منها .. !!

---

(١) سقطت أسنانها.

فيقول الرسول الأمين:  
والله ما أبدلني الله خيراً منها..  
آمنتُ بي إذ كفر الناس..  
وصدقتني إذ كذَّبني الناس..  
وواستني بمالها إذ حرمني الناس..  
ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء.

إن الدرس الذي يجب أن نعيه تماماً من هذا الجانب في حياته ﷺ،  
أن زخرف الدنيا ومتاعها لم يكن هدفاً لسيدنا محمد يحرص عليه، ولا  
غاية يسعى إليها.

وعاش ﷺ قبل البعثة وبعدها عزيز النفس كريماً، يتسامى على كل  
المتع المادية، ويتعالى فوق كل إغراء..

وعندما عرض المشركون عرضاً سخياً على رسول الله وقالوا:  
إن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا  
حتى تكون أكثرنا مالاً.

وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا.

وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا.

وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون  
التابع من الجن رثياً - فربما كان ذلك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك  
حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال عليه الصلاة والسلام:

ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئكم به أطلب أموالكم ولا الشرف  
فيكم ولا الملك عليكم..

ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون  
لكم بشيراً ونذيراً..

فبلغت رسالات ربي ونصحت لكم ..

فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» .

لقد عاش سيدنا محمد ﷺ المثل الأعلى في السمو على متاع الحياة في خاصة نفسه وأهل بيته، وما هي ذي السيدة عائشة تحدثنا عن طعام بيت النبوة فتقول - كما في صحيح البخاري - :

«إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار. !!»

فسألها ابن أختها عروة بن الزبير:

يا خالة ما كان يعيشكم؟! .

قالت: الأسودان التمر والماء ..» .

وعندما سُئلت السيدة عائشة: ما كان فراش رسول الله في بيتك؟! .

قالت - كما رواه الترمذي - :

من أدم<sup>(١)</sup> حشوه ليف ..

وسئلت حفصة بنت عمر نفس السؤال فقالت:

مِسْحاً<sup>(٢)</sup> نثنيه ثنيتين فينام عليه؛ فلما كان ذات ليلة قلت لو نثيته بأربع كان أوطأ له، فثنيناه بأربع ثنيات .

فلما أصبح قال: ما فرستم لي الليلة؟! .

قالت: هو فراشك إلا أنا ثنيناه بأربع ثنيات قلنا هو أوطأ لك .

---

(١) الأدم - بالفتح - باطن الجلد الذي يلي اللحم .

(٢) كساء غليظ .

فقال عليه الصلاة والسلام: ردوه لحالته الأولى فإنه منعني وطأته  
صلاتي الليلة..

وكيف كانت بيوت أزواج النبي؟.

هل كانت ناطحات سحاب أو قصوراً ضخمة ذات أفنية أو بيوتاً من  
زخرف فيها الأرائك والمعارج؟!.

لقد أخرج ابن سعد أن عطاء الخرساني قال في الروضة الشريفة:  
أدركت حجر أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل، على أبوابها المسوح  
من شعر أسود.

فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ، يأمر بإدخال حجر أزواج  
النبي في مسجد رسول الله، فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم..

قال عطاء: فسمعتُ سعيد بن المسيب يقول يومئذ:

والله لوددت أنهم تركوها على حالها، ينشأ ناشيء أهل المدينة  
ويقدم القادم من الأفق فيرى ما اكتفى به رسول الله في حياته، فيكون ذلك  
مما يزهّد الناس في التكاثر والتفاخر في الدنيا.

وقال يومئذ أبو أمامة:

ليتها تركت فلم تهدم حتى يَقْصُرَ الناس عن البناء، ويروا ما رضي  
الله لنبيه ومفاتيح خزائن الدنيا بيده...!!

ويوم أحسّ نساء النبي ﷺ أن الدنيا قد فتحت على المسلمين وأن  
الغنائم تكاثرت في أيديهم - سألن رسول الله مزيداً من النفقة ومزيداً من  
متع الحياة، وألححن في السؤال حتى شقَّ ذلك على النبي فاعتزلهن شهراً  
من شدة غضبه عليهن، وشاع بين المسلمين أن الرسول طلق نساءه..

هنا نزلت آية التخيير لأمهات المؤمنين:

﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنَّ تُردن الحياة الدنيا وزينتها

فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً، وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمَحْسَنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴿١﴾.

وكلهن اخترن الله ورسوله ..

هذا الثبات على الحق ..

وهذا المنهج الذي لم يتغير في الزهد والإقبال على الآخرة ..

وهذا العزوف الكامل عن متع الحياة الرخيصة ..

ألا يؤكد الحقيقة الكبرى، أنه يبلغ رسالة ربه ويبتغي وجه الله والدار  
الآخرة. !؟

وحين عاند المشركون واستهزؤوا وقالوا:

ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟! .

وأرادوه ملكاً رسولاً أو ملكاً مترفاً، لم يعبأ القرآن بهذا الموقف  
وصحَّح لهم مفاهيم النبوة فقال:

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا .

تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها  
الأنهار ويجعل لك قصوراً .

بل كذبوا بالساعة وأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعيراً ﴿٢﴾ .

\* \* \*

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢٨ - ٢٩ .

(٢) سورة الفرقان، آية: ٩ - ١١ .



## الصادق الأمين

قال ابن إسحق:

«فشبَّ رسولُ الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقدار الجاهلية لما يُريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً... أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حِلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة...»<sup>(١)</sup>.

وشواهد ذلك من حياة المصطفى كثيرة..

فقد جاء في صحيح الحديث أنه ﷺ حين جدّدت قريش بناء الكعبة المشرفة «كان ينقل الحجارة مع قومه.. وكانوا يحملون أزرهم على عواتقهم لتقيهم الحجارة، وكان رسولُ الله يحملها على عاتقه وإزاره مشدود عليه.. فقال له العباس:

يا ابن أخي لو جعلت إزارك على عاتقك؟!..

ففعل فسقط مغشياً عليه ثم قال إزاري، إزاري..  
فشدَّ عليه إزاره وقام يحمل الحجارة».

---

(١) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام - للإمام السهيلي ج ١، ص

وفي ذلك حرص على ستر العورة وطهارة العرض ..

وعندما بلغ بنيان الكعبة موضع الحجر الأسود اختصمت قبائل قريش فيمن يحوز شرف وضعه في مكانه، وكادوا يقتتلون لولا أن الوليد بن المغيرة قال:

يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم.

وشاء الله أن يكون محمد بن عبدالله أول داخل عليهم، فلما رآوه قالوا: هذا الأمين... رضينا، هذا محمد..

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: «هلم إليّ ثوباً..».

فأتي به فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوا جميعاً.. ففعلوا حتى إذا بلغوا به مكانه وضعه هو بيده الشريفة..

وهكذا حلت كلمة الوفاق محل الشقاق ببركة سيدنا محمد وحكمة عقله..

ومع أن محمد بن عبدالله ﷺ عاش في مجتمع فيه النقائص والتناقضات العقدية والأخلاقية إلا أن عصمة الله له ظاهرة جلية، فلم يشارك في لهو، ولم يسجد لصنم..

واخترع الوهم الجاهلي في دين الله، وابتدع الحمس<sup>(١)</sup> أشياء ما أنزل الله بها من سلطان، فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها زاعمين أنهم أهل الحرم فلا يخرجون منه، وحرّموا على الناس المآكل والمشارب التي

---

(١) جماعه من المتشددين، والتحمس التشدد، والمفرد أحمس.



تأتي من خارج الحرم، وصنعوا ثياباً خاصة لمن يطوف بالبيت فمن لم يجدها طاف عرياناً..

ولكن سيدنا محمداً وفقه الله وألهمه، فيقول جبير بن مطعم:

«ولقد رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي، وإنه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس من بين قومه حتى يدفع معهم منها توفيقاً من الله له»<sup>(١)</sup>.

وشأن الحياة أن لا تتمحض للشر أو للخير، فقد وجد في المجتمع الجاهلي بقايا قيم وخير ومعروف..

ويُحكى أن رجلاً قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، فحبس عنه حقه، وحاول الرجل أن يستخلصه فأعيتته الحيل، فرقى جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقرش في أنديتهم حول الكعبة ونادى بأعلى صوته:

يا آل فهر، لمظلوم بضاعته    بيطن مكة، نائي الدار والنفر  
ومُحرمٍ أشعثٍ لم يقض عمرته    يا للرجال، وبين الحجر والحجر  
إن الحرام<sup>(٢)</sup> لمن تمت مكارمه    ولا حرام لثوب الفاجر الغدر  
فقام إليه الزبير بن عبد المطلب، وعبد الله بن جدعان واجتمعوا - بنو هاشم وزهرة وتيم - في دار عبدالله، وتحالفوا في ذي القعدة قبيل البعثة بعشرين سنة، وتعاهدوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه.

ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الرجل ودفعوها إليه، ولقد شهد هذا الحلف سيدنا محمد ﷺ وقال عنه بعد البعثة: «لقد شهدت

(١) الروض الأنف ج ١، ص ٢٢٣.

(٢) الحرام بمعنى الاحترام.

في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعي به في الإسلام لأجبت».

فنصرة المظلوم قيمة إنسانية كبرى..  
والإسلام يؤازر الحق وأهله ويوجب نداء المستغيث..  
فالحق عرض الله والعدل شريعته..

وقد اختار سيدنا محمد الخلوة بغار حراء اعتزالاً لباطل قومه، وفكراً وتأملاً في ملكوت السموات والأرض، ونظراً إلى الكعبة المشرفة من قمة جبل النور..

وهو في خلوته هذه لم ينس واجب المواساة للضعفاء وذوي الحاجات، فكان يُطعم من جاءه من المساكين، وكلما فرغ زاده عاد إلى بيته ليتزوّد، وجاء في صحيح البخاري بسنده عن عائشة قالت:

«أول ما بدى به ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِبَ إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه - وهو التعبّد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء...».

ويروي ابن إسحق:

«أن رسول الله ﷺ كان يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره<sup>(١)</sup>، الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع إلى بيته...».

---

(١) الجوار - بالكسر - في معنى المجاورة وهي الاعتكاف، إلا أن الاعتكاف مختص بالمسجد، والجوار قد يكون خارج المسجد، ولذا لا يسمى جواره ﷺ اعتكافاً لأن حراء ليس بمسجد ولكنه من جبال الحرم.

وهنا مجموعة ملاحظات :

أولاً : هذا الشهر الذي اختاره الرسول الكريم للتعبد هو شهر رمضان كله أو معظمه، لأن الوحي تنزل في شهر رمضان والرسول كعادته في خلوته ..

قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ (١).

وتكون الليالي ذوات العدد التي ذكرت في حديث السيدة عائشة تعني فترة بقاء الزاد فقط، أي أنه يحمل زاده لعدة ليال، فإذا نفذ عاد فتزود لمثلها، إذ لم يتوافر لديهم وسائل لحفظ الطعام مدة طويلة، أو ربما نفذ الزاد لإطعامه المساكين ..

ثانياً : ما الذي دفع المساكين أن يذهبوا إلى غار حراء؟! وهل اختيار غار حراء للخلوة مختص برسول الله؟! .

بالتأمل قليلاً نجد أن ذهاب المساكين إلى الغار ينم على أن ذلك المكان مقصود للحنفاء وأصحاب التأملات، ولمن يريد أن ينقطع عن المألوف من مظاهر مجتمعه ..

قال الإمام الحلبي :

«وعن عبيد بن عمير رضي الله عنه :

كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء، في كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تحنث فيه قريش في الجاهلية».

أي المتألهين منهم، وكان أول من تحنث فيه من قريش جده ﷺ - عبد المطلب، فقد قال ابن الأثير :

أول من تحنث بحراء عبد المطلب، كان إذا دخل شهر رمضان صعد

---

(١) سورة البقرة، آية : ١٨٥ .

حراء وأطعم المساكين، ثم تبعه على ذلك من كان يتأله أي يتعبد كورقة ابن نوفل، وأبي أمية بن المغيرة»<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: إن غار حراء هو كهف في قمة جبل بينه وبين مكة ثلاثة أميال، عن يسار الذهاب إلى منى.

والكهف من حيث الموقع الجغرافي والتكوين الجيولوجي مكان ملائم لإثارة خيال الإنسان وقوى التأمل فيه، وعلى مدى العصور كان الكهف ملجأً للإنسان من غوائل الطبيعة، كما كان رمزاً للرفض الفردي لأوضاع اجتماعية ونظم سياسية.

ويحدثنا التاريخ عن قصة أصحاب الكهف التي حكاها القرآن وهم فتية آمنوا بربهم وآثروا الفرار بدينهم من بطش قومهم وجبروت حكامهم فأووا إلى الكهف ولبثوا فيه ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً..

رابعاً: تساءل بعض الباحثين:  
علي أي دين تعبد سيدنا محمد قبل البعثة؟.

وذهبوا مذاهب شتى، فقليل على شرع نوح، وقيل على ملة إبراهيم، وقيل على دين موسى أو عيسى عليهم السلام..

ونحن نرى أن هذه الاتجاهات لا دليل عليها، فلم يثبت أن سيدنا محمداً بحث عن الشرائع أو قرأ في الكتب أو تعلّم من راهب..

قال تعالى: ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولم يذكر التاريخ أن سيدنا محمداً شارك الحنفاء الذين التمسوا لأنفسهم أديان أهل الكتاب، وتفرقوا في البلاد يبحثون عن دين صحيح..

---

(١) إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون - الشهيرة بالسيرة الحلبية - تأليف علي بن برهان الدين الحلبي ج ١، ص ٣٨٢.

(٢) سورة الشورى، آية: ٥٢.

والأوفق أنه ﷺ تعبد قبل النبوة بالتأمل والفكر، والانقطاع والخلوة،  
والصلة والبر. . كل ذلك بإلهام الله وتوفيقه .

وهذا هو ما تؤكد الروايات الصحيحة عن السيدة عائشة في حديث  
بدء الوحي . .

واشتهر ﷺ بأنه الصادق الأمين، وتفرد بهذه الشهرة؛ ولقد كان  
الصدق والأمانة هما العلم المرفوع من أعلام النبوة منذ يومها الأول، فعن  
ابن عباس رضي الله عنهما - كما في الصحيح - قال:

لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ خرج رسول  
الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف:

يا صباحاه . . !!

فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ .

قالوا: محمد .

فاجتمعوا إليه، فقال:

يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد المطلب . .

فاجتمعوا إليه . .

فقال: أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرجُ بسفح هذا الجبل أكنتم  
مصدقِّي؟! .

قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً . .

قال: فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

فقال أبو لهب: تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا . . !!

ثم قام فنزلت هذه السورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . . ﴾ .

انظر معي إلى براعة الاستهلال، ولباقة العرض، وبلاغة الحوار،

وتأمل معي كيف استنطقهم بصدقه وألزمهم بتصديقه..!!

فإن المنطق السليم يقول:

لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله..!!

إن شخصية سيدنا محمد، وعظم أخلاقه، ونبل سلوكه، وكرم معاشرته؛ كانت أحد العوامل الرئيسية في نجاح دعوته.

وإن الذين أسلموا في أوائل العهد المكي لم يكن يجذبهم لهذا الدين الجديد إلا يقينهم الكامل بصدق صاحب الدعوة..

فأول الناس إيماناً على الإطلاق خديجة بنت خويلد، حاضنة الإسلام، فعندما فجأه الحق في غار حراء، ورجع إلى زوجه يقص عليها ما حدث، قالت في ثقة كاملة:

«أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً..

والله إنك لتصل الرحم..

وتصدق الحديث..

وتحمل الكل..

وتكسب المعدوم..

وتقري الضيف..

وتعين على نوائب الحق..».

ثم كان أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، صاحب الرسول قبل البعثة، ودخل معه وخرج، وعرف سريره وعلايته، فلم يتردد لحظة يوم دعاه إلى الإسلام..

وقال عنه ﷺ: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبة وتردد ونظر إلا أبا بكر، ما عكم<sup>(١)</sup> عنه حين ذكرته ولا تردد فيه».. رواه ابن إسحق.

---

(١) عكم: تلبث.

ولم يكتف أبو بكر بإسلامه بل أخذ يدعو إلى الله فأسلم على يديه  
كثير من السابقين إلى الإسلام..

إن الصدق هو المعجزة الأولى التي دفعت الناس إلى الإيمان  
بالرسالة لسيدنا محمد ﷺ، فالقرآن - وهو المعجزة الكبرى - كان في بداية  
الشروق، وما زال يتنزل نجوماً، والقدر المنزل يومئذ كان آيات متفرقات  
من سور القدر والمدثر والمزمل.. ولم يتلفت الناس إليها بعد، وخوارق  
العادات التي امتنَّ الله بها على رسوله لم تظهر وقتها..

وظل الصدق في سويداء قلب المجتمع المكي لا يتزلزل اليقين به  
لسيدنا محمد حتى مع كفرهم بالرسالة.. وتدور الأيام ويخرج الرسولُ  
مهاجراً إلى المدينة ويستخلف علياً في يفراشه ليواري عنه أعين المشركين  
المؤتمرين به، وليردَّ عنه الودائع التي ائتمن أهل مكة الرسول عليها، فلم  
يكن بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا استودعه عند الصادق الأمين..

ومع أن المسلمين خرجوا من مكة، وتركوا ديارهم وأموالهم بغير حق  
إلا أن يقولوا ربنا الله، فقد حرص الصادق الأمين على رد الودائع إلى  
أصحابها المشركين..

أليس هذا هو الخلق العظيم؟!..

\* \* \*





## الأمي

العرب أمة أمّية لم تعتمد على الكتاب كثيراً، ومنحها الله موهبة عقلية وذهنية تمثلت في ملكة الحفظ، فتناقلوا أشعارهم وأيامهم، وأجادوا في ضبط أنسابهم وذرياتهم..

وغلب عليهم هذا الوصف فعرفوا به بين الأمم. قال تعالى عن اليهود وعلى لسانهم:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دَمَتْ عَلَيْهِ قَائِمًا، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

واستعمل القرآن هذا اللفظ في وصف العرب فقال:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

ويشاء الله أن ينشأ سيدنا محمد من هذه الأمة ويشاكل عامتها في عدم القراءة والكتابة، فلم يجلس إلى معلم ولم يقرأ في كتاب..

وذات يوم حدث الرسول أصحابه عن الشهر القمري، وبيّن لهم أنه

(١) سورة آل عمران، آية: ٧٥.

(٢) سورة الجمعة، آية: ٢.

لا يزيد عن ثلاثين ليلة ولا ينقص عن تسع وعشرين، فقال لهم - كما في الصحيح عن ابن عمر:-

«إنا أمة أُمِّيَّة لا تكتب ولا تحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا، وعقد الإبهام في الثالثة، والشهر هكذا وهكذا وهكذا، يعني تمام الثلاثين». والمراد بهكذا الإشارة بأصابع يديه العشرة.

وقد سجل القرآن العظيم أن هذا الوصف لسيدنا محمد مدون في الكتب السابقة، فقال:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾<sup>(١)</sup>.

ولفت القرآن المجيد أنظار العرب إلى واقعية الحياة التي عاشها سيدنا محمد قبل الرسالة، فلم تكن تنبئ بعمق دراسة ولا حرص تغيير. ومكث ﷺ أربعين سنة قبل الوحي إليه، هادئاً ساكناً وديعاً لا يندُّ عن مألوف قومه، اللهم إلا في اشتهاره بالصدق والأمانة..

قال تعالى:

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولحكمة ما عندما فجأ الوحي سيدنا محمداً كان الأمر الإلهي الأول: اقرأ وكان الجواب التلقائي السريع: ما أنا بقارىء!!

إن الحكمة الإلهية الكبرى تكمن في أن هذا الوصف ملاحظ في صدق الرسالة وحقيقة الوحي إلى سيدنا محمد ﷺ..

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٢) سورة يونس، آية: ١٦.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية هذه الملاحظة في تأكيد الإعجاز القرآني الدال على تصديق الله لعبده محمد في دعوى الرسالة، فقال:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ، إِذَا لَا رَتَابَ الْمُبْطَلُونَ، بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

إن معجزات الأنبياء السابقين معجزات حسية ترتبط بشخص رسولها وقت ظهورها، ولا تعلم إلا لمن شاهدها أو نُقلت إليه تواتراً..

أما معجزة القرآن العظيم فهي معجزة عقلية ذاتية تحمل الدليل معها على أنها من عند الله، لا ترتبط بزمن، ولا تختص بحياة الرسول..

وكل من أدرك أن سيدنا محمداً أمي وأن القرآن سجد له البلغاء والفصحاء، وتلمذ عليه العلماء والفلاسفة، وأصلح شؤون الحياة بكاملها، وبني حضارة إنسانية؛ يتزايد عمق إيمانه ويقينه بأن محمداً رسول الله..

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نَوْراً نَهْدِي بِهِ مِنْ نِشَاءٍ مِنْ عِبَادِنَا، وَإِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

ونقل الإمام الرازي عن أهل التحقيق أن كونه ﷺ أمياً بهذا المعنى من جملة معجزاته، وبيانه من وجوه:

الأول: أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوماً مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته، والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فإنه لا بد وأن يزيد فيها أو ينقص عنها بالقليل والكثير، ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع أنه ما كان يكتب ولا يقرأ؛

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤٨ - ٤٩.

(٢) سورة الشورى، آية: ٥٢.

يتلو كتاب الله تعالى من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير، فكان ذلك من المعجزات، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَنَقْرُوكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (١).

الثاني: أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهماً في أنه ربما طالع كتب الأولين، فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة، فلما أتى بهذا القرآن العظيم، المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات..

وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ لَا رَتَابَ الْمُبْتَلُونَ﴾ (٢).

الثالث: إن تعلم الخط شيء سهل، فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعي، فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم..

ثم إنه تعالى آتاه علوم الأولين والآخرين، وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر..

ومع تلك القوة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل الخلائق عقلاً وفهماً..

فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جارياً مجرى الجمع بين الضدين، وذلك من الأمور الخارقة للعادة، وجارٍ مجرى المعجزات (٣) هذا ولم يثبت أن سيدنا محمداً ﷺ خرج من مكة وغاب عنها غيبة طويلة تمكنه من التعلم، وكل ما ورد في كتب السيرة أنه ﷺ خرج مرتين إلى الشام:

---

(١) سورة الأعلى، آية: ٦.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٨.

(٣) التفسير الكبير للإمام الرازي ج ١٥، ص ٢٥، ط. دار الفكر - بيروت ١٤٠١ هـ.

**الأولى:** مع عمه أبي طالب، وكانت سنه حينئذ تقارب الثانية عشرة، وتفيد الروايات أنه التقى براهب يُسمى «بحيرا»، وأن الراهب أخذ يستفسر منه عن أحواله في نومه وهيبته، وتساءل مع عمه عن نشأته وأبيه، وتفحص شؤونَه فأدرك أن لهذا الغلام شأنًا، وأفضى بذلك إلى عمه أبي طالب، ونصحه بالعودة به إلى مكة .

**الثانية:** مع ميسرة غلام السيدة خديجة بنت خويلد في تجارة لها، وسنّه يومئذ خمسٌ وعشرون، ونزل سيدنا محمد للراحة في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يُقال له «نسطورا»، وتبين هذا الراهب - بفراسته - شيئاً من تكريم الله لهذا الشاب فأفصح عنه لميسرة قائلاً:

ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي . . !!

يريد تأكيد أن هذا الشاب الذي يجلس الآن تحت هذه الشجرة سيكون النبي المنتظر لدى أهل الكتاب . .

ويعود سيدنا محمد إلى مكة، ويخوض معمعة الحياة، ويتزوج السيدة خديجة، وتشغله شؤون الأسرة، ويتحمل أعباء تكاليفها . . ثم يفجأه الوحي بعد ثلاثين سنة تقريباً من اللقاء الأول وخمسة عشر عاماً من اللقاء الثاني . .

إن كلَّ شواهد الحياة المحمدية تدل دلالة قاطعة على أنه ﷺ ما توقع رسالة ووحياً، ولا أعدَّ نفسه لزعامة وسلطة، ولا عرف عنه انفعال وثورة . .

وكل الإرهاصات التي أحاطت بمولده الشريف أو بنشأته الطاهرة لم تأخذ مجراها التأثيري البين على واقع حياته المباركة، وإنما كانت طوابع عامة لم يعرها سيدنا محمد الاهتمام البالغ الذي يجعله يسترق السمع أو ينتظر المستقبل أو يعيش على أحلام اليقظة . .

ويشاء الله أن عمّه أبا طالب الذي صاحبه في رحلة الشام الأولى لم

يُسَلِّم يوم دعا رسول الله إلى الدين الجديد؛ . فلو أن المسألة معدّة أو فيها شيء من الترتيب البشري أو دخلها التصنع لكان أبو طالب أول المؤمنين، ولكن حكمة الله اقتضت أن يكون أبو طالب أول المدافعين عن الرسالة رغم شركه الذي أصرّ عليه . .

\* \* \*

## كلمة تنبيه

إن اليتيم والفقر والأمية لا شك أنها - في مجموعها - قاذحة في شخصية الإنسان على وجه العموم . .

لكنها في نطاق الإعداد للنبوة والاصطفاء للرسالة تضعنا في نطاق القدرة الإلهية والعناية الربانية . .

ولا يحق لمسلم أن يقيم على فقر أو أمية مدّعياً أن الرسول كان كذلك . .

لقد سبقت كلمة الله جلّ جلاله أن أجل الإنسان إذا حان لا يؤجله طب ولا تردّه قوة، واقتضت حكمته سبحانه أن يتكافل الناس ويتعاونوا، وبذلك جرى الطبع السليم وأوجب الدين الحنيف، فكان الإحسان إلي الضعيف وكفالة اليتيم ورعاية المريض في شرع الله ديناً، وبين الناس خلقاً كريماً . .

واليتيم في اللغة هو الانفراد، ومنه الدرة اليتيمة أي الفريدة التي لا مثيل لها . .

واليتامى هم الذين مات آباؤهم فانفردوا عنهم . .

وقيل: اليتيم من الناس من فقد أباه، ومن البهائم من فقد أمه.

وحق هذا الاسم أن يقع على الصغار والكبار، إلا أن العرف خصه

بمن لم يبلغ مبلغ الرجال، فهو الذي يحتاج إلى كفالة من يقوم بأموره من نفقه وتأديب حتى يرشد ويستطيع أن يواجه الحياة بأعبائها، ولهذا ورد في الأثر «لا يتم بعد البلوغ»..

وقد جعل رسول الله ﷺ القائم على رعاية اليتيم قريباً له في الجنة فقال - كما في الصحيح - «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى.

كما بين المصطفى صلوات الله عليه عظم ثواب كفالة المحتاجين والسعي في مصالحهم فقال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله».

قال أبو هريرة: وأحسبه قال: «وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر».

فانظر كيف جعل قضاء حوائج هؤلاء يعدل قمماً ثلاثاً من العمل الديني السامي، وهي الجهاد في سبيل الله، وصلاة الليل بغير انقطاع، وصيام الدهر بغير إفطار..

وهذا تأكيد نبوي كريم لأهمية أن يتكافل الناس، وأن يأخذ القوي بيد الضعيف، وأن يكونوا عباد الله إخواناً..

هذا وإن التماس الرزق والسعي له أمر واجب شرعاً، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١).

وقد علّم الرسول ﷺ أصحابه أن أطيب الكسب عمل الرجل بيده، فقال - كما في الصحيح -: «ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

---

(١) سورة الملك، آية: ١٥.



وفي الصحيح أيضاً:

«لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به ويستغني به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه، فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى».

ونستطيع أن نقول مطمئين: إن الفقر الذي ينشأ عن التكاثر وترك السعي مع القدرة عليه هو فقر معصية يُحاسب عليه الإنسان أمام ربه، وإن الفقر الذي ينجم عن التبذير والإسراف هو أيضاً فقر معصية يُسأل عنه المرء يوم القيامة..

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعَدْ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾<sup>(١)</sup>.

وقد شدد الإسلام النهي عن المسألة والتسول فقال النبي ﷺ كما في الصحيح: «من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمرًا، فليستقل أو ليستكثر» أي أن مال التسول شؤم على صاحبه يتحول إلى جمر يكوى به يوم القيامة.

وفي حديث آخر صحيح:

«لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم» أي قطعة لحم ومعناه أنه يأتي يوم القيامة ذليلاً لا كرامة له عند الله.

ولنتذكر هذا التنبيه الرائع من سيدنا رسول الله في قوله:

«ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة

واللقمتان، والتمر والتمرتان، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟

قال: الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل

الناس شيئاً».

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٩.

وليكن معلوماً أن التسول ليس وقفاً على من يمد يديه في الطرقات، بل أشد أنواعه التسول أمام الرؤساء وذوي السلطان، فإن الله قد نزع البركة منه، وليس الغنى عن كثرة العَرَض وإنما الغنى غنى النفس..

وذات يوم وقف الرسول ﷺ وقال لأصحابه:

«إنما أنا خازن، فمن أعطيته عن طيب نفس فيبارك له فيه، ومن أعطيته عن مسألة وشَرَه كان كالذي يأكل ولا يشبع».

وقد تأدّب الصحابة رضي الله عنهم بهذا الأدب النبوي الشريف، فكان عمر بن الخطاب يُعطى العطاء فيقول:

أعطه يا رسول الله أفقر إليه مني!!

وكان يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه..!!

وهذا النبي الأمي هو الذي جعل فداء بعض الأسرى من المشركين في غزوة بدر الكبرى أن يعلم الواحد منهم عشرة من أبناء المسلمين..

وهو الذي أشار على زيد بن ثابت أن يتعلّم لغةً أجنبية، وتحدث الروايات عن زيد أنه قال:

قال لي رسول الله ﷺ: إنها تأتيني كتب لا أحبُّ أن يقرأها كل أحد، فهل تستطيع أن تتعلم كتاب العبرانية أو قال السريانية؟!.

فقلت: نعم. فتعلمتها في سبع عشرة ليلة.

ويكفي أن أول آية في القرآن المجيد نزولاً؛ أمرٌ بالقراءة، وإشارةً إلى آفاق عليا في علم الأجنّة، وامتنان بالتعلم بالقلم..

﴿اقرأ باسم ربِّك الذي خلق.

خلق الإنسان من علقٍ.

اقرأ وربُّك الأكرمُ.

الذي علّم بالقلم.

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ... ﴿١﴾

واهتمام المسلمين بالمعرفة، وقيام حضارتهم على الفكر، وقرائح أذهانهم التي ضمنوها ملايين الكتب والمجلدات - أوضح من أن نتكلم فيها أو نعرض لها..

يقول الإمام الحلبي:

«لا ينبغي لأحد عُمير برعاية الغنم أن يقول كان النبي ﷺ يرعى الغنم، فإن قال ذلك أدب، لأن ذلك - كما علمت - كمال في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دون غيرهم، فلا ينبغي الاحتجاج به. ويجري ذلك في كل ما يكون كمالاً في حق النبي ﷺ دون غيره كالأمية.

فمن قيل له أنت أمي فقال: كان النبي ﷺ أمياً أدب. والله أعلم»<sup>(١)</sup>.

ويحق أن نقف خاشعين أمام سورة قرآنية توحى بكل هذه المعاني التي مضى حديثنا عنها؛ حول ملامح الشخصية المحمدية..

تلك السورة هي سورة الضحى..

تبدأ السورة بقَسَمِ إلهي:

﴿والضحى، والليل إذا سجى﴾.

الضحى: هو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقي شعاعها..

سجى: أظلم وسكن وغطى الكون..

فهذا قسم بالحياة في سرائها وضرائها، ونورها وظلمتها..

ثم تأتي بشرى إلهية:

---

(١) إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون - الشهيرة بالسيرة الحلبية ج ١، ص ٢٠٧.

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ، وَللْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ .

تحدث الروايات أن الوحي فترَ، فقالت أم جميل امرأة أبي لهب: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك..!!

فنزلت هذه السورة تصحح المفاهيم، وتعلي من شأن الإنسان المصطفى والرسول المجتبى..

فانقطاع الوحي فترة زمنية ليس عزلاً عن النبوة..

وتصورات هؤلاء الواهمين بعيدة كل البعد عن الحقيقة..

فلمحمد ﷺ في الآخرة المقام المحمود، والحوض المورود، والشفاعة العظمى.. بل إن مستقبله في الحياة الدنيا لهو خير من حاضره في بادئ العهد المكي.

فهو وعد إلهي بالظفر والنصر حتى يدخل الناس في دين الله أفواجا، ويطلع هذا الدين على ما يطلع عليه الفجر..

ثم تقرر السورة وقائع الحياة النبوية:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى؟!

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى؟!

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى؟! ﴾ .

وقد سبق تفصيل هذه الوقائع، ولكن ننبه إلى معنى كلمة «ضالاً»، وقد ذكر الإمام الرازي في تفسيرها عشرين وجهاً نختار أرجحها وأقواها:

١ - ما روي عن ابن عباس والحسن والضحاك وغيرهم ﴿ وجدك ضالاً ﴾ عن معالم النعمة وأحكام الشريعة، غافلاً عنها، فهداك إليها.

٢ - يقال: ضلَّ الماء في اللبن إذا صار مغموراً، فمعنى الآية كنت مغموراً بين الكفار بمكة فقواك الله حتى أظهرت دينه.

٣- العرب تسمى الشجرة الفريدة في الفلاة ضالّة، كأنه تعالى يقول: كانت تلك البلاد كالمفازة ليس فيها شجرة تحمل ثمر الإيمان بالله ومعرفته إلا أنت، فأنت شجرة فريدة في مفازة الجهل، فوجدتك ضالّاً فهديت بك الخلق.

ونظيره قوله عليه السلام: «الحكمة ضالّة المؤمن».

٤- كنت ضالّاً عن النبوة، ما كنت تطمع في ذلك، ولا خطر شيء من ذلك في قلبك، فإن اليهود والنصارى كانوا يزعمون أن النبوة في بني إسرائيل، فهديتك إلى النبوة التي ما كنت تطمع فيها البتة<sup>(١)</sup>.

وكان ختام السورة تعليماً وإرشاداً إلهياً:

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ .

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ .

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

وتلك هي الثمرات الاجتماعية لأدب الدين وخلق الإيمان. وما جعل التحديث بالنعمة إلا لمزيد من الاقتداء والقُدوة، فشأن مجتمع المسلمين التواصي بالحق والتواصي بالصبر..

\* \* \*

---

(١) التفسير الكبير ج ٣١، ص ٢١٦.



## حديث هرقل

حين استقر الأمر للمسلمين في المدينة المنورة بصلح الحديبية مع قريش في العام السادس للهجرة؛ اتجه الرسول - ﷺ - إلى مخاطبة ملوك العالم وأمراء الجزيرة العربية، وبعث رسائل شخصية إلى هرقل عظيم الروم، وإلى كسرى عظيم فارس، وإلى النجاشي في الحبشة، وإلى المقوقس في مصر. . إلخ.

وكان لكل واحد من هؤلاء ردٌّ خاص على الرسالة النبوية، ويعيننا هنا الآن موقف هرقل من رسالة النبي وتأملاته حولها واستنتاجاته منها. .

والحديث بتمامه مخرّج في الصحيحين، وقصّه أبو سفيان بن حرب الذي كان أحد الأطراف. .

وجه الحديث هو:

أن هرقل أرسل إلى أبي سفيان في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ، مادّاً فيها أبا سفيان وكفار قريش.

فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال:

أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟.

فقال أبو سفيان: أنا أقربهم به نسباً.

فقال هرقل: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه:

قل لهم إني سائلٌ هذا عن هذا الرجل فإن كَذَبَنِي فكذبوه.. « هذا هو الإطار العام للحديث..

وانظر كيف استوثق هرقل قبل أن يبدأ الحديث؟!.

وكيف جعلهم شهوداً على أبي سفيان؟!.

وكيف استوقفهم خلف ظهره لمعنى نفسي كبير، حتى لا يراهم أبو سفيان أثناء حديثه فيهمز إليهم بشيء، ولكي يلحظ هرقل الأثر النفسي المفاجيء إذا كذب أبو سفيان؟!.

ولهذا قال أبو سفيان:

فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا عليّ كذباً لكذبت عنه..!!

ثم بدأت تساؤلات هرقل تتوالى هكذا:

١ - كيف نسبه فيكم؟.

- هو فينا ذو نسب.

٢ - هل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟.

- لا.

٣ - هل كان من آبائه من مَلِك؟.

- لا.

٤ - فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفائهم؟.

- بل ضعفائهم.

٥ - أيزيدون أم ينقصون؟.

- بل يزدون.



٦ - هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ .  
- لا .

٧ - هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ .  
- لا .

٨ - هل يغدر؟ .  
- لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها .  
ويعلق أبو سفيان قائلاً: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة .

٩ - هل قاتلتموه؟ .  
- نعم .

١٠ - كيف كان قتالكم إياه؟ .  
- الحرب بيننا وبينه سجال<sup>(١)</sup>، ينال منا وننال منه .

١١ - بماذا يأمركم؟ .  
- يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة . .  
وأسدل الستار على الأسئلة، وبدأت الاستنتاجات العقلية تترى أمام كل سؤال وجوابه، وأفصح عنها هرقل لجالسيه ومن معهم من تجار قريش هكذا:

١ - وكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها .  
٢ - لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتي بأقوال قيل قبله .

---

(١) السجال بكسر أوله النوب، والسجل الدلو، شبه المحاربين بالمستقيين، يستقي هذا دلواً وهذا دلواً .

- ٣ - لو كان من آباءه مَلَكٌ قلت رجل يطلب مُلك أبيه .
- ٤ - لم يكن ليدَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله .
- ٥ - الضعفاء أتباع الرسل .
- ٦ - وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .
- ٧ - وكذلك الإيمان حين تخالطُ بشاشته القلوب .
- ٨ - الرسل لا تغدر .

وبتمام إجابة السؤال التاسع والعاشر والحادي عشر أخذت هرقل هزة عقلية وعاطفية جعلته يقول :

«إن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين . . وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم . . فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه» .

إن هذه الاستنتاجات العقلية تمثل منهجاً صحيحاً في الاستدلال، فهي قائمة على استقراء أحواله ﷺ وتتبع تطور حياته وملامح شخصيته لتتخذ من ذلك كله أعلاماً للنبوة . .

وقد حدث هرقل نفسه أن يصل بالاستدلال إلى نتيجته، ويلتزم بها إقراراً بصحة الدليل، واعترافاً بصدق النتيجة، فدعا وجهاء قومه وأهل الرأي فيهم إلى قصره وغلّق الأبواب ثم قال لهم :

يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم، فتابعوا هذا النبي؟! .

ولكن القوم آثروا متاع الحياة الرخيصة، واستمروا ما هم فيه من منصب وجاه فرفضوا بشدة :

فحاصبوا عليه حَيَصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقَتْ . . !!

ولم يكن هرقل بالرجل الذي يستطيع أن يواجه الناس بما يعتقد، أو

ليقنع من حوله بما يرى، فتراجع عن مقالته السابقة وقال: إني قلتُ مقالتي  
آنفاً أختبرُ بها شدّتكم على دينكم، فقد رأيت،  
فسجدوا له ورضوا عنه..  
فكان ذلك آخر شأن هرقل».

\* \* \*

\* \*

\*



# الباب الثاني

## العمق التاريخي

- ميثاق النبين .
- دعوة إبراهيم .
- بشرى عيسى .
- دراسات عن البشائر .
- شاهد من أهلها .



## ميثاق النبيين

لسيدنا رسول الله ﷺ عمق تاريخي، يتجلى في تذكير الله تعالى  
لأنبيائه وأقوامهم بتلك الرسالة الخاتمة التي يبعث بها النبي العربي  
والرسول الأمي ..

وقد أخذ هذا التذكير أكثر من شكل، وورد في أكثر من كتاب  
منزل ..

قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، ثُمَّ  
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ  
عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي، قَالُوا أَقْرَرْنَا، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ،  
فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١).

لقد ورد هذا الميثاق خلال حديث طويل - في سورة آل عمران - عن  
أهل الكتاب ومناقشتهم في عقائدهم المحرّفة، وجاءت هذه الآيات إلزاماً  
لهم بضرورة الإيمان بالرسالة المحمدية وفاء لهذا الميثاق؛ ثم تلاها  
استفهام إنكاري لموقفهم المعاند الخارج عن كل النواميس الكونية :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ؟ ﴾

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٨١، ٨٢.

وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿١﴾.

ثم حددت الآيات حقيقة الإيمان الواجب شرعاً على كل مكلف فقالت:

﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لَا نَفَرُّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢).

والملاحظ أن هذه الآية الكريمة بدأت بإثبات الإيمان بالله باعتباره أصلاً للإيمان بالنبوة، ثم قدمت الإيمان بالوحي لسيدنا محمد ﷺ باعتباره المصحح لأوهام أهل الكتاب وتحريفاتهم، ثم ذكرت الإيمان بالوحي لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط باعتبارهم منشأ أهل الكتاب من يهود ونصارى، وإليهم يرجع نسبهم ودينهم، ثم خصصت ما أُوتي موسى وعيسى باعتبارهما أصحاب الرسالتين الأخيرتين قبل رسالة محمد ﷺ، فاليهود يقفون عند شريعة موسى، والنصارى يقفون عند شريعة عيسى..

ثم عممت الآية ضرورة الإيمان بجميع الأنبياء السابقين، من نعرف ومن لا نعرف على وجه الإجمال..

وأخيراً أعلنت الآيات في سورة آل عمران الحقيقة الكبرى المتمثلة في طريق النجاة الأوحى والوحيد، فقالت:

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٣).

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٨٣.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٨٤.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٨٥.



هذا ويحتاج ميثاق النبيين إلى توضيح:  
هل هو ميثاق أخذه الله من النبيين أم أخذه الله للنبيين؟! .

فعلى الاتجاه الأول يكون المعنى أن الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين كي يصدق بعضهم بعضاً حتى تصل الرسالة إلى ختامها ببعثة محمد ﷺ، فكل نبي لا ينافس أخاه ولا ينازعه، وإنما هم يكملون الرسالة الإلهية للبشر، كل في زمانه ومكانه، وهم لبنات بناء عال وصرح مشيد، يشد بعضه بعضاً..

قال عليه الصلاة والسلام - في الصحيح -:  
«مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه إلا موضع لبنة فيه فجعل الناس يطوفون به، ويتعجبون ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

وفي حديث آخر:  
«لقد جئتكم بها بيضاء نقية، والله لو كان موسى بن عمران حياً لما وسعه إلا اتباعي».

وعلى الاتجاه الثاني يكون المعنى أن الله تعالى أخذ الميثاق من الأمم بتصديق كل نبي يؤيد بالمعجزة، ويواصل المسيرة المؤمنة في الهدى والرشاد..

وعلى هذا دعا الأنبياء أقوامهم إلى الإيمان بمن يليهم، وضمّنوا الميثاق كتبهم ووصاياهم لأممهم.. حتى تظل المعالم واضحة يتوارثها الأجيال، وينضموا لركب الإيمان المتجدد..

وعلى كلا الاتجاهين يتحتم على أهل الكتاب الإيمان بالرسالة لمحمد ﷺ وفاء بالعهد، والتزاماً بالميثاق، فهو مصدق لما معهم، ومؤيد بالمعجزة، وداعٍ إلى الحق وصراط مستقيم..

لكن ما معنى تصديق الرسول لما معهم؟.

وهل يلزم منه أن الرسول الخاتم لا يأتي بجديد في التشريع؟  
إن الرسائل الإلهية جمعاء اتفقت على أصول الدين في التوحيد  
وأمهاث الأخلاق والعبادات..

فما من نبي إلا ودعا قومه إلى التوحيد.

قال تعالى :

﴿ وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا  
فَاعْبُدُونِ ﴾ (١).

وما من نبي إلا بين للناس عبادتهم ومعاملتهم :

قال سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وِبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا  
وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ  
وَاتُوا الزَّكَاةَ.

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ  
دِيَارِكُمْ. ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (٢).

وما وراء ذلك من تفاصيل العبادة وكيفية شرائط المعاملات  
 وأنواعها وحدودها فذلك مرهون بالزمان والمكان ومقتضيات العصر وأشكال  
 العمران البشري..

وهذا في الحقيقة ليس بخلاف بل هو ضرورة الحياة المستمرة..

وهكذا يكون تصديق الرسول - أي رسول - لمن سبقه من الرسل..

ويضاف إلى هذا الفهم معنى آخر وهو أن وصف سيدنا محمد ﷺ

---

(١) سورة الأنبياء، آية : ٢٥ .

(٢) سورة البقرة، آية : ٨٣ ، ٨٤ .

ومعالم حياته الرئيسية مذكورة في التوراة والإنجيل، وتطابق الأحوال مع الأوصاف تصديق لما معهم ..

وقد فهم البعض من آية ميثاق النبيين فهماً غريباً، فزعم أن الله تعالى أخذ من النبيين ميثاقاً خاصاً في عالم الذر، يوم أخذ ميثاق بني آدم حين قال: ﴿ألست بربكم﴾.

ورُويت أحاديث تفيد أن النبوة لسيدنا محمد ﷺ وجبت له قبل خلق آدم، أو كما يقال: «وآدم مجندل في الطين» أو «وآدم بين الروح والجسد».

وفي بعض الروايات: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث»؛ ونحن إزاء هذا الفهم نقول:

قضية ميثاق بني آدم في عالم الذر أو ميثاق النبيين فيه ليس عليها دليل يُعتمد، والأحاديث التي ذكروها في إثبات عالم الذر لا تخلو من مقال، وبعض روايتها ضعيف أو متروك أو مجهول ..

والآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ..﴾<sup>(١)</sup> أبعد ما تكون عن هذا الفهم .. وهي ترشد العقول إلى آيات الأنفس والآفاق التي نصبها الله تعالى أمام الإنسان في كل عصر وجيل شاهدة على وحدانية الله في الخلق والأمر<sup>(٢)</sup> ..

ويجب أن نعي أن عقيدة المؤمن لا تؤخذ من أحاديث غريبة أو موقوفة، وطالما أن الآيات لها من الفهم الصافي والتفسير الصحيح ما يخدم العقيدة بعيداً عن هذه الآثار الضعيفة - فهذا أولى وأجدر بالاعتبار ..

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٢.

(٢) راجع كتابنا «الروح بين الإسلام والفلسفة» ص ٧٢ ط. الأولى.

وبعض هؤلاء الذين قبلوا الآثار على علّاتها لم يفهموها الفهم  
السطحي المتبادر، بل ذهبوا فيها مذاهب أقرب إلى رفضها..

يقول الإمام ابن كثير:

«وهذا إخبار عن التنويه بذكره في الملائ الأعلى، وأنه معروف بذلك  
بينهم بأنه خاتم النبيين وآدم لم ينفخ فيه الروح، لأن علم الله تعالى بذلك  
سابق قبل خلق السموات والأرض لا محالة، فلم يبق إلا هذا الذي ذكرناه  
من الإعلام به في الملائ الأعلى، والله أعلم»<sup>(١)</sup>.

فإحالة الأحاديث على علم الله تعالى أو إعلام الملائ الأعلى به  
قضية لا ننازع فيها، فعلم الله أزلي محيط، لا يعزب عنه شيء، وإعلام  
الملائ الأعلى هو إرادة الله ومشئته لا دخل لنا بها..

\* \* \*

---

(١) السيرة النبوية تحقيق د. مصطفى عبد الواحد - ج ١، ص ٣١٩.

## دعوة إبراهيم

إبراهيم - عليه السلام - هو الجد الأعلى للعرب واليهود..

عاش إبراهيم مع زوجٍ عاقِرٍ هي سارة، وشاء الله أن يرزق بولد من جارية له هي هاجر المصرية.. وجاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله - ﷺ: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات<sup>(١)</sup>، ثنتين منهن في ذات الله، قوله: «إني سقيم»، وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا».

وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقبل له إنَّ ههنا رجلاً معه امرأةٌ من أحسن الناس، فأتى سارة فقال لها:

إن هذا الجبار إنَّ يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألَكَ فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمنٌ غيري وغيرك.

فأرسل إليها فأتى بها وقام إبراهيم يصلي..

فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ حتى ركض برجله فقال:

ادعي الله لي ولا أضرك!!..

---

(١) الكذب هنا من باب المعارض وهي أن يقصد المتكلم معنى ويفهم منه المخاطب معنى آخر، وهي من المباح شرعاً، ولو كان كذباً محضاً فهو جائز أيضاً لدفع الظالمين.

فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال:  
ادعي الله لي ولا أضرك..!!

فدعت الله فأطلق، فدعا بعض حجبه فقال:

إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان..!!

فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأوماً بيده، مَهَيْمٌ<sup>(١)</sup>، قالت:  
رد الله كيد الكافر في نحره، وأخدم هاجر..

قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء<sup>(٢)</sup>.

هذا وولد هاجر هو إسماعيل عليه السلام..

واقترضت الحكمة الإلهية أن يحمله إبراهيم مع أمه هاجر ليسكنهما  
بواد غير ذي زرع، وتركهما هنالك عن أمر الله له..

وظل إبراهيم يطالع أمرهم بين الحين والآخر، وشب إسماعيل  
محفوظاً برعاية الله وعنايته، فنبتت عين ماء زمزم، وتقاطر الناس على  
المكان..

ويأتي امتحان جديد لما بلغ إسماعيل السعي، فكانت الرؤيا المنامية  
بذبح إسماعيل، ولنقرأ:

﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ، وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي  
سَيَّهْدِينِ، رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ، فَلَمَّا بَلَغَ  
مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ،  
قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ...﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) ما شأنك وما خبرك؟.

(٢) العرب كلهم لخلوص نسبهم وقيل لأن أكثرهم أصحاب رعي يتعقبون ما ينبت بماء  
السماء وقيل المراد به الأنصار خاصة لنسبتهم إلى جدهم عامر بن حارثة بن امرئ  
القيس وكان يعرف بماء السماء.

(٣) سورة الصافات، آية: ٩٨ - ١٠٢.

ولنتأمل أن الغلام الحليم هو إسماعيل، وأن إبراهيم رزق به بعد هجرته من قومه الذين ائتمروا به، وهذا هو تفسير الحديث السابق حين قال لسارة:

ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك.

وأن المكافأة التي تلت هذا الابتلاء هو البشرى بإسحق من زوجه سارة.. فقال تعالى:

﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

وإسحق هو الغلام العليم كما وُصف في قوله تعالى:

﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

نشأ إسماعيل في أرض الحجاز، وإليه ينسب عربها، ويسمون العرب المستعربة.

ونشأ إسحق في أرض الشام، ومن ذريته يعقوب المسمى بإسرائيل وإليه ينسب اليهود.

استقرّ الأمر بإسماعيل في أرض الحجاز، وكلفه الله بمشاركة أبيه في رفع قواعد البيت الحرام ليكون مثابةً للناس وأمناً..

وعند بناء هذا البيت توجه إبراهيم وإسماعيل بالدعاء إلى الله تعالى فذكرا أنواعاً ثلاثة:

الأول: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾<sup>(٣)</sup>.

فإن غاية المؤمن أن يرضي ربه، ويحظى عنده بالقبول، فالله سميع للدعاء، عليم ببواطن الأمور وخفايا الصدور..

---

(١) سورة الصافات، آية: ١١٢.

(٢) سورة الذاريات، آية: ٢٨.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٢٧.

الثاني: ﴿ رَبَّنَا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرئتنا أمةً مسلمةً لك وأرنا مناسِكَنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ .

فالإخلاص لله والاستسلام لأحكامه والرضا بقضائه، والرجوع إليه سبحانه دائماً بالإقامة والتوبة النصوح.. ذلك هو سبيل النجاة وطريق السعادة في الأولى والآخرة.

وناسب ذلك التذليل بقوله: ﴿ إنك أنت التواب الرحيم ﴾ لأن الكمال في أداء العبادة والمناسك متعذر، وشأن العبد أن يحتاج إلى عفو سيده ورحمته .

والعاقل لا يلذ له العيش إلا بمشاركة أبنائه له، ولا تتم سعادته إلا أن تعم أبنائه معه.. وهكذا دائماً عباد الرحمن يقولون:

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾<sup>(١)</sup>.

الثالث: ﴿ رَبَّنَا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

دعا إبراهيم عليه السلام لذريته أن تظل على إسلام الوجه لله، والعبادة بإخلاص، والإقامة بالتوبة..

لكن الإغراء والأهواء، وتقلب الليل والنهار لا يديم شيئاً على حاله فكان الدعاء بأن يجدد الله لهذه الأمة أمر دينها وإسلامها بإرسال رسول يتم الدين والملة..

وحدد إبراهيم لهذا الرسول صفات أربعاً:  
﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٧٤.



ويعلمهم الكتاب  
والحكمة  
ويزكيهم ﴿١﴾

فالتلاوة حفظ للنص، وإبقاء للتواتر، وصيانة للوحي عن التحريف  
والتصحيف..

والتعليم بيان للأحكام والشرائع وإظهار لحقائق الدين وأصول  
الإيمان..

والحكمة فقه مقاصد الشريعة في مصالح العباد..

والتزكية مكارم الأخلاق وفضائل السلوك، وتلك غاية قصوى من  
غايات العبادة والنسك فالدين المعاملة..

وكان تذييل هذا الدعاء ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

والمناسبة واضحة جليّة فإن بعثة الرسول هي مقتضى الحكمة ودليل  
القدرة الإلهية التي لا تقهر؛ فالله تعالى هو الذي يصطفي من يشاء، وهو  
سبحانه الذي يؤيده بالمعجزات، وينصره النصر المؤزر، كما قال جلّ  
شأنه:

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾<sup>(١)</sup>.

هذا وإجماع المفسرين على أن هذا الرسول الذي دعا به وله  
إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إنما هو محمد ﷺ، فلم يبعث الله نبياً  
إلى العرب منذ إسماعيل عليه السلام.

وذرية إسماعيل هي المقصودة بهذا الدعاء لأنه الذي رفع القواعد مع  
أبيه في هذا الوادي.

أما إسحق فلم يشارك في البناء ولم يحضره..

---

(١) سورة غافر، آية: ٥١.

ثم إن الدعاء إنما هو ببعثة رسول واحد لهذه الأمة المسلمة، وقد تعددت الرسل والأنبياء إلى بني إسرائيل من نسل إسحق؛ . وقد وردت آثار تؤكد أن محمداً ﷺ هو دعوة إبراهيم، ففي مسند أحمد عن أبي أمامة قال:

قلت: يا نبي الله ما كان بدء أمرك؟.

قال: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»<sup>(١)</sup>.

وقد اهتم القرآن المجيد كثيراً بهذه الصلة الوثيقة بين إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فحكم أن محمداً وأُمَّته أولى الناس به فقال:

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وجعله أباً للمسلمين فقال:

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ...﴾<sup>(٣)</sup>.

وفرض الله على الأمة الإسلامية التوجه في صلاتها إلى الكعبة بناء إبراهيم فقال:

﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾<sup>(٤)</sup>.

وجعل الحج إلى الكعبة تلبيةً لنداء إبراهيم فريضةً وركناً من أركان الدين فقال:

(١) قال عنه ابن كثير: تفرد به الإمام أحمد ولم يخرج له أحد من أصحاب الكتب الستة ج ١، ص ٣٢١ من السيرة النبوية.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٦٨.

(٣) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٤٤.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ،  
فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ  
الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾<sup>(١)</sup>.

ولكل هذه المعاني وغيرها اقترن ذكر إبراهيم بذكر محمد في الصلاة  
والتسليم عليهما، وأفضل الصيغ ما جاء في التشهد:

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم  
وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على  
إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد.

\* \* \*

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٦ - ٩٧.



## بشرى عيسى

تظاهرت آيات القرآن المجيد مؤكدة حقيقة البشارة بمحمد ﷺ في التوراة والإنجيل، وقد اتخذ البيان القرآني أنماطاً متعددة في التعبير عنها، وهذه أمثلة منها:

قال الله تعالى:

﴿ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مصدّقٌ لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعن الله على الكافرين﴾<sup>(١)</sup>.

وفي سبب نزول هذه الآيات يروي ابن إسحق عن عاصم بن عمر ابن قتادة عن رجال من قومه قالوا:

إن مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله تعالى وهداه - لما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك، أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور..

فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي، يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم..!!

فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين

---

(١) سورة البقرة، آية: ٨٩.

دعانا إلى الله تعالى ، وعرفنا ما كانوا يتوعدونا به ، فبادرناهم إليه ، فأما به وكفروا به ، وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة . . » (١).

قال سبحانه :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

وفي آية أخرى يقول :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣).

وفي هذا التعبير ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ تأكيد وضوح النبوة لسيدنا محمد ﷺ وصدقه في دعواها ، وتصديقه لما مع أهل الكتاب من بشارات . .

وفي الآية الأولى بَيَّنَّ أن فريقاً منهم يكتُم الحق ، وفي الآية الثانية حكم عليهم بالخسران والوبال لتركهم الإيمان بالرسالة المحمدية . .

وينسب إلى أحد أحبار اليهود الذين أسلموا قوله :

والله إن معرفتي بمحمد أشدّ وما ندري ما تصنع النساء (٤) . . !!

ثم نلتقي بالنص الصريح والعبارة القوية والصفة القاطعة بالبشارة بمحمد في التوراة والإنجيل فيقول الله تعالى :

---

(١) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام - للإمام السهيلي ج ١ ، ص ٢٤٥ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٤٦ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٢٠ .

(٤) في الكشف ج ١ ، ص ٣٢١ : وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله ﷺ فقال : أنا أعلم به مني بابني قال : ولم ؟ قال لأنني لست أشك في محمد أنه نبي فأما ولدي فلعل والدته خانت ، فقبل عمر رأسه .

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ (١).

وتحدث القرآن كثيراً عن جماعة عرفوا الحق فاتبعوه وأدركوا صدق البشارة على سيدنا محمد ﷺ فآمنوا برسالته..

ففي سورة المائدة تحدث الآيات عن القسيسين والرهبان الذين أسلموا ورفضوا متاع الحياة الرخيص ومظاهر الرئاسة الكاذبة، فقال سبحانه:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيْنَ وَرِهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٢).

ثم تسوق الآيات هذا التساؤل منهم:

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ؟﴾.

فكانت عاقبتهم حسن الجزاء من الله تعالى:

﴿فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وفي سورة الإسراء اتخذ القرآن من إيمان هؤلاء حجة على المشركين، وأكد أن علمهم بالكتاب الأول هو الذي ساقهم إلى الإيمان بالرسول الخاتم، فكيف يكفر به من لا علم له ولا دين من الوثنيين؟! فقال: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا، وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا، إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا، وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (٣).

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

(٢) سورة المائدة، آية: ٨٢ - ٨٣.

(٣) سورة الإسراء، آية: ١٠٧ - ١٠٩.

وفي سورة القصص بين القرآن أن الرسالة المحمدية حلقة أساسية في الوصل بين الرسالات الإلهية، وأن أهل الكتاب الذين يصلون إيمانهم بموسى وعيسى عليهما السلام بإيمانهم بمحمد ﷺ؛ لهم أجر مضاعف، ثم وصفت الآيات ثباتهم على الحق، ويقينهم الكامل بالرسالة المحمدية، ومدحت سلوكهم الراشد تجاه جهلاء العقل وغرباء الكلمة فقالت:

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ، أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ، وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (١).

ساق القرآن تشبيهاً لأمة محمد ﷺ ووصفاً لهم ذكره الله تعالى في التوراة والإنجيل فقال:

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَرِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ .

ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار . . ﴾ (٢).

فقد وصف الرسول وأصحابه في التوراة بالشدة على الكفار والرحمة مع المؤمنين وكثرة الصلاة والسجود فزادهم ذلك بهاء وضياء، وكانت صفحات وجوههم تشع نوراً . .

ومثل الرسول وصحبه في الإنجيل كزرع يبدو في أول أمره ضعيفاً

(١) سورة القصص، آية: ٥١ - ٥٥ .

(٢) سورة الفتح، آية: ٢٩ .



هشاً فيعمق جذوراً ويمتد سيقاناً ويزداد مزروعاً ثم يؤتي ثمره طيباً مباركاً  
فيعجب الزراع بقوته وثمره وجمال منظره..

حرص القرآن على تأكيد أن الرسول المبشّر به في التوراة والإنجيل  
إنما هو النبي العربي الهاشمي، فذكره بالاسم ليقطع الطريق على  
الأدعياء، ولتوضح الحقيقة لكل ذي عينين، وأردف ذلك بأن النصر المؤزر  
لرسول الهدى أحمد وأن رايته ستعلو خفاقة في العالمين، فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ  
مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ  
أَحْمَدُ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سَحَرٌ مِمَّنْ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى  
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ،  
يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَاللَّهُ مَتَمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ  
الْكَافِرُونَ..﴾<sup>(١)</sup>.

كان ختام البيان القرآني في هذا المجال - حسب ترتيب المصحف  
الشريف - في سورة البينة؛ معلناً أن حجة الله على خلقه من أهل الكتاب  
والمشركين قد قامت ببعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم، وأن الحنيفية  
السمحاء هي طريق البشرية إلى الله.. فقال:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ<sup>(٢)</sup> حَتَّى  
تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ، رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً، فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ، وَمَا تَفَرَّقَ  
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ  
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾.

من هذا العرض السريع وتلك الإمامة اليسيرة يتضح أن القرآن أكد

(١) سورة الصف، آية: ٦ - ٨.

(٢) منفكّين: منتهين.

تأكيداً قوياً، واحتجّ احتجاجاً ظاهراً على نبوة سيدنا محمد ﷺ ببشارات التوراة والإنجيل، وألزم أهل الكتاب ضرورة الإيمان بهذه النبوة المحمدية تصديقاً لما معهم وما ثبت لديهم من أنه ﷺ جاء بالحق وصدق المرسلين..

ويعتبر هذا الاتجاه القرآني فريداً في إثبات النبوة..

يقول الإمام الرازي:

«وهذا يدل على أن نعتة وصحة نبوته مكتوب في التوراة والإنجيل، لأن ذلك لو لم يكن مكتوباً لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفّرات لليهود والنصارى عن قبول قوله، لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفّرات..

والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفّر الناس عن قبول قوله.

فلما قال ذلك دلّ هذا على أن ذلك النعت كان مذكوراً في التوراة والإنجيل، وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته»<sup>(١)</sup>.

وفي هذا المعنى أيضاً يقول الإمام ابن تيمية:

«نفس إخباره بذلك في القرآن مرة بعد مرة، واستشهاد به أهل الكتاب، وإخباره بأنه مذكور في كتبهم مما يدل العاقل على أنه كان موجوداً في كتبهم.

فإنه لا ريب عند كل من عرف حال محمد من مؤمن وكافر؛ أنه كان من أعقل أهل الأرض، فإن المكذبين له لا يشكون في أنه كان عنده من الخبرة والمعرفة والحدق ما أوجب أن يقيم مثل هذا الأمر العظيم الذي لم يحصل لأحد مثله لا قبله ولا بعده..

---

(١) التفسير الكبير ج ١٥، ص ٢٦.

فعلم ضرورة أنه لا يفعله ولا يخبر به، وهو من أحرص الناس على تصديقه، وأخبرهم بالطرق التي يصدّق بها، وأبعدهم عن أن يفعل ما يعلم أنه يكذب به..

فلو لم يعلم أنه مكتوب عندهم بل علم انتفاء ذلك لامتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة، ويستشهد به ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه، وأوليائه وأعدائه، فإن هذا لا يفعله إلا من هو أقلّ الناس عقلاً، لأن فيه إظهار كذبه عند من آمن به منهم، وعند من يخبرونه، وهو ضد مقصوده. وهو بمنزلة من يريد إقامة شهود على حقه فيأتي إلى من لا يعلم أنه لا يكذب، ويعلم أنه ليس بشاهد، ولا حضر قضيته ويقول: هذا يشهد لي، فإنهم كانوا حاضرين هذه القضية.

فيقول أولئك: لسنا نشهد له ولا حضرنا هذه القضية.

فهذا لا يفعله عاقل يعلم أنهم لم يكونوا حاضرين، وأنهم يكذبونه ولا يشهدون له..»<sup>(١)</sup>.

ويعتبر ابن تيمية هذا الطريق من أظهر الحجج على أهل الكتاب وأظهر الأعلام على نبوته ﷺ.

\* \* \*

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ ٣، ص ٢٩٢ ط. مطابع المجد التجارية.



## دراسات عن البشائر

قامت دراسات مستفيضة عن البشائر في الكتب المقدسة على أيدي علماء أجلاء، أخلصوا لله وللحق، منهم من كان مسلماً ومنهم من أسلم بعد الدراسة والتمحيص..

ولسنا في مجال الاستقصاء، وإنما نشير إلى بعضها.. فلتكن إشارتنا عن:

١ - الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح للإمام ابن تيمية (٦٥١ - ٧٢٨ هـ).

٢ - تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب للشهير بعبدا الله الترجمان الأندلسي (في القرن التاسع الهجري).

٣ - إظهار الحق للعلامة الشيخ رحمة الله الهندي (١٢٣٣ - ١٣٠٨ هـ).



## ١ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح :

هذا كتاب قيّم يرد على شبهات راهب نصراني ومزاعمه حول الرسالة والرسول والقرآن، وفيه بيان فساد عقائد النصارى من الأناجيل والتثليث والاتحاد، كما تضمن دراسة مقارنة عن الإسلام واليهودية والنصرانية..

وقد تعرض للبشائر المحمدية في كتبهم وذكر بعضها إلا أن الإمام ابن تيمية أفاض في بشارتين لهما أهمية خاصة، الأولى تتعلق بمكة ودعوة إبراهيم، والأخرى تدور حول كلمة «الفارقليط».

البشارة الأولى<sup>(١)</sup>:

نص من التوراة يقول:

«جاء الله من طور سيناء - وبعضهم يقول في الترجمة - تجلى الله من طور سيناء وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران».

قال كثير من العلماء - واللفظ لمحمد بن قتيبة -:

ليس بهذا خفاء على من تدبر ولا غموض، لأن مجيء الله من طور

---

(١) ج-٣، ص ٣٠٠ ط. مطابع المجد التجارية.

سيناء إنزاله التوراة على موسى من طور سيناء، كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا.

وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح، وكان المسيح من ساعير - أرض الخليل بقرية تدعى ناصرة - وباسمها سمي من اتبعه من نصارى.

وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران إنزاله القرآن على محمد ﷺ، وجبال فاران هي جبال مكة.

قال: وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة، فإن ادّعوا أنها غير مكة فليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم».

ثم أخذ ابن تيمية يشرح ويستدل على أن فاران هي مكة بما جاء في التوراة من أن إبراهيم عليه السلام أسكن هاجر وإسماعيل فاران. وقد علم بالتواتر واتفاق الأمم أن إسماعيل إنما رُبي بمكة.

والبرية التي بين مكة وطور سيناء تسمى برية فاران، ولا يمكن أحداً أن يدّعي أنه نزل كتاب - بعد المسيح - في شيء من تلك الأرض ولا بُعث نبي ..

فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد ﷺ، وهو - سبحانه - ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزمني، فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن، وهذه الكتب نور الله وهده.

وقال في الأول جاء أو ظهر، وفي الثاني أشرق، وفي الثالث استعلن ..

وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر أو ما هو أظهر من ذلك.

ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس ازداد به النور والهدى.



وأما نزول القرآن فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء، ولهذا قال: «استعلن من جبال فاران» فإن النبي ﷺ ظهر به نور الله وهداه في شرق الأرض ومغربها أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين، كما يظهر نور الشمس إذا استعلنت في مشارق الأرض ومغاربها، ولهذا سماه الله سراجاً منيراً وسمى الشمس سراجاً وهاجاً.

والخلق محتاجون إلى السراج المنير أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج، فإن الوهاج يحتاجون إليه في وقت دون وقت، بل قد يتضررون به في بعض الأوقات.

وأما السراج المنير فيحتاجون إليه كل وقت، وفي كل مكان ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانيةً.

وقد قال النبي ﷺ: «زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيلبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها».

ثم يسوق ابن تيمية توضيحاً آخر فيقول<sup>(١)</sup>: من ذلك ما في التوراة التي بأيديهم، في السفر الأول منها، وهي خمسة أسفار، في الفصل التاسع، في قصة هاجر، لما فارقت سارة وخاطبها الملك، فقال: يا هاجر من أين أقبلت؟ وإلى أين تريدان؟.

فلما شرحت له الحال قال:

ارجعي فإنني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون، وها أنت تحبلين وتلددين ابناً تسمينه إسماعيل، لأن الله قد سمع تذللّك وخضوعك، وولدك يكون وحي الناس، ويكون يده فوق الجميع، ويد الكل به، ويكون مسكنه على تخوم جميع إخوته...».

قال المستخرجون لهذه البشارة:

---

(١) ج ٣، ص ٣١٣.

معلوم أن يد بني إسماعيل قبل مبعث محمد ﷺ لم تكن فوق أيدي بني إسحق، بل كان في بني إسحق النبوة والكتاب، وقد دخلوا مصر زمن يوسف مع يعقوب، فلم يكن لبني إسماعيل فوقهم يد، ثم خرجوا منها لما بعث موسى، وكانوا مع موسى أعزَّ أهل الأرض، لم يكن لأحد عليهم يد. ثم مع يوشع بعده إلى زمن داود وملك سليمان الذي لم يؤت أحد مثله.

وسلط الله عليهم بعد ذلك بخت نصر، فلم يكن لبني إسماعيل عليهم أمر، ثم بعث المسيح، وخرّب بيت المقدس الخراب الثاني حيث أفسدوا في الأرض مرتين.

ومن حينئذ زال ملكهم وقطعهم الله في الأرض أمماً، وكان تحت حكم الروم والفرس والقبط، ولم يكن للعرب عليهم حكم أكثر من غيرهم..

فلم يكن لولد إسماعيل سلطان على أحد من الأمم، لا أهل الكتاب ولا الأميين، فلم تكن يد ولد إسماعيل فوق الجميع حتى بعث الله محمداً ﷺ الذي دعا به إبراهيم وإسماعيل حيث قالوا:

﴿رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ..﴾ (١).

فلما بُعث صارت يد ولد إسماعيل فوق الجميع، فلم يكن في الأرض سلطان أعزَّ من سلطانهم، وقهروا فارس والروم وغيرهم من الأمم، وقهروا اليهود والنصارى والمجوس والمشرّكين والصابئين..

فظهر بذلك تحقيق قوله في التوراة: «وتكون يده فوق الجميع، ويد الكل به» وهذا أمر مستمر إلى آخر الدهر.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٩.

## البشارة الثانية<sup>(١)</sup>:

تدور هذه البشارة حول كلمة «الفارقليط» ، وأورد ابن تيمية مجموعة نصوص تضمنتها مثل :

قال يوحنا الإنجيلي : قال يسوع المسيح في الفصل الخامس عشر من إنجيله : «إن «الفارقليط روح الله الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء» .

وقال يوحنا التلميذ أيضاً عن المسيح أنه قال لتلاميذه : «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر يثبت معكم إلى الأبد ، روح الحق الذي لم يطق العالم أن يقتلوه لأنهم لم يعرفوه ، ولست أدعكم أيتاماً لأنني سأتيكم عن قريب» .  
وقال أيضاً :

«إذا جاء الفارقليط الذي أبي أرسله ، روح الحق الذي من أبي ، هو يشهد لي ، قلت لكم هذا حتى إذا كان تؤمنوا به ولا تشكوا فيه» .

وقال أيضاً :

«إنّ خيراً لكم أن أنطلق ، لأنني إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط ، فإذا انطلقت أرسلته لكم ، فهو يوبخ العالم على الخطيئة ، وإن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله ولكنكم لا تستطيعون حمله ، لكن إذا جاء روح الحق ، ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ، ويخبركم بكل ما يأتي ، ويعرفكم جميع ما للأب» .

وقال يوحنا الحواري :

«قال المسيح إن أركون العالم سيأتي ، وليس لي شيء . . .» .

وأخذ الإمام ابن تيمية يوضح هذه البشارة ، ويناقش أفهام النصارى

---

(١) جـ ٤ ، ص ٦ .

حولها، وبدأ بلفظ «الفارقليط» في لغتهم، والأقوال التي ذكرت..

ف قيل إنه الحماد، وقيل إنه الحامد، وقيل إنه المعز، وقيل إنه الحمـد.. ورجح هذا طائفة وقالوا:

الذي يقوم عليه البرهان في لغتهم أنه الحمد، والدليل عليه قول يوشع: من عمل حسنة تكون له فارقليط جيد - أي حمد جيد.

ومن قال: معناه المخلص فيحتجون بأنها كلمة سريانية، ومعناها المخلص، وقالوا: هو مشتق من قولنا «فار» ويقال بالسريانية «فاروق»، فجعل «فارق».

قالوا: ومعنى «ليط» كلمة يراد بها التثبت والتقدير، كما يقال في العربية رجل هو، وبدر هو.

والذين قالوا هو المعز، قالوا هو في لسان اليونان المعز.

ويعترض على هذين القولين بأن المسيح لم تكن لغته سريانية ولا يونانية بل عبرانية.

ويجاب عنه بأنه تكلم بالعبرانية وترجم عنه بلغة أخرى.

لكن من الفارقليط؟.

وكيف يفسره النصارى؟.

نقل ابن تيمية أقوالاً ثلاثة هي:

١ - نزلت على الحواريين.

٢ - ألسن نارية نزلت من السماء على التلاميذ ففعلت الآيات والأعاجيب.

٣ - المسيح نفسه لكونه جاء بعد الصلب بأربعين يوماً وكونه قام من قبره.

وتوالت بعد ذلك مناقشات ابن تيمية وتحليلاته الدقيقة، ونحن نرتبها ونوجزها فيما يلي :

إن تفسير الفارقليط بالروح أو المسيح باطل من وجوه :

١- إن روح القدس ما زالت تنزل على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده، وهذا مما اتفق عليه أهل الكتاب - وليست موصوفة بهذه الصفات .

وقد قال الله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ (١) .

وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت لما كان يهجو المشركين :  
« اللهم أيدهم بروح القدس . »

وقال : إن روح القدس معك ما زلت تنافح عن نبيّه .

٢ - قوله : « فارقليط آخر » دلّ على أنه ثان لأول كان قبله ، ولم يكن معهم في حياة المسيح إلا هو لم تنزل عليهم روح .

فعلم أن الذي يأتي بعده نظيراً له ؛ ليس أمراً معتاداً يأتي الناس .

٣ - إنه قال : « يثبت معكم إلى الأبد » ، وهذا إنما يكون لما يدوم ويبقى معهم إلى آخر الدهر .

ومعلوم أنه لم يرد بقاء ذاته ، فعلم أنه بقاء شرعه وأمره ، فعلم أن الفارقليط الأول لم يثبت معهم شرعه ودينه إلى الأبد .

وهذا يبين أن الثاني صاحب شرع لا ينسخ بخلاف الأول ، وذلك إنما ينطبق على محمد ﷺ .

---

(١) سورة المجادلة ، آية : ٢٢ .

٤ - أخبر عن الفارقليط أنه يشهد له وأنه يعلمهم كل شيء وأنه يذكّرهم كل ما قال المسيح .

ومعلوم أن هذا لا يكون إلا إذا شهد له شهادة يسمعها الناس ، ولا يكون هذا شيئاً في قلب طائفة قليلة .

ولم يشهد أحد للمسيح شهادة سمعها عامة الناس إلا محمد ﷺ فإنه أظهر أمر المسيح ، وشهد له بالحق ، وعلم أهل الأرض أنه صدق ، ونزّهه عما افترته عليه اليهود وعما غلت فيه النصارى .

٥ - أخبر المسيح أن الفارقليط يوتّخ العالم على الخطيئة ، ولم يوجد أحد ويّخ جميع العالم على الخطيئة إلا محمداً ﷺ ، فإنه أنذر جميع العالمين من أصناف الناس ، ويّخهم على الخطيئة من الكفر والفسوق والعصيان ، ويّخ المشركين والمجوس وأهل الكتاب المحرّفين وقال في الحديث الصحيح :

«إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب» .

٦ - إن المسيح أخبر عن الفارقليط أنه يعرفهم جميع ما للأب ، وهذه الصفة لا تنطبق إلا على محمد ﷺ ، وذلك أن الإخبار عن الله بما هو متصف به من الصفات ، وعن الملائكة ، وعن الملكوت الأعلى وما أعده الله في الجنة لأولياؤه ، وفي النار لأعدائه . . أمر لا يحتمل عقول كثير من الناس معرفته على التفصيل .

وليس في الإنجيل من صفات الله وصفات ملكوته ومن صفات اليوم الآخر إلا أمور مجملة ، وكذلك التوراة ليس فيها من ذكر اليوم الآخر إلا أمور مجملة .

ومحمد ﷺ قد أخبر بكل ما يأتي من أشرار الساعة والقيامة والحساب والصراط والميزان والجنة ونعيمها والنار وعذابها . . «وكان إذا ذكر

الساعة علا صوته واحمر وجهه واشتد غضبه كأنه منذر جيش، وقال: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

وقال: «أنا النذير العريان».

فأخبر من الأمور التي تأتي في المستقبل بما لم يخبر به نبي من الأنبياء فضلاً عن أن يوجد شيء ينزل على قلب بعض الحواريين.

إن معنى «الفارقليط» إن كان هو الحامد أو الحماد أو الحمد أو المعز، فهذا الوصف ظاهر في محمد ﷺ، فإنه وأمه الحمادون الذين يحمدون الله على كل حال، وهو - ﷺ - صاحب لواء الحمد، والحمد مفتاح خطبته ومفتاح صلاته.

ولم يعرف قط نبي أعزّ أهل التوحيد لله والإيمان كما أعزّهم محمد - ﷺ - فهو أحق باسم المعز من كل إنسان.

وأما معنى المخلص فهو أيضاً ظاهر فيه، فإن المسيح هو المخلص الأول كما ذكر في الإنجيل، ويكون المخلص الآخر الذي يثبت معهم إلى الأبد هو محمداً ﷺ.

وأما ما ينزل في القلوب فلم يسمه أحد مخلصاً ولا فارقليط.

٨ - عبارة إنجيل يوحنا عن المسيح:

«إن أركون العالم سيأتي وليس شيء».

وقد ذكروا أن الأركون بلغتهم عظيم القدر، والأراكنة العظماء، وقد أخبر أنه سيأتي، فامتنع أن يكون هذا الأركون المسيح أو أحداً مثله.

ومعلوم باتفاق أهل الأرض وبالضرورة أنه لم يأت بعد المسيح من ساد العالم باطناً وظاهراً، وانقادت له القلوب والأجساد، وأطيع في السر والعلانية، في محياه وبعد مماته، في جميع الأعصار وأفضل الأقاليم شرقاً وغرباً؛ أحد غير محمد ﷺ.

فإن الملوك يطاعون ظاهراً لا باطناً، ولا يطاعون بعد موتهم، ولا يطيعهم أهل الدين طاعة يرجون بها ثواب الله..

ومن خلال هذا التفصيل الدقيق، وهذا العلم الغزير، وهذه الحجج المتوالية يؤكد ابن تيمية حقيقة هامة، هي:

لولا محمد ما عرف الأنبياء..!!  
كيف؟!.

يقول ابن تيمية:

«محمد - ﷺ - أظهر دين الرسل قبله، وصدقهم، ونوه بذكرهم وتعظيمهم.

فيه آمن بالأنبياء والرسل مثل موسى والمسيح وغيرهما أمم عظيمة، لولا محمد لم يؤمنوا بهم.

ومن كان يعرف هؤلاء من أهل الكتاب؛ كانوا مختلفين فيه، لاختلاف أهل الكتاب في المسيح، وكانوا يقدحون في داود وسليمان وغيرهما بما هو معروف عندهم.

وأيضاً فإنه ذكر لهم من الرسل ما لم يكونوا يعرفونه مثل هود وصالح وشعيب وغيرهم»<sup>(١)</sup>.

## ٢ - تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب:

مؤلف هذا الكتاب<sup>(٢)</sup> قسيس أسباني في القرن التاسع الهجري، هداه الله تعالى إلى الإسلام، يسمى «إنسلم تورميذا»، واشتهر بعبدالله الترجمان الأندلسي.

(١) ج ٤، ص ١٨.

(٢) تحقيق د. محمود علي حماية ط. دار المعارف بمصر ١٩٨٤.



قدم تونس في زمن أمير المؤمنين أبي العباس أحمد الحفصي،  
وأسلم وسمى نفسه عبدالله، ووصف بالترجمان لقيامه بالترجمة في بلاط  
الخليفة، ولتعمقه في أكثر من لغة..

ويسوق المؤلف سر اختياره لهذا النوع من التأليف فيقول:  
«لما مَنَّ الله عليَّ بالهداية إلى الصراط المستقيم، والدخول في دين  
الله القويم، الناسخ لكل دين، الذي بعث به حبيبه وصفيه محمداً عليه  
أفضل الصلاة وأزكى السلام، ونظرت في دلائله القاطعة، وبراهينه  
الساطعة، فإذا هي لا تخفى على من له أدنى تمييز، إلا من لا يبصر بيض  
النعام من الشونيز<sup>(١)</sup>».

وجدت تصانيف علمائنا الإسلاميين - رضي الله عنهم - محتوية على  
ما لا مزيد عليه، إلا أنهم - رحمهم الله - قد سلكوا في معظم احتجاجهم  
على أهل الكتاب من النصارى واليهود مسلك مقتضيات المعقول، إلا  
الحافظ أبو محمد ابن حزم - رحمه الله - فإنه قد رد عليهم بالمعقول  
والمنقول، خصوصاً ما في كتبهم - وأعرضوا عن الاحتجاج عليهم بمقتضى  
المنقول إلا في نادر من المسائل.

فكنت شديد الحرص على أن أضع في الرد عليهم موضوعاً بطريق  
النقل وحقيقة الإنصاف، الذي يجمع بين النقل والقياس، وتتفق عليه  
العقول والحواس، أبين فيه باطلهم، وما أسسوه من القول بالتثليث،  
والأخذ بذلك المذهب الخبيث، وأذكر مع ذلك أناجيلهم ومن ألفها  
وشرائعهم ومن صنفها، وفساد عقولهم، وإبطال كفرهم في منقولهم،  
واقترائهم على عيسى المسيح، وكذبهم على الله في أمره بالصريح، وأذكر  
مقال القسيسين واعتقادهم واحتياهم وتركهم للإنجيل المنزل على عيسى  
عليه السلام، وجحدهم فيه من صفات نبينا محمد ﷺ ثم نذكر حقيقة

---

(١) الحبة السوداء.

قربانهم وسجودهم لصلبانهم - أبعدهم الله تعالى وأخزاهم - حتى ألهمني الله تعالى إلى الرأي السديد في تأليف هذا المختصر السعيد»<sup>(١)</sup>.

ثم يعرض المؤلف منهجه في تصنيف الكتاب قائلاً:  
«وجعلته ثلاثة فصول ليسهل مطالعته على الناظر ولا يملّه الخاطر:

### الفصل الأول:

في ابتداء إسلامي، وخروجي من الملة النصرانية إلى الملة الحنيفية، وفيما غمرني من إحسان مولانا أمير المؤمنين أبي العباس أحمد وما اتفق لي في أيامه.

### الفصل الثاني:

فيما اتفق لي في أيام مولانا أمير المؤمنين أبي فارس عبد العزيز، ونذكر طرفاً من سيرته الحميدة وآثاره الجليلة وقت تصنيفي لهذا الكتاب وهو عام ثلاث وعشرين وثمان مائة من الهجرة النبوية.

### الفصل الثالث:

في مقصود الكتاب من الرد على النصارى في دينهم، وثبوت نبوة سيدنا محمد ﷺ بنص التوراة والإنجيل وسائر كتب الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

وبتمامه يتم الغرض في تصنيف هذا الكتاب بحول الله تعالى»<sup>(٢)</sup>.

وبعينا هنا قصة إسلام هذا القسيس وكيف بدأت؟!.

يخبرنا المؤلف أنه لما بلغ ست سنين أرسله والده إلى معلم من القسيسين فقرأ عليه الإنجيل حتى حفظ أكثر من شطره في سنتين، ثم أخذ

---

(١) ص: ٢٧ - ٢٩.

(٢) ص: ٣٠ - ٣١.

في تعلم لغة الإنجيل وعلم المنطق مدة ست سنين، ثم ارتحل إلى مدينة هامة عند النصارى، يجتمع فيها طلاب العلم لدى أحد القساوسة، فلزمه ملازمة تامة قرأ فيها الإنجيل ولغته وبعض العلوم الأخرى مدة عشر سنين، ثم ارتحل إلى مدينة ثالثة يجتمع فيها كل عام من الآفاق أكثر من ألفي رجل يطلبون العلم ولا يلبسون إلا لباساً واحداً متشابهاً يميزهم كطلاب، ولا يحكم فيهم إلا القسيس الذي يقرؤون عليه.

وهناك تعرّف المؤلف بقسيس كبير السن والقدر معاً، اسمه نقلاد مرتيل، انفرد بالهية والمكانة عن جميع أهل دين النصرانية، وكانت الأسئلة ترد عليه من الآفاق من الملوك وغيرهم.

واستطاع المؤلف أن يتقرب إلى هذا القسيس، ويحظى عنده بالثقة حتى أعطاه مفاتيح مسكنه وخزائن مأكله، وصار كل شيء بيديّ هذا الطالب النجيب، ولم يستثن القسيس من ذلك شيئاً سوى مفتاح بيت صغير داخل مسكنه، كان يخلو فيه، هو بيت خزانة أمواله التي تهدي إليه.

ثم تأتي لحظة البداية، وأول الغيث قطر. . يقول المؤلف:

«فلازمته على ما ذكرنا من القراءة عليه والخدمة له عشر سنين، ثم أصابه مرض يوماً من الدهر، فتخلف عن مجلس قراءته، وانتظر أهل المجلس وهم يتذكرون مسائل من العلم، إلى أن أفضى بهم الكلام إلى قول الله تعالى على لسان نبيه عيسى عليه السلام أنه يأتي من بعدي نبي اسمه البارقليط، فبحثوا في تعيين هذا النبي، مَنْ هو من الأنبياء؟! .

وقال كل واحد منهم بحسب علمه وفهمه، فعظم بينهم في ذلك مقالهم، وكثر جدالهم، ثم انصرفوا عن غير تحصيل فائدة عن تلك المسألة.

فأتيت مسكن الشيخ صاحب الدرس المذكور، فقال لي: ما الذي كان عندكم اليوم من البحث في غيبتني عنكم؟! .

فأخبرته باختلاف القوم في اسم البارقليط، وأن فلاناً قد أجاب بكذا، وأجاب فلان بكذا، وسردت أجوبتهم.

فقال لي: وبماذا أجبت أنت؟ فقلت: بجواب القاضي فلان في تفسيره للإنجيل، فقال لي: ما قصرت وقربت، وفلان أخطأ، وكاد فلان يقارب، ولكن الحق خلاف هذا كله، لأن تفسير هذا الاسم الشريف لا يعلمه إلا العلماء الراسخون في العلم، وأنتم لم يحصل لكم من العلم إلا القليل.. فبادرت إلى قدميه أقبلهما وقلت له:

يا سيدي قد علمت أنني ارتحلت إليك من بلد بعيدة، ولي في خدمتك عشر سنين، حصلت عنك فيها من العلوم جملة لا أحصيها، فلعل من جميل إحسانكم أن تكمل علي بمعرفة هذا الاسم الشريف..»<sup>(١)</sup>.  
هنا بدأت بشائر الخير، وجاءت لحظة المخاض للميلاد الجديد في الدين..

يقول المؤلف:

«فبكى الشيخ وقال لي: يا ولدي والله إنك لتعز علي كثيراً من أجل خدمتك لي، وانقطاعك إليّ، وإن في معرفة هذا الاسم الشريف فائدة عظيمة لكن أخاف عليك أن يظهر ذلك عليك فتقتلك عامة النصارى في الحين.

فقلت له: يا سيدي والله العظيم وحق الإنجيل ومن جاء به لا أتكلم بشيء مما تسره إليّ إلا عن أمرك».

ثم أفصح القسيس عن السر المكتوم قائلاً:

«فاعلم يا ولد أن «البارقليط» هو اسم من أسماء نبيهم محمد ﷺ، وعليه أنزل الكتاب الرابع المذكور على لسان دانيال عليه السلام، وأخبر

---

(١) ص: ٣٧ - ٣٩.

أنه سينزل هذا الكتاب عليه، وأن دينه دين الحق، وملته هي الملة البيضاء المذكورة في الإنجيل».

هنا بدأ الشاب يسائل القسيس تساؤلات متوالية:

«قلت له يا سيدي:

وما تقول في دين النصارى؟

فقال لي: يا ولدي لو أن النصارى أقاموا على دين عيسى الأول لكانوا على دين الله، لأن عيسى وجميع الأنبياء دينهم دين الله تعالى. فقلت له:

وكيف الخلاص من هذا الأمر؟.

فقال: يا ولدي بالدخول في دين الإسلام.

فقلت له: وهل ينجو الداخل فيه؟.

فقال: نعم ينجو في الدنيا والآخرة.

فقلت له: يا سيدي إن العاقل لا يختار لنفسه إلا أفضل ما يعلم، فإذا علمت فضل دين الإسلام فما يمنعك عنه؟.

فقال لي: يا ولدي إن الله تعالى لم يطلعني على حقيقة ما أخبرتك به من فضل دين الإسلام وشرف نبي الإسلام إلا بعد كبر سني ووهن جسمي، ولا عذر لنا فيه، بل حجة الله علينا قائمة، ولو هداني الله لذلك وأنا في سنك لتركت كل شيء ودخلت في دين الحق.

وحب الدنيا رأس كل خطيئة، فأنت ترى ما أنا فيه عند النصارى من رفعة الجاه والعز والشرف وكثرة عرض الدنيا، ولو أنني ظهر علي شيء من الميل إلى دين الإسلام لقتلتني العامة في أسرع وقت. وهب أنني نجوت منهم وخلصت إلى المسلمين، وأقول لهم: إني جئتكم مسلماً، فيقولون لي قد نفعت نفسك بالدخول في دين الحق فلا تمن علينا بدخولك في

دين خلّصت به نفسك من عذاب الله، فأبقى بينهم شيخاً كبيراً فقيراً ابن تسعين سنة، لا أفقه لسانهم ولا يعرفون حقي، فأموت بينهم جوعاً، وأنا الحمد لله على دين عيسى، وعلى ما جاء به يعلم الله ذلك مني.

فقلت له: يا سيدي أفتدلّني أن أمشي إلى بلاد المسلمين، وأدخل في دينهم؟.

فقال لي: إن كنت عاقلاً طالباً للنجاة فبادر إلى ذلك، تحصل لك الدنيا والآخرة<sup>(١)</sup>.

لكن القسيس العجوز الذي استحكمت فيه العقيدة الفاسدة وتمكنت منه الدنيا وعسر عليه الجهر بالحق حذّر الشاب قائلاً:

«ولكن يا ولدي هذا أمر لم يحضره أحد معنا الآن، فاكتمه بغاية جهدك، وإن ظهر عليك شيء منه تقتلك العامة لحينك، ولا أقدر على نفعك، ولا ينفعك أن تنقل ذلك عني، فإني أجحده، وقولي مصدق عليك، وقولك غير مصدق عليّ، وأنا بريء من دمك إن فهِت بشيء من هذا».

وأخيراً ودّع الشاب هذا القسيس العجوز ورحل إلى أرض المسلمين بتونس وهناك أعلن إسلامه في حضرة السلطان وأمام جمع من النصارى الذين يعرفون مكانته في دينهم وعلوّ منزلته في علومهم.

وإذا طوينا بعض صفحات الكتاب لنصل إلى الفصل الثالث نجده قد خصّصه للرد على النصارى بنص أناجيلهم وجعله مشتملاً على تسعة موضوعات:

الأول: في ذكر الأربعة الذين كتبوا الأربعة وبيان كذبهم لعنهم الله.

---

(١) ص: ٣٩ - ٤١.

الثاني: في افتراق النصارى على مذاهبهم وعدد فرقهم.

الثالث: في فساد قواعد دين النصارى والرد عليهم من كل قاعدة منها بنص أناجيلهم.

الرابع: في عقيدة شرائعهم التي يتعلمها صغيروهم وكبيرهم والرد عليهم بأصل أناجيلهم.

الخامس: في بيان أن عيسى عليه السلام ليس بآله كما افترته النصارى.

السادس: في اختلاف الأربعة الذين كتبوا الأناجيل الأربعة وبيان كذبهم.

السابع: فيما نسبوا إلى عيسى عليه السلام من الكذب وهم الكاذبون.

الثامن: فيما يعيبه النصارى على المسلمين أعزهم الله تعالى.

التاسع: في ثبوت نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام بنص الزبور والتوراة والإنجيل وبشارة الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وما أخبر به الأنبياء من صحة بعثته وبقاء ملته.

ونقف متأملين ما كتبه في هذا الموضوع الأخير فنجد أن المؤلف ذكر مجموعة بشارات هي:

الأولى: ما في الفصل السادس عشر من الكتاب الأول من التوراة: أن هاجر لما هربت من سارة زوج إبراهيم، رأت في تلك الليلة ملكاً من الملائكة فقال لها:

يا هاجر ما تريدن؟ ومن أين أقبلت؟.

قالت: هربت من سارة، قال: ارجعي إليها واخضعي لها فإن الله سيكثر زرعك وذريتك وعن قريب تحملين وتلدن ولداً اسمه إسماعيل،

لأن الله قد سمع خشوعك، ويكون ولدك أعين الناس وتكون يده فوق الجميع، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع ويكون أمره في معظم الدنيا».

ومعلوم أن إسماعيل وأولاد صلبه لم يكونوا متصرفين في معظم الدنيا، وإنما الإشارة بذلك لعظيم ذريته وهو نبينا محمد ﷺ لأن دين الإسلام علا على أهل الأرض.

الثانية: ما في الفصل الثامن عشر من الكتاب الخامس من التوراة: أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام «قل لبني إسرائيل إني أقيم لهم آخر الزمان نبياً مثلك من بني إخوانهم، ومن لم يستمع كلمتي التي يؤديها عني أنتقم منه».

وهذا النص يدل على أن هذا النبي الذي يقيمه لبني إسرائيل في آخر الزمان ليس من نسلهم ولكنه من بني إخوانهم، وكل نبي بعد موسى كان من بني إسرائيل وآخرهم عيسى عليه السلام فلم يبق من بني إخوانهم إلا نبينا محمد ﷺ لأنه من ولد إسماعيل أخي إسحق جد بني إسرائيل.

الثالثة: ما في الفصل الثالث والثلاثين من الكتاب الخامس من التوراة: «إن الرب تعالى جاء من طور سيناء، وطلع إلينا من ساعير، وظهر من جبل فاران».

يعني مكة وأرض الحجاز فإن فاران اسم رجل من ملوك العمالة الذين اقتسموا الأرض فكان الحجاز وتخومه لفاران فتسمى القطر كله باسمه.

الرابعة: ما اتفق عليه الأربعة الذين كتبوا الأناجيل الأربعة:

أن عيسى عليه السلام قال للحواريين حين رفع إلى السماء إني أذهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم، وأبشركم بنبي يأتي من بعدي اسمه بارقليط.



وهذا الاسم الشريف هو باللسان اليوناني، وتفسيره بالعربية أحمد كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾، وهو في الإنجيل باللاتيني «براكتس» وهذا الاسم الشريف المبارك هو الذي كان سبب إسلام المؤلف.

الخامسة: ما قال داود عليه السلام في الزبور في الفصل الثاني والسبعين: «إنه يملك من البحر إلى البحر، ومن أدنى الأنهار إلى مقطع الأرض، وتأتيه ملوك اليمن والجزائر بالهدايا، ويسجد له الملوك، وتدين له بالطاعة والانقياد، ويصلي عليه في كل وقت، ويبارك في كل يوم، وتنور أنواره المدينة، ويدوم إلى أبد الأبد، واسمه موجود قبل وجود الشمس».

وهذه كلها صفات نبينا محمد ﷺ، والوجود يشهد له، وكل من دفع هذه الصفات عنه فلا يجد في العالم أحداً يستحقها، وإن ادّعاها مدّعٍ غيره من الأنبياء كان مجاهراً بالبهتان.

السادسة: ما قاله النبي أبوق في الفصل الثالث من كتابه:

«في آخر الزمان يجيء الرب من القبلة، والقدوس من جبال فاران» ومجيء الرب تبارك وتعالى مجيء وحيه، والقدوس هو نبينا محمد<sup>(١)</sup> ﷺ ظهر من جبال فاران وهي مكة وأرض الحجاز.

السابعة: ما قاله النبي ميشا (أي ميخا) في الفصل الرابع من كتابه:

«في آخر الزمان تقوم أمة مرحومة، وتختار الجبل المبارك يعبدون الله فيه ويجتمعون من كل الأقاليم فيه، ليعبدوا الله الواحد ولا يشركوا به شيئاً».

---

(١) هكذا فسره المؤلف ولم يعقب عليه المحقق، وأرى أن كلمة القدوس معطوفة على كلمة الرب، والمعنى يجيء القدوس من جبال فاران، ومجيئه هو مجيء وحيه، فالقدوس اسم من أسماء الله الحسنى.

وهذا هو جبل عرفات بلا شك، والأمة المرحومة هي أمة محمد ﷺ والاجتماع بالجبل المبارك هو اجتماع الحجيج بعرفات وإتيانهم إليه من جميع الأقاليم.

الثامنة: ما قاله النبي ميشعيه (أي أشعياً) في الفصل الثاني والأربعين من كتابه:

«إن الرب سبحانه يبعث في آخر الزمان عبده الذي اصطفاه لنفسه، يبعث له الروح الأمين يعلمه دينه، وهو يعلم الناس ما علمه الروح الأمين ويحكم بين الناس بالحق ويمشي بينهم بالعدل، وهو نور يخرجهم من الظلمات التي كانوا عليها رقود، وقد عرفتمكم ما عرفني الرب سبحانه قبل أن يكون».

وهذه كلها صفات نبينا محمد ﷺ واضحة مبينة..

وقد وعد المؤلف - رحمه الله تعالى - أن يجمع البشارات كلها في كتاب منفرد على وجه التفصيل..

ولسنا ندري هل سنحت له الظروف أم لا؟.

وقد سألت صديقنا الفاضل محقق الكتاب عن ذلك فأجاب بأنه لم يعثر في ترجمة المؤلف على كتاب بهذا المعنى..

٣ - إظهار الحق:

كتاب قيم انتفع به كل من كتب في تاريخ الأديان ومقارنتها في العصر الحديث، ويعرف فضله كل منصف وباحث عن الحق.. وقد رأى صاحب تفسير المنار أن يقتبس بالنص ما كتبه المؤلف عن البشارات المحمدية<sup>(١)</sup>..

---

(١) إخراج وتحقيق عمر الدسوقي - منشورات المكتبة العصرية - بيروت.

وقد كان جهداً مباركاً وعملاً جليلاً في الدفاع عن الإسلام في بلاد الهند، خلال القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي).

ومؤلف الكتاب<sup>(١)</sup> هو الإمام العلامة الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن، ولد في بلدة «كيرانه» بالقرب من «دلهي» عاصمة الهند، في شهر جمادى الأولى عام ١٢٣٣ هـ (١٨١٨ م)، من أسرة كريمة ينتهي نسبها إلى ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وللشيخ المؤلف جهاد كبير في مقاومة التنصير والتسلط الاستعماري الإنجليزي، ومن مواقفه المشهودة تلك المناظرة الفريدة التي دعا إليها رئيس البعثة التبشيرية القسيس فندر، فوافق القسيس واتفق الجانبان على موضوع المناظرة، وهو:

١ - التحريف والتناقض في التوراة والإنجيل، وخلو القرآن الكريم من ذلك.

٢ - وقوع النسخ في أحكام العهدين القديم والحديث.

٣ - إبطال مزاعم النصراني حول ألوهية عيسى عليه السلام.

٤ - إثبات أن القرآن كلام الله تعالى ومعجزته الخالدة.

٥ - إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ وبشارة الأنبياء ببعثته.

وكان من أهم شروط المناظرة أنه إذا لم يستطع أحدهما الإجابة عن الأسئلة الموجهة من الطرف الآخر وعجز عنها انتقل من دينه وآمن بالدين الآخر.

وعُقدت جلستان، حضرهما حاكم المدينة والقائد العسكري وكبار

---

(١) تفسير المنار ج ٩، ص ١٩٩ - ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

موظفي الحكومة، والعلماء والقضاة وجمهور كبير من عامة الشعب، وذلك في شهر رجب عام ١٢٧٠ هـ.

وابتدأت المناظرة بموضوع النسخ والتحريف، وأثبت الشيخ أن التحريف في بعضه كان عن عمد، وأحياناً يأتي بالزيادة، وأخرى بالنقص، كما جاء التحريف بالتبديل اللفظي..

وساق الشيخ على التحريف بالزيادة خمسة وأربعين شاهداً، وعلى التبديل اللفظي خمسة وثلاثين شاهداً، وساق على التحريف بالنقص عشرين شاهداً.

وفند الشيخ بعض المغالطات التي يثيرها النصارى زاعمين أن دعوى التحريف في العهدين القديم والجديد لم يقلها أحد إلا المسلمين، أو أن المسيح شهد بحقبة العهد القديم، أو أن اليهود والنصارى من أهل الديانة فيبعد أن يتجاسروا على التحريف، أو أن نُسخ الكتاب المقدس كانت منتشرة شرقاً وغرباً فلا يمكن تحريفها، أو أن بعض نُسخ الكتاب المقدس كتبت قبل زمان محمد ﷺ وما زالت موجودة إلى الآن..

وقد أتى الشيخ على هذه المغالطات من القواعد وساق الدليل تلو الدليل على بطلانها وكذبها..

وفي موضوع النسخ، قسمه إلى نوعين:

١ - النسخ الذي يكون في شريعة نبي لاحق لحكم كان في شريعة نبي سابق.

٢ - النسخ الذي يكون في شريعة نبي لحكم آخر من شريعة هذا النبي. وقدم الشيخ أمثلة عديدة للقسمين في العهد القديم والجديد، وأكد أنها غير محصورة.. فقد ذكر للنوع الأول واحداً وعشرين مثلاً، وللنوع الثاني اثني عشر.

ومن خلال هذا العرض الموضوعي لم يستطع القسيس مواصلة المناظرة وبهت الذي كفر.. واختفى القسيس!!..

وبقي الشيخ شامخاً قوياً يواصل جهاده المقدس في البلاغ والبيان، وشحذ الهمم لمقاومة الاستعمار، فضاق الإنجليز ذرعاً بالشيخ وتعقبوا خطواته، وأصدروا حكماً بإعدامه، فخرج مهاجراً إلى الله، حتى وصل مكة المكرمة عام ١٢٧٤ هـ فاحتفى به علماء الحرم الشريف ومنحوه إجازة التدريس في المسجد الحرام..

ووقع ما يشبه الخيال، فعندما اختفى القسيس فنذر بعد هزيمته أمام جمهور الهند - ذهب إلى القسطنطينية، وأشاع أن علماء المسلمين في الهند انهزموا، وأن المساجد حُوِّلَت إلى كنائس، وأن النصرانية سادت هناك.

ففرع السلطان عبد العزيز وطلب معرفة الحقيقة من والي مكة عن طريق الحجاج الهنود، فأجاب الوالي يومئذ بأن الشيخ رحمة الله الهندي موجود في مكة، واسمه في السجل الرسمي لعلماء المسجد الحرام..

فبادر الخليفة العثماني وأصدر أمراً بضرورة حضور الشيخ فوصل إلى القسطنطينية عام ١٢٧٩ هـ.

وما كاد القسيس فنذر يسمع بقدوم الشيخ حتى ولى هارباً ولم يُعلم عنه شيء.

وقد أكرم الخليفة الشيخ كراماً بالغاً، وأنعم عليه بالخلعة السلطانية وبالوسام المجيدي من الدرجة الثانية، وجعل له مرتباً شهرياً، وعينه في مجلس الوالي بمكة المكرمة، وطلب منه تأليف كتاب يشمل المسائل الجوهريّة والمباحث الأساسية التي دارت حولها المناظرة في الهند.

فشرع الشيخ في تأليف هذا الكتاب في شهر رجب عام ١٢٨٠ هـ، وأكمّله في ستة أشهر، وطبع في تركيا ووزع في البلاد الإسلامية وترجم

إلى اللغات الألمانية والفرنسية والإنجليزية..

وعلفت جريدة «لندن تايمز» في ذلك الوقت قائلة:

«لو داوم المسلمون على مطالعة وقراءة هذا الكتاب لتوقف كلياً انتشار الدين المسيحي، وأبت النفوس من قبوله، واستقاموا على الإسلام»<sup>(١)</sup>.

وعاد الشيخ إلى مكة المكرمة، وأسس مدرسة دينية، تعتبر الأولى من نوعها في الجزيرة العربية، عرفت باسم المدرسة الصولتية، نسبة إلى أميرة هندية تبرعت بإنشائها هي السيدة صولت النساء.

وظل الشيخ في جهاده العلمي المبارك حتى وافاه الأجل المحتوم في شهر رمضان عام ١٣٠٨ هـ (١٨٩١ م)، ودفن بالقرب من أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها بمقبرة المعلاة..

هذا ويعيننا هنا أن نقف أمام الباب السادس من كتابه «إظهار الحق» وهو بعنوان:

«في إثبات نبوة محمد ﷺ ودفع مطاعن القسيسين».

وقد سلك في إثبات النبوة مسالك ستة هي:

الأول: أنه ظهرت على يديه ﷺ معجزات كثيرة قولية وفعلية، أوصلها الشيخ إلى سبعين معجزة.

الثاني: أنه قد اجتمع فيه ﷺ من الأخلاق العظيمة والأوصاف الجزيلة، والكلمات العلمية والعملية، والمحاسن الراجعة إلى النفس والبدن والنسب والوطن - ما يجزم العقل بأنه لا يجتمع في غير نبي.

(١) إظهار الحق ج ٢، ص ١٥.

فإن كل واحد منها وإن كان يوجد في غير النبي أيضاً لكن مجموعها مما لا يحصل إلا للأنبياء..

الثالث: ما اشتملت عليه شريعته الغراء مما يتعلق بالاعتقادات والعبادات والمعاملات، والسياسات، والآداب، والحكم.. مما يعلم قطعاً أنها ليست إلا من الوضع الإلهي والوحي السماوي، وأن المبعوث بها ليس إلا نبياً.

الرابع: أنه عليه السلام ادّعى بين قوم لا كتاب لهم ولا حكمة فيهم أنني بُعثت من عند الله بالكتاب المنير والحكمة الباهرة لأنور العالم بالإيمان والعمل الصالح.

وانتصب - مع ضعفه وفقره وقلة أعوانه - مخالفاً لجميع أهل الأرض حتى ظهر دينه على الأديان في مدة قليلة شرقاً وغرباً، ولم يقدر الأعداء - مع كثرة عددهم وعددهم، وشدة شوكتهم وشكيمتهم، وفرط بغضهم وحميتهم، وبذل غاية جهدهم - في إطفاء نور دينه..

فهل يكون ذلك إلا بعون إلهي وتأيد سماوي؟!.

الخامس: أنه ظهر في وقت كان الناس محتاجين إلى من يهديهم إلى الصراط المستقيم ويدعوهم إلى الدين القويم..

السادس: إخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته عليه السلام.

وهذا المسلك هو بيت القصيد في موضوعنا..

وقد استحسّن المؤلف أن يقدم أموراً ثمانية قبل ذكر البشارات<sup>(١)</sup>:

الأمر الأول:

أن الأنبياء الإسرائيليين مثل أشعياً وأرمياً ودانيال وحزقيال وعيسى

---

(١) ج ٢، ص ٣٢٧ - ٣٦٢ بتصرف.

أخبروا عن الحوادث الآتية كحادثة بختنصر وقورش وإسكندر وحلفائه، وحوادث أرض أدوم ومصر ونينوى وبابل، ويبعد كل البعد أن لا يخبر أحد منهم عن خروج محمد ﷺ تلك الحادثة التي هي أعظم الحوادث.

### الأمر الثاني:

أن النبي المقدم إذا أخبر عن النبي المتأخر لا يشترط في إخباره أن يخبر بالتفصيل التام بأنه يخرج من القبيلة الفلانية، في السنة الفلانية، في البلد الفلاني، وتكون صفته كيت وكيت.. بل يكون هذا الإخبار في غالب الأوقات مجملاً عند العوام، وأما عند الخواص فقد يصير جلياً بواسطة القرائن، وقد يبقى خفياً عليهم أيضاً لا يعرفون مصداقه إلا بعد ادعاء النبي اللاحق أن النبي المتقدم أخبر عنه، وظهور صدق ادعائه بالمعجزات وعلامات النبوة، وبعد الادعاء وظهور صدقه يصير جلياً عندهم.

### الأمر الثالث:

ادعاء أن أهل الكتاب ما كانوا ينتظرون نبياً آخر غير المسيح وإيلياء ادعاء باطل لا أصل له، بل كانوا منتظرين لغيرهما أيضاً لأن علماء اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام سألوا يحيى عليه السلام أولاً: أنت المسيح؟

ولما أنكر سألوه: أنت إيلياء؟

ولما أنكر سألوه: أنت النبي؟ أي النبي المعهود الذي أخبر به موسى.

فعلم أن هذا النبي كان منتظراً مثل المسيح وإيلياء، وكان مشهوراً بحيث ما كان محتاجاً إلى ذكر الاسم بل الإشارة إليه كانت كافية.

### الأمر الرابع:

ادعاء أن المسيح خاتم النبيين ولا نبي بعده باطل لما عرفت في



الأمر الثالث أنهم كانوا منتظرين للنبي المعهود الآخر الذي يكون غير المسيح وإيلياء، ولما لم يثبت بالبرهان مجيئه قبل المسيح فهو بعده ولأنهم معترفون بنبوة الحواريين وبولس وغيرهم.

ولا متمسك لهم في قول عيسى من الباب السابع من إنجيل متى :  
«احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة».

فلاحتراز من الأنبياء الكذبة من الأنبياء الصدقة، وليس من كل نبي بعده فهم يثبتون النبوة لكثيرين بعده..

الأمر الخامس :

البشارات التي نقلها المسيحيون في حق عيسى عليه السلام لا تصدق عليه، في نظر تفاسير اليهود وتأويلاتهم، ولذلك فهم ينكرونه أشد الإنكار وما زال اليهود في ترقب لمسيحهم المنتظر.

والعلماء المسيحيون لا يتلفتون في هذا الباب إلى تفسيرات اليهود، ويعتقدون صدق مفهومها على عيسى عليه السلام.

كذلك تأويلات المسيحيين في البشارات التي هي في حق محمد ﷺ مردودة غير مقبولة عندنا، بل إن البشارات التي ننقلها في حق محمد ﷺ أظهر صدقاً من البشارات التي نقلها الإنجيليون في حق عيسى عليه السلام..

الأمر السادس :

مؤلفو العهد الجديد باعتماد المسيحيين ذوو إلهام، وقد نقلوا البشارات في حق عيسى عليه السلام، فيكون هذا النقل على زعمهم بالإلهام..

وقد أثبت المؤلف أن البعض منها غلط يقيناً، والبعض منها محرّف،

والبعض منها لا يصدق على عيسى عليه السلام إلا بالادعاء البحث والتحكم الصرف..

ومع ذلك يسلك القسيسون مسلك الاعتساف في تأويلها وصدقها على عيسى عليه السلام.

فلا عجب إذا صرفوا البشارات المحمدية عن وجهها الصحيح فذلك دأبهم القائم على العجز والتعصب..

الأمر السابع:

أن أهل الكتاب سلفاً وخلفاً عادتهم جارية بأنهم يترجمون غالباً الأسماء في تراجمهم ويوردون بدلها معانيها، وهذا ضبط عظيم ومنشأ للفساد، وأنهم يزيدون تارة شيئاً بطريق التفسير في الكلام الذي هو كلام الله في زعمهم ولا يشيرون إلى الامتياز.

وهذان الأمران بمنزلة الأمور العادية عندهم، ومن تأمل في تراجمهم المتداولة بالسنة مختلفة وجد شواهد تلك الأمور كثيرة.

وقد أورد المؤلف - على سبيل المثال - ثلاثة عشر أنموذجاً على ترجمة الأسماء منها:

١ - في الآية الحادية عشر من الباب الثامن من سفر الخروج في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ هكذا: «تبقى في النهر فقط».

وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا: «تبقى في النيل فقط».

٢ - وفي الآية الرابعة عشر من الباب الحادي عشر من إنجيل متى في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٤٤ هكذا:

«فإن أردتم أن تقبلوه فهو إيلياء المزمع أن يأتي».

وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ هكذا:

«فإن أردتم أن تقبلوه فهذا هو المزمع بالإتيان».

٣- وفي الآية الأولى من الباب الرابع من إنجيل يوحنا في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا: «لما علم يسوع».

وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٦٠ هكذا: «لما علم الرب».

فأمثال هؤلاء لو بدلوا اسماً من أسماء النبي محمد ﷺ في البشارات فلا عجب.

وساق المؤلف أحد عشر شاهداً على إلحاق كلامهم التفسيري بالنص المقدس عندهم، منها:

في الآية الرابعة والثلاثين من الباب السابع من إنجيل مرقس في الترجمة المطبوعة سنة ١٨١٦:

ونظر إلى السماء وتأوه وقال افثا يعني انفتح.

وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١:

ونظر إلى السماء وتنهد وقال افثا الذي هو انفتح.

وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤:

ونظر إلى السماء وتنهد وقال له انفتح الذي هو انفتح.

وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠:

ورفع نظره نحو السماء وأنّ وقال له افثا أي انفتح.

ومن هذه العبارة لا يُعلم صحة اللفظ العبراني أهو افثا أو افثا أو انفتح..

كذلك يتضح يقيناً أن لفظ «أي انفتح» أو «الذي هو انفتح» إلحاقياً ليس من كلام عيسى عليه السلام.

وهكذا فلو زادوا شيئاً بطريق التفسير من جانب أنفسهم في البشارات  
المحمدية فلا بعد منهم . .

ومما يجب التأكيد عليه والتنبيه إليه أن الإصلاح والتغيير والتحريف  
جار في كتبهم ورسائلهم التي يترجمونها حيناً بعد آخر . .

### الأمر الثامن :

أن بولس - وإن كان عند أهل التثلية في رتبة الحوارين - غير  
مقبول عندنا ولا نعدّه من المؤمنين الصادقين بل من المنافقين الكذابين،  
ومعلمي الزور والرسول الخداعين الذين ظهروا بالكثرة بعد عروج  
المسيح . .

وكان في ابتداء الأمر مؤذياً للطبقة الأولى من المسيحيين جهراً، لكنه  
لما رأى أن هذا الإيذاء الجهري لا ينفع نفعاً معتداً به؛ دخل على سبيل  
النفاق في هذه الملة وادعى رسالة المسيح فأفسد الدين وأباح كل محرم . .

وبالتالي فلم ينقل عنه المؤلف شيئاً في مسلك البشارات المحمدية  
واكتفى بالنقل عن الكتب المعتمدة عند العلماء البروتستنت ثم ذكر المؤلف  
ثمانية عشرة بشارة، بيّن مواضعها من كتب العهد القديم والجديد، وناقش  
بالتفصيل دلائل صدقها على الرسول العربي، ورد مزاعم أهل الكتاب في  
هذا الشأن ردّاً موضوعياً . .

وهذه البشارات هي<sup>(١)</sup> :

### البشارة الأولى :

في الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء هكذا :  
« فقال الرب لي نعم جميع ما قالوا .

---

(١) ج ٢، ص ٣٦٢ - ٤٤٠ بتصرف .

وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوانهم وأجعل كلامي في فمه  
ويكلمهم بكل شيء أمره به .

ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا أكون المنتقم من  
ذلك .

فأما النبي الذي يجترئ بالكبرياء ويتكلم في اسمي ما لم أمره بأنه  
يقوله أم باسم آلهة غيري فليقتل .

فإن أحببت وقلت في قلبك كيف أستطيع أن أميز الكلام الذي لم  
يتكلم به الرب .

فهذه تكون لك آية، إن ما قاله ذلك النبي في اسم الرب ولم يحدث  
فالرب لم يكن تكلم به، بل ذلك النبي صورة في تعظيم نفسه، ولذلك لا  
تخشاه .

وهذه البشارة ليست بشارة يوشع عليه السلام كما يزعم الآن أحبار  
اليهود، ولا بشارة عيسى عليه السلام كما يزعم علماء البروتستنت بل هي  
بشارة محمد ﷺ لعشرة وجوه ساقها المؤلف .

#### البشارة الثانية :

الآية الحادية والعشرون من الباب الثاني والثلاثين من سفر الاستثناء  
هكذا :

«هم أغاروني بغير إله، وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة، وأنا أيضاً  
أغريهم بغير شعب، وبشعب جاهل أغضبهم» .

والمراد بشعب جاهل العرب، لأنهم كانوا في غاية الجهل  
والضلال، وما كان عندهم علم، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم  
العقلية، وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والأصنام، وكانوا محقرين  
عند اليهود لكونهم من أولاد هاجر الجارية .

فمقصود البشارة أن بني إسرائيل أغاروني بعبادة المعبودات الباطلة فأغبرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرّون وجاهلون، فأوفى بما وعد فبعث من العرب النبي ﷺ فهداهم إلى الصراط المستقيم، كما قال الله تعالى في سورة الجمعة:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

البشارة الثالثة:

في الباب الثالث والثلاثين من سفر الاستثناء في الترجمة العربية المطبوعة ١٨٤٤ م هكذا:

«وقال جاء الرب من سينا، وأشرق لنا من ساعير، واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار، في يمينه سنة من نار» فمجيئه من سينا إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام.

وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيس عليه السلام.

واستعلانه من جبل فاران إنزاله القرآن، لأن فاران جبل من جبال مكة. . ففي الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في حال إسماعيل عليه السلام هكذا:

«وكان الله معه، ونما وسكن في البرية، وصار شاباً يرمي بالسهام، وسكن بركة فاران، وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر».

ولا شك أن إسماعيل عليه السلام كان بمكة.

البشارة الرابعة:

في الآية العشرين من الباب السابع عشر من سفر التكوين وعد الله في حق إسماعيل عليه السلام لإبراهيم عليه السلام، في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ م هكذا:

«وعلى إسماعيل أستجيب لك، هو ذا أباركه، وأكبره وأكثره جداً، فسيلد اثني عشر رئيساً وأجعله لشعب كبير».

وقوله: «أجعله لشعب كبير» يشير إلى محمد ﷺ لأنه لم يكن في ولد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره..

وقد قال الله تعالى:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

البشارة الخامسة:

الآية العاشرة من الباب التاسع والأربعين من سفر التكوين هكذا في الترجمة العربية سنة ١٧٢٢، ١٨٣١، ١٨٤٤:

«فلا يزول القضيبي من يهوذا، والمدير من فخذة حتى يجيء الذي له الكل، وإياه تنتظر الأمم».

وفي الترجمة العربية سنة ١٨١١:

«فلا يزول القضيبي من يهوذا، والرسم من تحت أمره إلى أن يجيء الذي هو له، وإليه تجتمع الشعوب».

والمراد من القضيبي: السلطة الدنيوية، ومن المدير: الحاكم الدنيوي، والرسم: هو الشريعة.

فسيدنا محمد ﷺ هو صاحب الشريعة التي نسخت الشرائع، واجتمعت إليه الشعوب فهو ﷺ صاحب الرسالة العامة الخالدة. وقد أبطل المؤلف أن يراد بهذه البشارة مسيح اليهود كما هو مزعومهم، أو عيسى عليه السلام كما هو مزعوم النصارى.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٩.

## البشارة السادسة :

الزبور الخامس والأربعون هكذا :  
« فاض قلبي كلمة صالحة أنا أقول أعمالي للملك .  
لساني قلم كاتب سريع الكتابة .  
بهي في الحسن أفضل من بني البشر .  
انسكبت النعمة على شفيتك لذلك باركك الله إلى الدهر .  
تقلد سيفك على فخذك أيها القوي بحسبك وجمالك .  
استلّه وانجح واملك من أجل الحق والدعة والصدق ، وتهديك  
بالعجب يمينك .  
نُبِّلك مسنونة أيها القوي في قلب أعداء الملك ، الشعوب تحتك  
يسقطون .  
كرسيك يا الله إلى دهر الداهرين ، عصا الاستقامة عصا ملكك .  
أحببت البر وأبغضت الإثم لذلك مسحك الله إلهك بدهن الفرح  
أفضل من أصحابك .  
المر والميعة والسليخة من ثيابك من منازل الشريفة العاج التي  
أبهجتك .  
نبات الملوك في كرامتك ، قامت الملكة من عن يمينك مشتملة  
بثوب مذهب موسى .  
اسمعي يا بنت وانظري وأنصتي بأذنيك وانسي شعبك وبنت أبيك .  
فيشتهي الملك حسنك لأنه هو الرب إلهك وله تسجدين .  
بنات صور يأتينك بالهدايا ، لوجهك يصلي كل أغنياء الشعب .  
كل مجد ابنة الملك من داخل مشتملة بلباس الذهب الموشى .



يلغن إلى الملك عذارى، في أثرها قريباتها إليك يقدمن.

يلغن بفرح وابتهاج يدخلن إلى هيكل الملك.

ويكون بنوك عوضاً من آبائك، وتقيمهم رؤساء على سائر الأرض.

سأذكر اسمك في كل جيل وجيل، من أجل ذلك تعترف لك الشعوب إلى الدهر وإلى دهر الدهرين».

فهذه صفات سيدنا محمد ﷺ المبشر به في الزبور، فهو أحسن الناس وجهاً، وسيد ولد آدم، وأفصح الناس لهجةً وأشجع الناس وأنجدهم وأجودهم، وأعظم الناس أمانةً وأصدقهم حديثاً، وخير من جاهد في سبيل الله، وقد صارت بنات الملوك والأمراء في خدمته ﷺ وخدمة أصحابه، وبعث إليه ملوك العالم بالهدايا، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ورفع الله ذكره في العالمين، ففي أرجاء الأرض المختلفة يُرفع النداء العلوي «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

ولا تصدق هذه الأوصاف في حق عيسى عليه السلام كما يدّعيه النصارى، فلا يصدق عليه كونه متقلداً بالسيف، ولا كون نبله مسنونه، ولا انقياد الأغنياء ولا إرسالهم إليه الهدايا، بل هو على زعم النصارى أخذوه وأهانوه واستهزؤوا به وضربوه بالسياط ثم صلبوه، وما كان له زوجة ولا ابن فلا صدق دخول البنات في بيته ولا كون أبنائه بدل آبائه رؤساء الأرض..

#### البشارة السابعة:

في الزبور المائة والتاسع والأربعين هكذا:

«سبحوا الرب تسييحاً جديداً، سبحوه في مجمع الأبرار.

فليفرح إسرائيل بخالقه، وبنو صهيون يبتهجون بملكهم.

فليسبحوا اسمه بالمصاف بالطبل والمزمار يرتلوا له.

لأن الرب يسر بشعبه ويشرف المتواضعين بالخلاص.

تفتخر الأبرار بالمجد، ويتهجون على مضاجعهم.  
ترفع الله في حلوقهم، وسيوف ذات فمين في أياديهم.  
ليصنعوا انتقاماً في الأمم وتوبيخات في الشعوب.  
ليقيدوا ملوكهم بالقيود وأشرافهم بأغلال من حديد ليضعوا بهم حكماً  
مكتوماً.

هذا المجد يكون لجميع الأبرار».

فالمبشّر به محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ويصدق جميع  
الأوصاف المذكورة في هذا الزبور عليه وعلى أصحابه.

وليس المبشّر به سليمان عليه السلام لأنه ما وسع مملكته على  
مملكة أبيه على زعم أهل الكتاب، ولأنه صار مرتدّاً عابداً للأصنام في آخر  
عمره على زعمهم.

وليس المبشّر به عيسى عليه السلام لأنه بعيد كل البعد عن هذه  
الأوصاف المذكورة، لأنه أُسر ثم قُتل على زعمهم، وكذا أسر أكثر حواربيه  
بالقيود والأغلال ثم قتلوا بأيدي الملوك الكفار..

البشارة الثامنة :

في الباب الثاني والأربعين من كتاب أشعياً هكذا:  
«التي قد كانت أولها قد أتت، وأنا مخبر أيضاً بأحداث قبل أن  
تحدث وأسمعكم إياها.

سبحوا للرب تسبيحة جديدة، حمّده من أقاصي الأرض راكبين في  
البحر، وملؤه الجزائر وسكانهن.

يرتفع البرية ومدتها في البيوت نحل قيدار، سبحوا بإسكان الكهف،  
من رؤوس الجبال يصيحون.

يجعلون للرب كرامة، وحمده يخبرون به في الجزائر.

الرب كجبار، يخرج مثل رجل مقاتل، يهوش الغير، يصوت ويصيح، على أعدائه يتقوى.

سكتُ دائماً، صمتُ، صبرتُ صبراً، فأتكلم مثل الطائفة ما بدد وابتلع معاً.

أخرب الجبال والأكام، وكل نباتهن أجفف، وأجعل الأنهار جزائر والبحيرات أجففهن... إلخ».

فظهر من هذا أن أشعياً عليه السلام أخبر أولاً عن بعض الأشياء، ثم يخبر عن الأخبار الجديدة الآتية في المستقبل.

فالحال الذي يخبر عنه من هذه الآية إلى آخر الباب غير الحال الذي أخبر عنه قبلها.

والتسييحه الجديدة عبارة عن العبادة على النهج الجديد، التي هي في الشريعة المحمدية، وتعميمها على سكان أقاصي الأرض وأهل الجزائر وأهل المدن والبراري إشارة إلى عموم نبوته ﷺ، ولفظ «قيدار» أقوى إشارة إليه لأن محمداً ﷺ في أولاد قيدار بن إسماعيل.

وقوله: «من رؤوس الجبال يصيحون» إشارة إلى العبادة المخصصة التي تؤدَّى في أيام الحج مصحوبة بالتلبية.

وقوله: «حمده يخبرون به في الجزائر» إشارة إلى الأذان الذي يدوي في أقطار العالم كل يوم خمس مرات.

وقوله: «الرب كجبار يخرج مثل رجل مقاتل...» يشير إلى مضمون الجهاد إشارة حسنة بأن جهاده وجهاد تابعيه يكون لله وبأمره خالياً من عن حظوظ الهوى النفسانية، ولذلك عبّر الله عن خروج هذا النبي وخروج تابعيه بخروج الرب.

ثم بين مشروعية الجهاد بعد مرحلة الصبر والصمت..

## البشارة التاسعة :

في الباب الرابع والخمسين من كتاب أشعياً هكذا:

«سبحي أيتها العاقر التي لست تلدين، أنشدي بالحمد، وهليلي، التي لم تلدي من أجل أن الكثيرين من بني الوحشة أفضل من بني ذات رجل، يقول الرب.

أوسعني موضع خيمتك، وسراق مضاربك، ابسطي، لا تشفقي، طولي جبالك، ثبتي أوتادك.

لأنك تنفيذين يمنة ويسرة، وزرعك يرث الأمم، ويعمر المدن الخربة.

لا تخافي لأنك لا تخزين، ولا تخجلن، فإنك لا تستحيين، من أجل أنك خزئي صباك تنسين، وعارُ ترملك لا تذكرين أيضاً... إلخ».

فالمراد بالعاقر مكة المعظمة لأنها لم يظهر منها نبي بعد إسماعيل عليه السلام، ولم ينزل فيها وحي، بخلاف أورشليم، لأنه ظهر فيها الأنبياء الكثيرون، وكثر فيها نزول الوحي.

وبني الوحشة عبارة عن أولاد هاجر، لأنها كانت بمنزلة المطلقة المخرجة عن البيت... ولذلك وقع في حق إسماعيل وعد الله هاجر «هذا سيكون إنساناً وحشياً» كما هو مصرح به في الباب السادس عشر من سفر التكوين.

وبنو ذات رجل عبارة عن أولاد سارة.

فخطب الله مكة أمراً لها بالتسبيح والتهليل وإنشاد الشكر لأجل أن كثيرين من أولاد هاجر صاروا أفضل من أولاد سارة، فحصلت الفضيلة لها بسبب حصول الفضيلة لأهلها. ووفى بما وعد بأن بعث محمداً ﷺ رسولاً أفضل البشر، خاتم النبيين من أهلها في أولاد هاجر، وحصل لمكة السعة

بواسطة هذا النبي، وما حصل لغيرها من المعابد في الدنيا، إذ لا يوجد في الدنيا معبد مثل الكعبة من ظهور محمد ﷺ إلى هذا الحين.

### البشارة العاشرة:

في الباب الخامس والستين من كتاب أشعياً هكذا:  
«طلبني الذين لم يسألوني قبل، ووجدني الذين لم يطلبوني، قلت هأنذا إلى الأمة الذين لم يدعوا باسمي.

بسطت يدي طول نهار إلى شعب غير مؤمن، الذي يسلك بطريق غير صالح وراء أفكارهم.

الشعب الذي يغضبني أمام وجهي دائماً، الذين يذبحون في البساتين، ويذبحون على اللبن.

الذين يسكنون في القبور، في مساجد الأوثان يرقدون، الذين يأكلون لحم الخنزير والمرق المنجس في آنتيتهم.

الذين يقولون ابعد عني، لا تقرب مني لأنك نجس، هؤلاء يكونون دخاناً في رجزي، ناراً متقدة طول النهار... إلخ».

فالمراد بالذين لم يسألوني والذين لم يطلبوني - العرب لأنهم كانوا غير واقفين على ذات الله وصفاته وشرائعه... كما قال تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾<sup>(١)</sup>.

والأوصاف المذكورة في قوله: «الذين يسكنون في القبور... إلخ» ألصق بحال النصارى، والوصف المذكور في قوله: «الذين يقولون ابعد

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٤.

عني . . إلخ» ألصق بحال اليهود فكلا الفريقين أبعدهم الله واختار الأمة  
المحمدية .

#### البشارة الحادية عشرة:

في الباب الثاني من كتاب دانيال في حال الرؤيا التي رآها بختنصر  
ملك بابل ونسى، ثم بين دانيال عليه السلام بحسب الوحي تلك الرؤيا  
وتفسيرها . .

وساق المؤلف نص الرؤيا وتعبيرها، ومضمونها أن الله تعالى يبعث  
مملكة تسحق جميع الممالك وتثبت إلى الأبد، وقد منح الله هذه السلطنة  
لسيدنا محمد ﷺ وجعل الصحابة يسيطرون في مدة قليلة على جميع ديار  
فارس التي كانت هذه الرؤيا وتفسيرها متعلقين بها . .

#### البشارة الثانية عشرة:

نقل يهوذا الحواري في رسالته الخبر الذي تكلم به أخنوخ الرسول  
وعبارته في الترجمة العربية سنة ١٨٤٤ هكذا:

«الرب قد جاء في ربواته المقدسة ليدائن الجميع ويبكّت جميع  
المنافقين على كل أعمال نفاقهم التي نافقوا فيها، وعلى كل الكلام الصعب  
الذي تكلم به ضد الله الخطاة المنافقون» .

ومعلوم أن استعمال لفظ الرب بمعنى المخدوم والمعلم شائع، وأن  
لفظ المقدس والقديس يطلق في العهدين القديم والجديد على المؤمن  
الموجود في الأرض . .

فالمراد بالرب محمد ﷺ وبالربوات المقدسة الصحابة، والتعبير عن  
مجيئه «قد جاء» لكونه أمراً يقينياً . .

فجاء محمد ﷺ في ربواته المقدسة فدان الكفار، وبكّت المنافقين،  
وخاصة اليهود على تفريطهم في حق عيسى ومريم عليهما السلام وبعض

عقائدهم الواهية، والنصارى على تفريطهم في توحيد الله وإفراطهم في حق عيسى عليه السلام.

### البشارة الثالثة عشرة:

في الباب الثالث من إنجيل متى هكذا:

«وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرِّز في برية اليهودية قائلاً توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات».

وفي الباب الرابع من إنجيل متى هكذا:

«ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف إلى الجليل.

من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات.

وكان يسوع يطوف كل الجليل ويعلم في مجامعهم ويكرِّز ببشارة الملكوت...».

ولما أرسل المسيح الحواريين إلى البلاد الإسرائيلية للدعوة والوعظ وصَّاهم بوصايا منها هذه الوصية أيضاً:

«وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين أنه قد اقترب ملكوت السموات» كما هو مصرح به في الباب العاشر من إنجيل متى ووقع في الباب التاسع من إنجيل لوقا.

وتكررت نفس الوصية للتلاميذ السبعين كما هو مصرح به في الباب العاشر من إنجيل لوقا، فظهر أن كلاً من يحيى وعيسى والحواريين والتلاميذ السبعين قد بشر بملكوت السموات وأن هذا الملكوت ليس واحداً من هؤلاء فيكون المراد طريق النجاة التي ظهرت بشريعة محمد ﷺ فهؤلاء كانوا يبشرون بهذه الشريعة الخالدة.

## البشارة الرابعة عشرة:

في الباب الثالث عشر من إنجيل متى هكذا:  
«قدم لهم مثلاً آخر قائلاً يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها  
إنسان وزرعها في حقله.

وهي أصغر جميع البذور، ولكن متى نمت فهي أكبر البقول وتصير  
شجرة حتى إن طيور السماء تأتي وتأوي في أغصانها».

فملكوت السماء طريقة النجاة التي ظهرت بشريعة محمد ﷺ لأنه  
نشأ في قوم أميين فبعث الله منهم محمداً ﷺ فكانت شريعته في ابتداء الأمر  
بمنزلة حبة خردل أصغر الشرائع بحسب الظاهر، لكنها لعمومها نمت في  
مدة قليلة وصارت أكبرها، وأحاطت شرقاً وغرباً..

## البشارة الخامسة عشرة:

في الباب العشرين من إنجيل متى هكذا:  
«إِنَّ ملكوت السموات يشبه رجلاً رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر  
فَعَلَةً لكرمه.

فاتفق مع العملة على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرمه.

ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياماً في السوق بطالين.

فقال لهم اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فأعطيكم ما يحق لكم فمضوا.

وخرج أيضاً نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل كذلك.

ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياماً بطالين فقال  
لهم لماذا وقفتم ههنا كل النهار بطالين؟.

قالوا له لأنه لم يستأجرنا أحد، قال لهم اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم  
فتأخذوا ما يحق لكم.



فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله ادع الفعلة وأعطهم الأجر مبتدئاً من الآخرين إلى الأولين.

فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة وأخذوا ديناراً ديناراً.

فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا هم ديناراً ديناراً.

وفيما يأخذون تذمروا على رب البيت.

قائلين: هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر.

فأجاب وقال لواحد منهم: يا صاحب ما ظلمتك، أما اتفقت معي على دينار.

فخذ الذي لك واذهب فإنني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك.

أو ما يحل لي أن أفعل ما أريد بمالي أم عينك شريرة لأنني أنا صالح؟!.

هكذا يكون الآخرون أولين، والأولون آخريين، لأن كثيرين يُدعون، وقليلين يُنتخبون».

فالآخرون أمة محمد ﷺ، فهم يقدّمون في الأجر، وهم الآخرون الأولون كما قال النبي ﷺ: «نحن الآخرون السابقون».

البشارة السادسة عشرة:

في الباب الحادي والعشرين من إنجيل متى هكذا:

«اسمعوا مثلاً آخر، كان إنسان رب بيت غرس كرماً وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة، وبنى برجاً، وسلمه إلى كرامين وسافر.

ولما قرب وقت الثمار أرسل عبده إلى الكرامين وسافر ليأخذ أثماره..

فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً.

ثم أرسل أيضاً عبيداً آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك.  
وأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً يهابون ابني .

وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلموا  
نقتله ونأخذ ميراثه .

فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه .

فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين؟! .

قالوا له أولئك الأردباء يهلكهم هلاكاً ردياً، ويسلم الكرم إلى كرامين  
آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها .

قال لهم يسوع أما قرأتم قط في الكتب، الحجر الذي رفضه  
البنائون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في  
أعيننا .

لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يُنزع منكم ويعطى لأمة تعمل  
أثماره .

ومن سقط على هذا الحجر يتريض، ومن سقط هو عليه يسحقه .  
ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم» .

فرب البيت كناية عن الله تعالى، والكرم كناية عن الشريعة، وإحاطته  
بسياج، وحفر المعصرة فيه، وبناء البرج كناية عن بيان المحرمات  
والمباحات والأوامر والنواهي .

وأن الكرامين الطاغين كناية عن اليهود كما فهم رؤساء الكهنة  
والفريسيون أنه تكلم عليهم، والعبيد المرسلون كناية عن الأنبياء عليهم  
السلام، والابن كناية عن عيسى عليه السلام، ولا بأس بإطلاق هذا اللفظ

عليه مجازاً، وقد قتله اليهود في زعمهم.

والحجر الذي رفضه البناءون كناية عن محمد ﷺ، والأمة التي تعمل أثمارة كناية عن أمته ﷺ، وهذا هو الحجر الذي كل من سقط عليه ترضض، وكل من سقط هو عليه سحقه.

وقريب من هذا المعنى قول النبي ﷺ:

«إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بنيانياً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاً وضعت هذه اللبنة؟! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

البشارة السابعة عشرة:

في الباب الثاني من المشاهدات هكذا:

«ومن يغلب ويحفظ أعماله إلى النهاية فسأعطيه سلطاناً على الأمم. فيرعاهم بقضيب من حديد، كما تكسر آنية من خزف، كما أخذت أيضاً من عند أبي.

وأعطيه كوكب الصبح.

من له أذن فليسمع ما يقول الروح بالكنائس».

فهذا الغالب الذي أعطى سلطاناً على الأمم ويرعاهم بقضيب من حديد هو محمد ﷺ كما قال الله تعالى في حقه ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾<sup>(١)</sup>.

وكوكب الصبح عبارة عن القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة الفتح، آية: ٣.

(٢) سورة النساء، آية: ١٧٤.

## البشارة الثامنة عشرة:

في الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا:  
«إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي.  
وأنا أطلب من الأب فيعطىكم فارقليط آخر يثبت معكم إلى  
الأبد... إلخ».

وفي الباب السادس عشر من إنجيل يوحنا هكذا:  
«لكني أقول لكم الحق، أنه خير لكم أن أنطلق، لأنني إن لم أنطلق  
لم يأتكم الفارقليط، فأما إن انطلقت أرسلته لكم... إلخ».

وقد أكد المؤلف حقيقة هامة وهي أن عيسى عليه السلام كان يتكلم  
باللسان العبراني لا باليوناني فإذا لا يبقى شك في أن الإنجيل ترجم اسم  
المبشر به باليوناني بحسب عاداتهم في ترجمة الأسماء، ثم مترجمو العربية  
عربوا اللفظ اليوناني بكلمة «فارقليط».

وعلى هذا فاللفظ العبراني الذي قاله عيسى مفقود، واللفظ اليوناني  
الموجود ترجمة.

وسواء قلنا إن اللفظ اليوناني الأصل هو «بير كلوطوس» بمعنى قريب  
من محمد وأحمد، أو هو «بارا كلي طوس» بمعنى المعزى والمعين  
والوكيل أو الشافع... فكلها تصدق على محمد ﷺ.

وقد ناقش المؤلف مناقشة موضوعية كافة الشبهات التي أثارها  
القساوسة حول هذه البشارة<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) راجع ما ذكرناه سابقاً من مناقشة ابن تيمية لهذه البشارة أيضاً.

## شاهد من أهلها

تكلم الأستاذ عباس العقاد في كتابه «مطلع النور» عن طوابع ونبوءات البعثة المحمدية، وأورد بعض الأمثلة لباحثين من فضلاء الهند وفارس والأمم الشرقية التي لا تتكلم العربية، ونقل عن كتاب باللغة الإنجليزية، ألفه مولانا عبد الحق فديارتي، وسماه «محمد في الأسفار الدينية العالمية»..

وشهد الأستاذ العقاد للمؤلف بالصبر الطويل على توفيق هذه العلامات وأشباهاها، يستخرج منها الطالع بعد الطالع، والنبوءة إلى جانب النبوءة..

وذكر الأستاذ العقاد أن من الجماعات التي عנית عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة الأحمديّة الهندية التي ترجمت القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية، فإنها أفردت للنبوءات والطوابع عن ظهور محمد ﷺ بحثاً مسهباً في مقدمة الترجمة.

ثم لخص الأستاذ العقاد بعض الطوابع من كتاب «فتح الملك العلام في بشائر دين الإسلام» لمؤلفيه الأستاذين أحمد ترجمان ومحمد حبيب..

وفي ختام البحث عقب العقاد قائلاً:  
«فكل من راجع العلامات النبوية في كتب الديانات، من أقدمها قبل

موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، إلى يومنا هذا يرى - ولا شك - أن العلامات التي لخصناها هنا من أقواها وأوضحها وأقلها اعتسافاً واستكراهاً للألفاظ والتراكيب، على غير معانيها.

ثم يردف العقد ذلك قائلاً:

«ولا نعلم أن قيام الدعوة المحمدية قد اعتمد عليها عند أحد من المسلمين الأولين، أو عند أحد من الذين دانوا بالإسلام في الزمن الحديث..»

وإذا فرضنا أن التخريج صحيح في كل ما أورده الباحثون المتقدمون وغيرهم، فإن هذه العلامات لم تنفع أحداً من الذين كانوا يقرؤون التوراة في عهد الدعوة المحمدية، ولم نعلم لها موقفاً من الدعوة غير اللجاجة والمكابرة والاشتداد في الإنكار على نحو لم نعلمه من الجاهليين والذين لم يطلعوا على حرف من كتب العهد القديم<sup>(١)</sup>.

وهنا مكمّن الخطر، فإنه مصادم تماماً لنصوص القرآن وحقائق التنزيل الشاهدة والناطقة بتواصل التأكيد على النبوة الخاتمة، والبشرى بالنبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وأن أحبار أهل الكتاب يعرفون محمداً بصدقه وأمانته ورسالته كما يعرفون أبناءهم نسباً..

وإذا كان العقد قد أراد أن يتخذ من جوهر الرسالة وحقائق الإسلام حجة كاملة لإيمان المؤمنين حيث يقول:

«وإذا قدرنا أن هذه العلامات لم ترد قط في كتاب سابق للدعوة المحمدية لم يكن ذلك مما يضير هذه الدعوة، أو يصدها عن طريقها، أو يسلبها وسيلة من وسائل الإقناع والذبيوع التي اعتمدت عليها».

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات العقد - المجلد السابع - الإسلاميات ٣ ص ٢٣٢.

فإن ذلك لا ينفي، ولا ينبغي أن يصدّنا عن وقائع الحياة وحقائق التاريخ.. فإنها شاهدة وناطقة بأن كثيراً من اليهود والنصارى آمنوا بالرسالة والرسول إذعائاً لهذه الطوالع وتلك البشارات، منذ فجر الإسلام وإلى اليوم والغد بعده..

وقد أشرنا من قبل إلى القس أنسلم تورميذا، الشهير بعبدالله الترجمان الأندلسي، الذي كان مفتاح إسلامه كلمة «البارقليط».

وحسبنا اليوم القسيس إبراهيم خليل فيلبس، الذي أصبح الحاج إبراهيم خليل أحمد، وألف كتاباً بعنوان «محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن»<sup>(١)</sup>.

وإليك نماذج من صدر الإسلام لرجال فاضت دموعهم مما عرفوا من الحق وقالوا ربنا آمنا فاكبتنا مع الشاهدين.

ورقة بن نوفل:

كان أحد أربعة من قريش تصادقوا أن يلتمسوا لأنفسهم الدين الصحيح، وهم:

- زيد بن عمرو بن نفيل.

- ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى.

- عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى.

- عبيد الله بن جحش بن رثاب، وأمه أميمة بنت عبد المطلب،

وأخته زينب بنت جحش إحدى أمهات المؤمنين.

حضر هؤلاء قريشاً في يوم عيد لهم يذبحون ويقدمون القرابين للأصنام، فخلا بعضهم إلى بعض وقالوا:

---

(١) راجع قصة إسلامه في كتاب «رجال ونساء أسلموا» - عرفات كامل العش جـ ٤، ص ٧٨ ط. دار القلم - الكويت.

تعلمن والله ما قومكم على شيء، لقد أخطؤوا دين إبراهيم وخالفوه، ما وثن يعبد لا يضر ولا ينفع؟! .

فخرج هؤلاء الأربعة يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم، فتنصّروا إلا زيداً لم يدخل في شيء من الأديان بل بقي على فطرته من عبادة الله وحده..

وصار ورقة بن نوفل على علم بالنصرانية وقرأ كثيراً من كتب أهل الكتاب وتعلم العبرانية..

وعندما فجأ الوحي سيدنا محمداً ﷺ في غار حراء، ورجع إلى زوجه خديجة قائلاً: زملوني.. زملوني، وقصّ عليها ما حدث، انطلقت به ﷺ إلى ابن عمّها ورقة..

استمع ورقة حديث رسول الله، واستعاد فكره عن الوحي وبشائر النبوة وما قرأ في الكتب المقدسة لدى أهل الكتاب ثم قال في يقين وصدق - كما في صحيح البخاري -:

«هذا الناموس<sup>(١)</sup> الذي كان ينزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك..!!

فقال سيدنا محمد: أومخرجي هم؟! .

فقال ورقة: نعم لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزراً.

وفي بعض الروايات أنه قال:

«سبوح، سبوح، هذا الناموس الذي أنزل على موسى».

---

(١) الناموس صاحب سر الملك وقيل هو صاحب سر الخير ويقابله الجاسوس صاحب سر الشر.



وفي رواية البيهقي أنه قال :

«أبشر ثم أبشر

فأنا أشهد أنك الذي بشر بك ابن مريم، وأنت على مثل ناموس موسى، وأنت نبي مرسل، وأنت ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك...».

وفي رواية ابن إسحق :

«والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكذِّبْنَهُ، ولتؤذِنِيهِ، ولتخرَجْنَهُ، ولتقاتلنَّهُ<sup>(١)</sup>، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرون الله نصراً يعلمه».

ومما يدل على فقه ورقة ووعيه العقدي أنه قال :

«أنزل على موسى».

مع أن الذي قبل محمد هو عيسى عليهم السلام...!!

وذلك أن الرسالة والشرعة إنما هي لموسى، وكل من بعده مجدد لشريعته وداع إليها، وعيسى من بني إسرائيل لم يأت لينقض الناموس وإنما ليتممه... .

ويذكر الإمام السهيلي تعليلاً آخر فيقول<sup>(٢)</sup> :

«وإنما ذكر ورقة موسى ولم يذكر عيسى وهو أقرب، لأن ورقة كان قد تنصّر، والنصارى لا يقولون في عيسى إنه نبي يأتيه جبريل، إنما يقولون فيه إن أقنوماً من الأقانيم الثلاثة اللاهوتية حلّ بناسوت المسيح، واتحد به، على اختلاف بينهم في ذلك الحلول، وهو أقنوم الكلمة، والكلمة عندهم عبارة عن العلم، فلذلك كان المسيح عندهم يعلم الغيب ويخبر بما في غد... .

---

(١) الهاء في هذه الكلمات الأربع هاء السكت ينطق بها ساكنة.

(٢) الروض الأنف ج ١، ص ٢٧٣.

فلما كان هذا من مذهب النصارى الكذبة على الله، المدعين المحال، عدل عن ذكر عيسى إلى ذكر موسى لعلمه أو لاعتقاده أن جبريل كان ينزل على موسى».

وأياً ما كان فقد توفي ورقة بعد ذلك بقليل، وجاءت الروايات تفيد حسن منقلبه إلى الله تعالى، وقد ساق الإمام ابن كثير بعضاً منها<sup>(١)</sup>:

«أن خديجة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ عن ورقة بن نوفل فقال: قد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض، فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بياض».

وهذا إسناد حسن ورواه الزهري مرسلًا.

وفي رواية لأبي يعلى:

«قد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض، أبصرته في بُطنان<sup>(٢)</sup> الجنة، وعليه السندس».

وفي رواية للبخاري:

«لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين».

وهذا إسناد جيد وروي مرسلًا.

وقد ترحم الإمام ابن كثير على ورقة وقال:

«رحمه الله، ورضي عنه، فإن مثل هذا الذي صدر عنه تصديق بما وُجد، وإيمان بما حصل من الوحي، ونية صالحة للمستقبل».

نجاشي الحبشة:

حين اشتد إيذاء المشركين لمن آمن بالله ورسوله في صدر الإسلام،

---

(١) السيرة النبوية ج ١، ص ٣٩٧.

(٢) بطنان كل شيء وسطه.

أشار النبي ﷺ - على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة وقال:

«لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحدٌ، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه».

فخرجوا متسللين سرّاً، ما بين ماشٍ وراكبٍ، حتى انتهوا إلى البحر وركبوا إلى الحبشة.

وقد هاجر المسلمون إلى الحبشة مرتين، وكانوا فوق الثمانين رجلاً سوى نسائهم وأبنائهم..

وحاولت قريش استرجاع هؤلاء المسلمين، فأرسلوا وفداً إلى نجاشي الحبشة، يحملون إليه الهدايا، ويستعدونه على المهاجرين..

وكان الرجل حكيماً وعادلاً، فأبى إلا أن يلتقي الجمعان في حضرته، ويستمع للطرفين، ويتعرف على حقيقة الموقف..

فماذا كانت دعوى قريش؟!.

قالوا: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجأؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم، لتردّهم عليهم، فهم أعلا بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه... .

وبماذا ردّ المهاجرون؟!.

لقد تقدّمهم جعفر بن أبي طالب وقال:

أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف.. .  
فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه.. .

فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من  
دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة  
الرحم وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش  
وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله لا  
نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ..

وعدد عليه أمور الإسلام ..

فقال النجاشي :

إنّ هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة .. !! وتحدّث  
الروايات أنّ وفد قريش أراد أن يستشير النجاشي فقال له :

- إنهم يخالفونك في عيسى بن مريم .. !!

- إنهم يشتمون عيسى وأمه .. !!

- إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً .. !!

فسأل النجاشي المهاجرين عن عقيدتهم في عيسى، فتكلّم جعفر  
قائلاً: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ..

وقرأ عليه صدر سورة مريم ..

فرفع النجاشي عوداً من الأرض ثم قال :

يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي

نقول فيه ما سوى هذا ..

ومن رواية :

«ما عدا عيسى بن مريم ما قلت - هذا العود ..

وفي رواية :

والله ما زاد المسيح على ما تقولون نقيراً ..

ثم قال

مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنّه رسول الله، وأنّه الذي

نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشر به عيسى بن مريم.. انزلوا حيث شئتم.. والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه..

وفي رواية:

اذهبوا فأنتم سُيُوم<sup>(١)</sup> بأرضي، من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، فما أحب أن لي دَبراً<sup>(٢)</sup> ذهباً وأني آذيت رجلاً منكم. وأمر النجاشي برّد هدايا قريش<sup>(٣)</sup>..!!..

وهذا النجاشي<sup>(٤)</sup> يسمّى أصحمة ومعناه بالعربية عطية، وما يقال. أنه صحمة أو صمحة فهو شاذ

وظلّ هذا النجاشي سمحاً كريماً مع المهاجرين، ودوداً لرسول الله ﷺ حتى إنه ﷺ كتب إليه أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت مهاجرة مع زوجها فتنصر هناك وارتد..

وذات يوم خرج الرسول ﷺ إلى أصحابه بخبر من وراء الغيب ينعي إليهم هذا الملك العادل..

ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ نعى للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه فخرج بهم إلى المصلّى وكبّر أربع تكبيرات.

وفي رواية:

---

(١) السيوم - بلغته - الأمنون.

(٢) الدبر - بلغته - الجبل.

(٣) راجع الروايات وتخريجها من السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٩: ٢٣.

(٤) النجاشي لقب لكل من حكم الحبشة كما أنّ كسرى لقب لحاكم الفرس، وقيصر لقب لحاكم الروم، وفرعون لقب لحاكم مصر كلها، والمقوقس لمن ملك الاسكندرية.

نعى لنا رسول الله ﷺ النجاشي صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه فقال:

استغفروا لأخيكم.

عبد الله بن سلام:

أحد أحبار اليهود، كان اسمه في الجاهلية «الحصين» فسماه رسول الله ﷺ - حين أسلم «عبد الله» ..

وفي قصة إسلامه نلاحظ مواقف لها دلالتها وأهميتها:

### الموقف الأول:

روى زرارة بن أوفى عن عبد الله بن سلام قال: (١)

لما قدم رسول الله - ﷺ - المدينة خرجت انظر فيمن نظر فلما رأيت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب، وكان أول ما سمعته يقول: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام».

فهذا موقف استطلاع و تأمل، فحين شاهد المحيّا الكريم لسيدنا رسول الله أدرك النور الوضاء، ثم سمعت أذناه وصايا إنسانية نبيلة ملكت عليه مشاعره وأحاسيسه ..

فإنّ للحق جاذبيته، وللفضيلة إشعاعها، وللوحي إشراقه على ذوي النفوس الطاهرة ..

### الموقف الثاني:

في صحيح البخاري:

سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ، وهو في أرضه

---

(١) أسد الغاية من معرفة الصحابة جـ ٣ ص ١٧٦ ط المكتبة الإسلامية بطهران.

يخترف<sup>(١)</sup>، فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: فما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟.

قال (عليه الصلاة والسلام): أخبرني بهن جبريل آنفاً.

قال (ابن سلام): جبريل...!!.

قال (عليه الصلاة والسلام): نعم.

قال (ابن سلام): ذلك عدو اليهود من الملائكة...!!.

فقرأ (الراوي) هذه الآية ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

أما أول أشرط الساعة فنار تحشّر الناس من المشرق إلى المغرب.

وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة<sup>(٣)</sup> كبد حوت.

وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع<sup>(٤)</sup> الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزع.

قال (ابن سلام): أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله؛ يا رسول الله إن اليهود قوم بُهت، وإنهم إن تعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني.

فجاءت اليهود فقال النبي ﷺ:

أي رجل عبد الله فيكم؟!

قالوا: خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا، وابن سيدنا.

قال: أرايتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟!

---

(١) يجتنى من ثمارها.

(٢) سورة البقرة آية ٩٧.

(٣) القطعة المنفردة المتعلقة بالكبد وهي أطيبها.

(٤) أشبهه.

فقالوا: أعاذة الله من ذلك .  
 فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .  
 فقالوا: شرُّنا وابن شرِّنا، وانتقصوه .  
 قال (ابن سلام): «فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله . .» .  
 في هذا الموقف أخذ عبد الله بن سلام يستخدم علمه بالكتاب الأول، فلعلّه كان مذكوراً فيه هذه الأشياء الثلاثة، وحيث إن محمداً لم يقرأ الكتاب ولم يجلس إلى معلم ولم يتصل براهب أو قسيس، فتكون إجابته عليها حياً إلهياً . .

ولما اطمأن ابن سلام إلى صدق الرسول صدّقه وآمن به، لكنّه لم يشأ أن يجهر بإسلامه قبل أن يجعل من نفسه حجة على قومه، فأفضى إلى الرسول أن يستنطق اليهود بمكانة ابن سلام وفضله بينهم، حتى لا يقدحوا فيه عند العلم بإسلامه، فهم قوم ينكرون الحق، ويكتمون الهدى، ويفترون الكذب . .

ونجحت الخطة، فسألهم الرسول عن ابن سلام، واستنطقهم بشهادتهم له، وحين فاجأهم ابن سلام بإعلان الشهادتين لم يتورّعوا أن ينقلبوا على رؤوسهم ويقولوا شرُّنا وابن شرِّنا . .

### الموقف الثالث:

أخرج أبو يعلى وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه عن عوف ابن مالك الأشجعي قال: (١)

انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم، فكروها دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -:  
 يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا

(١) ذكره الإمام الشوكاني في تفسيره «فتح القدير» ج ٥ ص ١٩ ط دار المعرفة .



الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، يحطّ الله تعالى عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه .

فسكتوا فما أجابه منهم أحد، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد ثلاثاً، فقال:

أبيتُم فوالله لأنّا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المُقَفَّى آمَنتُم أو كذّبتُم .  
ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج فإذا رجل من خلفه فقال  
كما أنت يا محمد .

فأقبل، فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟! .

فقالوا: والله ما نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدّك .

قال: فإنّي أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل .

قالوا: كذبت ثم ردّوا عليه وقالوا شراً .  
فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كذبتُم لن يقبل منكم قولكم . .

فخرجنا ونحن ثلاثة، رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام، فأنزل الله ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

هذا الموقف الثالث نرى أنه حنكة وسياسة رائدة من ابن سلام، ونظنّ أنه وقع بعد الموقف السابق وقبل اشتهاق قصّة إسلامه، فدخول الرسول وصاحبه إلى هذا التجمّع لليهود في يوم عيدهم لا يكون إلاّ اتفاقاً

---

(١) سورة الأحقاف آية ١٠ .

مع ابن سلام كي يكون وقع إسلامه كبيراً، وحتى يرى الجمع هذا المشهد الرائع..

وإذا كان الرسول في الموقف السابق هو الذي استنطق اليهود بشأن ابن سلام، فإن ابن سلام هنا هو الذي يستنطقهم بنفسه كي تبرأ ذمته أمام الله ويعلن على الملأ شهادة الحق وإسلام الوجه لله والإيمان بالرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة..

وجمهور المفسرين على أن آية سورة الأحقاف نزلت في عبد الله بن سلام، لكن البعض تساءل: كيف يكون هو الشاهد مع أن السورة مكية وإسلام عبد الله كان في أوائل العهد المدني؟!.

والجواب أن السورة وإن كانت مكية إلا أن هذه الآية منها مدنية، ومعلوم أن السور القرآنية لم تنزل جملة واحدة، وإنما تنزل الآية والآيات فيقول الرسول الكريم ضعوها في مكان كذا من سورة كذا..

هذه ولمنزلة عبد الله بن سلام ومكانته في الجاهلية والإسلام، وصدق يقينه بالله ورسوله، ووفائه بعهد الله؛ بشره الرسول بالجنة واستقامته على الصراط واستمسাকে بالعروة الوثقى حتى يلقي الله راضياً مرضياً..

ففي صحيح البخاري عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: «ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد بن سلام»<sup>(١)</sup>.

وعن قيس بن عباد قال:

كنت جالساً في مسجد المدينة، فدخل رجل على وجهه أثر

---

(١) لم ينف أصل الإخبار بالجنة لغيره، فهو أخبر عن سماعه، أو أن التخصيص بالعدد في العشرة المبشرين بالجنة لا يدل على نفي الزائد، أو المراد بالعشرة المبشرين في مجلس واحد، أو بلفظ البشارة، كيف لا والحسان وأزواج النبي وأهل بدر وأهل بيعة الرضوان من أهل الجنة.

الخشوع، فقالوا هذا رجل من أهل الجنة، فصلّى ركعتين تجوّز فيهما، ثم خرج وتبعته، فقلت:

إنك حين دخلت المسجد قالوا هذا رجل من أهل الجنة..  
قال: والله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لم يعلم<sup>(١)</sup>، وسأحدثك لم ذاك؟.

رأيت رؤيا على عهد النبي ﷺ فقصصتها عليه، ورأيت كأنّي في روضة - ذكر من سعتها وخضرتها - وسطها عمود من حديد، أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة.

ف قيل له: ارقه.

قلت: لا أستطيع.

فأتاني منصف<sup>(٢)</sup> فرفع ثيابي من خلفي، فرقيت حتى كنت في أعلاها، فأخذت بالعروة.

ف قيل له: استمسك.

فاستيقظت وإنها لفي يدي؛ فقصصتها على النبي ﷺ.  
فقال: تلك الروضة الإسلامية، وذلك العمود عمود الإسلام، وتلك عروة الوثقى؛ فأنت على الإسلام حتى تموت..

وذاك الرجل عبد الله بن سلام.

وظلّ عبد الله بن سلام وفياً للإسلام والمسلمين، وعرف بين الصحابة بالعلم والإيمان، حتى ليروى: (٣)

لَمَّا حضر معاذُ بن جبل الموتُ قيل له: يا أبا عبد الرحمن أوصنا،

---

(١) هذا القول تواضع أو أنه كره الثناء عليه بذلك.

(٢) بكسر الميم ويقال بالفتح - الخادم.

(٣) أسد الغاية في معرفة الصحابة جـ ٣ ص ١٧٦.

فقال: أجلسوني.. إنَّ العلم والإيمان، من ابتغاهما وجدهما، فالتمسوا العلم عند أربعة رهط:

عند عويمر أبي الدرداء، وعند سلمان الفارسي، وعند عبد الله بن مسعود، وعند عبد الله بن سلام الذي كان يهودياً فأسلم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّه عاشر عشرة في الجنة».

وتوفي عبد الله بن سلام سنة ثلاث وأربعين من الهجرة.  
رضي الله عنه وأرضاه..

سلمان الفارسي:

قصة إسلام سلمان مجموعة مواقف للبحث عن الحق، تترفع عن المال والجاه، بل تصل إلى موقف، لا نعلم له مثيلاً، حيث يفقد حريته، ويُباع عبداً، ويعمل خادماً.. كل ذلك كي يحقق هدفاً إيمانياً يرضى به الله، ويحظى فيه بلقاء خاتم الأنبياء والمرسلين..

ففي صحيح البخاري عن سلمان الفارسي:

أنَّه تداوله بضعة عشر من رب إلى رب..

وتفيض كتب السيرة بقصة إسلام ذلك الصحابي الباحث عن الحق<sup>(١)</sup>..

فهو فارسي من أهل أصبهان من قرية يقال لها جَيّ<sup>(٢)</sup>، وفي صحيح البخاري أنَّه من رامهرمز، ومن رواية: ولدت برامهرمز وبها نشأت، وأمَّا أبي فمن أصبهان..

وكان أبوه مجوسياً له فيها قدم، حتى صار دهقان<sup>(٣)</sup> قريته، وجعل

---

(١) راجع: الروض الأنف ج ١ ص ٢٤٧، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٣٠٣ والسيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٩٦.

(٢) بفتح الجيم وتشديد الياء.

(٣) كبير أهل القرية.

ابنه يجتهد في المجوسية حتى كان قطن<sup>(١)</sup> النار .

وذات يوم أرسله والده إلى ضيعة له يتولى شؤونها، فمرّ بكنيسة وسمع أصوات المصلّين بها فأعجبته صلاتهم وقال:

هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه .

ثم عاد إلى أبيه عشاء دون أن يعمل شيئاً في الضيعة، وقصّ عليه ما حدث، فخاف الرجل على ولده أن يترك دين آبائه فجعل في رجله قيداً وحبسه في بيته .

لكن العقل الباحث عن الحقيقة يرفض القيد حسياً كان أو معنوياً، ويتحرّج الفرص ويذهب مع وفد من أهل الشام يسأل عن أفضل أهل هذا الدين علماً . .

فدلّوه على أسقف في كنيسة، فجاءه يتعلم منه ويصلي معه، ويشاء الله أن يكون هذا الأسقف ممن أشار إليهم القرآن الكريم في قوله: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصَدِّدُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup>.

يقول سلمان:

«فدخلت معه، فكان رجل سوء، يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا له شيئاً كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق؛ وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع . .» ويموت هذا الراهب، ويخلفه آخر على النقيض منه، زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة دائماً في العبادة، ويظل معه سلمان ويحبه حباً شديداً، ويقيم معه زمناً حتى حضرته الوفاة، فاستشار سلمان فيمن يقيم معه بعده فقال الراهب:

---

(١) يفتح القاف وكسر الطاء - الخادم الذي يوقدها.

(٢) سورة التوبة آية ٣٤.

أي بني، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه.. لقد هلك الناس وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان، وهو على ما كنت عليه فالحق به.

واصل سلمان مسيرته في البحث عن الحقيقة فلقي صاحب الموصل وأقام معه فترة حتى حضرته الوفاة، فاستشار سلمان بمن يلحق بعده، فأوصى به إلى رجل من نصيبين.

ذهب سلمان إلى نصيبين فوجد صاحبه خير رجل، وما لبث أن نزل به الموت فأوصى به إلى رجل بعمورية من أرض الروم، وأقام عنده سلمان واستقر به المقام واكتسب بقرات وغنماً يرعى بها..

ومرة أخرى نزل بالرجل أمر الله فسأله سلمان:

إلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟.

قال صاحب عمورية:

أي بني، والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنّا عليه من الناس أمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظّل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجرة إلى أرض بين حَرَّتَيْن، بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة..

فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل..!!

ومات الرجل، ومكث سلمان بعمورية ما شاء الله أن يمكث، ثم مرّ به نفر من تجار العرب فقال لهم احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنمي هذه..

وحمله التجار حتى إذا بلغوا وادي القرى<sup>(١)</sup> ظلّموه فباعوه عبداً لرجل

---

(١) مكان قريب من المدينة.

يهودي، ويشاء الله أن يأتي ابن عم لذلك اليهودي من بني قريظة فيبتاع سلمان منه ويحمله إلى يثرب . .

يقول سلمان:

فوالله ما هو إلا أن رأيته فعرفتها بصفة صاحبي لها، فأقمت بها، وبُعث رسول الله ﷺ، فأقام بمكة ما أقام ولا أسمع له بذكر ممّا أنا فيه من شغل الرّق، ثم هاجر إلى المدينة.

فوالله إنني لفي رأس عذق<sup>(١)</sup> لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس تحتي إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه وقال:

يا فلان قاتل الله بني قيلة<sup>(٢)</sup>، والله إنهم لمجتمعون الآن بقباء على رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي . . !!

فلما سمعتها أخذتني الرعدة، حتى ظننت أنني ساقط على سيدي فنزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟

فغضب سيدي فلكنني لكمة شديدة ثم قال:  
ما لك ولهذا؟! أقبل على عملك . .

هنا تبدأ مرحلة تحقيق وتثبت في حياة سلمان الدينية، ويراوده الأمل في قرب الوصول، ويحاول أن يستكشف الوصايا الثلاث التي حملها عن أسقف عمورية . .

يقول سلمان:

«وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلمّا أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء، فدخلت عليه فقلت له:

---

(١) النخلة.

(٢) الأنصار نسبة إلى أهم قيلة بنت كاهل.

إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم.. فقربته إليه..

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: كلوا، وأمسك يده فلم يأكل.

فقلت في نفسي: هذه واحدة..!! ثم انصرف عنه فجمعت شيئاً وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئته فقلت له:

إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها.

فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه.

فقلت في نفسي: هاتان ثنتان..!!

ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببيع الغرق، قد تبع جنازة رجل من أصحابه، وعليه شملتان، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدبرته أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم<sup>(١)</sup> الذي وصف لي صاحبي؟!.

فلما رأي رسول الله ﷺ استدبرته عرف أنني أسست في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكبت عليه أقبله وأبكي..

فقال لي رسول الله ﷺ: تحول.

فتحولت بين يديه فقصصت عليه حديثي...».

---

(١) ذكر الإمام السهيلي مجموعة روايات في خاتم النبوة منها أنه كان كأثر المحجم يعني أثر المحجمة القابضة على اللحم حتى يكون ناتئاً، وفي الخبر أنه كان حوله خيلان فيها شعرات سود، وقيل كالتفاحة أو بيضة الحمامة أو ركة العنز، ويقع الخاتم بين كتفي النبي ﷺ عند أعلى منقطع الغضروف في الكتف والروض الأنف ج ١ ص ٢٠٦.



شغل سلمان الرقُّ حتى فاته مع الرسول الكريم بدر وأحد..  
ما الحلَّ إذن؟.

كيف يتخلَّص من الرق ويخلص للإسلام ويصفو قلبه من هموم  
الحياة المادية؟.

أشار عليه النبي ﷺ أن يكاتب سيده، فكاتبه على ثلاثمائة نخلة  
يغرسها له وأربعين أوقية من ذهب..

وشارك المسلمون في أداء هذا الدِّين عن سلمان، فأحضروا له  
النخل وحفروا معه أماكنها، وقدم رسول الله ﷺ ووضعه بيده الشريفة، وعتق  
سلمان وكانت أول مَشاهد غزوة الأحزاب، وأشار على المسلمين بحفر  
الخندق حول المدينة، وحين قسم الرسول ﷺ حفر الخندق بين الصحابة  
قال الأنصار: سلمان منّا، وقال المهاجرون: سلمان منّا..

فقال عليه الصلاة والسلام: سلمان منّا أهل البيت..!!  
وآخى الرسول بينه وبين أبي الدرداء.. وسئل سلمان يوماً عن نسبه  
فقال: أنا سلمان بن الإسلام..!! ولذا وُصف بأنه سلمان الخير..  
وجهور الباحثين وأهل السِّير على أنه عاش مائتين وخمسين سنة،  
ولاه عمر بن الخطاب العراق، فكان لا يأكل إلّا من عمل يده..  
ومات رضي الله عنه بالمدائن سنة ست وثلاثين من الهجرة..  
زيد بن سَعْنَة: (١)

أحد أجبّار اليهود، أسلم وحسن إسلامه، وشهد مع النبي ﷺ مَشاهد  
كثيرة كان آخرها غزوة تبوك، تلك الغزوة التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ  
تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ

---

(١) بضم السين وفتح النون، وجاء في بعض الروايات «سَعْيَة» بفتح السين وبالياء بدل  
النون، وفي كليهما بسكون العين.

مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾.

وإشَاء الله أن يموت زيد أثناء العودة إلى المدينة..  
وفي قصة إسلامه نلاحظ تتبّعه للبشارات، وتعبّبه لها في شخصية الرسول، ومحاولته التحقق من صدقها جميعاً..

ويحكى زيد فيقول:  
لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه محمد حين نظرت إليه إلا اثنين لم أخبرهما منه:  
- سبق حلمه غضبه.

- ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلاًماً.

فكنت أتلطف له لأن أخالطه وأعرف حلمه وجهله، فخرج رسول الله ﷺ يوماً من الأيام من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب، فأثاه رجل على راحلته كالبدوي فقال:

يا رسول الله إنّ قربة بني فلان قد أسلموا وقد أصابتهم سنة وشدة، فإن رأيت أنّه ترسل إليهم بشيء تصيبهم به فعلت.

فلم يكن معه شيء...!!

قال زيد: فدنوت منه فقلت له: يا محمد، إن رأيت أن تبيعني تمرّاً معلوماً من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا..

فقال: لا يا أخا يهود، ولكن أبيعك تمرّاً معلوماً إلى أجل كذا وكذا، ولا أسمّي حائط بني فلان.

فقلت: نعم.

---

(١) سورة التوبة آية ١١٧.

فبايعني وأعطيتُهُ ثمانين ديناراً، فأعطاهما الرجلُ ..!!  
قال زيد:

فلَمَّا كان قبل محلِّ الأجل بيومين أو ثلاث خرج رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ومعه أبو بكر وعمر وعثمان في نفر من أصحابه، فلَمَّا صَلَّى على الجنازة أتيتُهُ فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ ثم قلت:

ألا تعطيني يا محمد حقِّي؟! فوالله ما علمتكم يا بني عبد المطلب لسيء القضاء مطل ..!!

فنظرت إلى عمر وعيناه تدوران في وجهه ثم قال:  
أي عدو الله أتقول لرسول الله ما أسمع، فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك ..!!

ورسول الله ينظر إلى عمر في سكوت وتبسّم ثم قال:  
يا عمر أنا وهو إلى غير هذا منك أحوج، أن تأمره بحسن الاقتضاء وتأمرني بحسن القضاء ..!!

اذهب يا عمر فاقضه حقّه وزده عشرين صاعاً مكان ما روّعته ..!!  
قال زيد:

فذهب بي عمر فقضاني وزادني .. فأسلمتُ<sup>(١)</sup>.  
نحن هنا أمام موقف جديد، فإذا كان ابن سلام أسلم تصديقاً بأنّ محمداً أمّي لا علم له بالكتاب الأول حين سأله عن أمور غيبية لا تعلم إلّا سمعاً، فإنّ زيدا هذا أسلم تصديقاً بالخلق العظيم للنبي الأمّي، والملاحظ على كلا الموقفين أنّهما مرّاً بتجربة عملية واستقراء لملامح الشخصية، واحتكاك مباشر بصاحب الدعوة حتى تتجلّى الصورة واضحة بلا خفاء، فإنّ المعاملة هي محك الخلق ..

---

(١) أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٣١ وقال عن هذا الحديث أخرجه الثلاثة ..

وبعد - فهذه نماذج للباحثين عن الحق، الذين جمعوا بين العلم والإيمان ببيانات وصّى بها الأنبياء، واستحفظوها الأحبار والرهبان، فمنهم من آمن ومنهم من كفر..

وكان هؤلاء الأوفياء حجة على المكذّبين الذين آثروا متاع الحياة الرخيصة، ورضوا بأن يظلّوا سدنة الباطل وأعداء الحق..

﴿ويقولُ الذينَ كفَرُوا لستَ مر سلاً، قلْ كفى بِاللّهِ شَهِيداً بَينِي وَبَينَكُم وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفْرُتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ عَلَى مِثْلِهِ، فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

\* \*

\*

---

(١) سورة الرعد آية ٤٣.

(٢) سورة الأحقاف آية ١٠.

# الباب الثالث

## الضرورة الإنسانية

أ - الدين :

- ١ - الوثنية .
- ٢ - المجوسية .
- ٣ - اليهودية .
- ٤ - النصرانية .

ب - الأخلاق :

- ١ - نكاح الجاهلية .
- ٢ - وأد الأولاد .
- ٣ - قانون الغاب .
- ٤ - كلمة توضيح .



## الدين

ما الإنسان في حقيقته؟!

وما الإنسان في رسالته؟!

إن الإنسان ليس مادة فحسب، وليس بالخبز وحده يعيش الإنسان..

إن هناك عقلاً ومشاعر وأحاسيس تمثل حقيقة الإنسان، وتمايز بينه وبين سائر فصائل الحيوان..

وإذا أغفلنا هذا الجانب الرئيسي فلن نجد الإنسان، وإنما سنرى قطيعاً من الأحياء يحكمه قانون الغاب، ويحدد مساره المأكل والمشرب والشهوة.

إن السعادة هي أقصى آمال الإنسان العاقل، وهي قمة الفضائل الإنسانية.. فهل ناطحات السحاب والتكنولوجيا وأبحاث الفضاء تهب النفس الإنسانية السعادة والاستقرار؟!

وهل الإنسان الآلي والأدوات الكهربائية الحديثة أضفت على البيوت هدوءها، ومكنت أهلها من راحة البال وانشراح الفؤاد؟!

وهل وسائل الإعلام المسموعة والمرئية مكنت العقل الإنساني العام من النضج والوعي وسلامة التفكير؟!

إن الواقع المرير أن الإنسان سلب عقله وغاب وعيه، وأن الضمير

الإنساني ناله سكون الموتى، وأن مشاعر الإنسان أضحت كصخر الجبال، وأن آمال الإنسان تقوقعت وانحصرت في المآكل والمشارب والشهوات المادية الرخيصة..

وضاعت قيم الحياة..!!  
ما أريد أن أحُدِّده وأؤكدده هو:

أن الحياة في حاجة ماسة إلى الإيمان بالله، واكتساب العقيدة الصحيحة، التي هي ميزان السلوك والأخلاق، ومعيار الاستقامة، ونقطة البدء لسعادة الفرد وأمن المجتمع..

فهل توافر للناس صحة الإيمان وصدق اليقين في مذهب أو نحلة أو دين قبيل البعثة المحمدية؟!..

إنَّ استقراء الواقع التاريخي يرفض بإصرار واقتناع أن يجيب:  
نعم..

وهذه هي الأسباب..

#### ١ - الوثنية:

عاش إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام في أم القرى، وتلقى رسالة ربه، وبلغها أهل مكة ومن حولها.. قال تعالى:  
﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ، إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ، وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا، وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾<sup>(١)</sup>.

وطبيعة الحياة التغير وعدم الثبات على شيء، ويعتري العقائد ما يعتري الأجسام من ضمور وفساد، فمع تباعد الزمن، وتطاول العهد؛ أحدث العرب في دين الله ما لم يأذن به، وانحرفت بهم الأهواء وأغرتهم

---

(١) سورة مريم، آية: ٥٤، ٥٥.



الشياطين فعبدوا غير الله وأشركوا معه ما لا ينفعهم ولا يضرهم وما ليس لهم به علم..

وتتعدد الروايات في نشأة الوثنية في جزيرة العرب..

ويسوق ابن هشام رواية تفيد أن عمرو بن لحي الخزاعي قدم الشام فرآهم يعبدون الأصنام<sup>(١)</sup> فقال لهم:

ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟!!

قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا.

فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟!!

فأعطوه صنماً يقال له «هبل»، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

وهناك تعليل آخر لتلك النشأة قد يكون أقرب إلى طبائع الأشياء وتعاقب الحوادث، فيسوق ابن إسحق رواية تفيد أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم، حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد؛ إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنا

---

(١) الصنم في المعاجم وتفسير القرآن هو ما اتخذ إلهاً من دون الله، ويفرق بوجه عام بين كلمة صنم وكلمة وثن بأن الصنم ما كان له جسم وهو يصنع من الحجر أو الخشب أو المعدن، في حين أن الوثن يكاد يرادف الصورة أو الرسم.

وتزيد المعاجم العربية بأن صنم كلمة أعجمية الأصل، مشتقة من كلمة شنم، ولكنها لا تعرف اللغة التي اشتقت منها هذه الكلمة. ويذهب علماء اللغة الأوروبيون إلى أنها من حيث الاشتقاق هي عين الكلمة العبرية صلم أي الصورة أو التمثال. «من دائرة المعارف الإسلامية ح ١٤ ص ٣٥٦».

من الحجارة وأعجبهم، حتى خلف الخلوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من الضلالات..»<sup>(١)</sup>.

وتعددت المناسبات وتوالى الأسباب حتى صار لكل قبيلة صنم أو أصنام، وبلغ عدد الأصنام التي أحاطت بالكعبة ستين وثلاثمائة..

ووصل التنافس في عبادة الأصنام حدًّا جعلهم يتخذون بيوتاً تحظى بالتعظيم كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، ويفعل عندما ما يفعل عند الكعبة من الهدي والطواف.

وبلغت المهانة الدينية مبلغاً جعل العقل الجاهلي يصنع الصنم فيعبده وانقلبت الحقيقة وأصبح العابد يخلق المعبود..

ويعمل الإنسان الجاهلي الصنم من العجوة يبتهل إليه ملتمساً الرزق والعطاء ثم يؤلمه الجوع فيأكل معبوده أكلاً لمًّا..

بل هناك صورة مؤلمة حقاً.. لقد ذهب أحدهم إلى صنم يقال له «سواع» فألقى عنده ثعلبين يلحسان ما حوله، ويأكلان ما يهدى إليه، ثم يبولان عليه.. فأنشد قائلاً

أربُّ يبولُ الثعلبانِ برأسِهِ      لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ  
إن هذه الوثنية الجاهلية تبلورت في أمور كثيرة، أهمها:

- الاعتقاد بأن هذه الأصنام شفعاء عند الله أو تقربهم منه سبحانه، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى فقال:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ؟!

---

(١) راجع الروض الأنف ج ١ ص ١٠١.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴿(١)﴾.

وقال جلَّ شأنه ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...﴾﴿(٢)﴾.

- إنكار البعث والسؤال والحساب لدى بعض العرب مع اعتقادهم بوجود الله سبحانه، وتلك هي قضية التناقض الرئيسية في العقيدة..

وحكى القرآن هذا المعنى في أكثر من سورة فقال:  
﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعُثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ، بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾﴿(٣)﴾.

- إلغاء العقل المفكر في الدين، وبناء أمر الإيمان على التقليد الأعمى والانسياق المجرد..

ونبه القرآن إلى هذا الاتجاه الخاطيء فقال:  
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾﴿(٤)﴾.

- الالتجاء إلى الأوهام والخرافات، وملء حياة الناس بما يفسد إنسانية المرء ويسلبه خصائص البشرية السوية، مثل السحر والكهانة والعرافة والتنجيم والتطير..

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنَّ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾﴿(٥)﴾.

(١) سورة يونس، آية: ١٨.

(٢) سورة الزمر، آية: ٣.

(٣) سورة النحل، آية: ٣٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٧٠.

(٥) سورة الجن، آية: ٦.

هذا ولم تكن الوثنية وفقاً على جزيرة العرب بل وجدت في العراق والشام ومصر واليونان وكثير من أرجاء العالم القديم، ويعتبر سيدنا نوح عليه السلام أول رسول يواجه عبادة الأصنام في البشرية..

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَاراً وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسراً..﴾<sup>(١)</sup>.

ويقال إن هذه الأصنام كانت في بدء أمرها تماثيل لرجال صالحين تخليداً لذكراهم، فلما تقادم العهد عُبدت من دون الله..

وتوالت الرسائل الإلهية توظف العقل الإنساني، وتنتهى عن عبادة الأصنام وتأمر بعبادة الله الواحد الديان.. وكان لإبراهيم الخليل عليه السلام مواقف خالدة مع أبيه وقومه سجّلها القرآن العظيم في أكثر من موضع، ومن خلال حوار إبراهيم مع قومه في سورة الأنبياء يتضح مدى الانحراف العقدي والتخلف العقلي..

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

فالنبوة رشد عقلي، وفطنة، وعصمة، وكفاية إلهية للمصطفين الأخيار، وإبراهيم عليه السلام أوتي الحجة على قومه:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ؟! قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ.

قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلالٍ مبينٍ﴾.

وهكذا فليس للوثنية سند وحجة إلا تقليد الآباء عصبيةً وحميةً جاهلية..

(١) سورة نوح، آية: ٢١، ٢٣.

(٢) الأنبياء، آية: ٥١-٧٠.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ؟﴾  
قال بلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ  
من الشَّاهِدِينَ.﴾

وهنا موقف المقارنة والمقابلة، فالله تعالى هو فاطر الكون والكائنات  
ومبدع الوجود ومانح الخير كله.. فماذا تملك الأصنام من أمر نفسها أو من  
أمر غيرها؟!!

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا  
كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

وهذا موقف تغيير المنكر في أسمى مراتبه بعد بيان الحجة ووضوح  
الدليل..

﴿قَالُوا: مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا؟ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ، قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى  
يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ، قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى أَغْيَنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ  
يُشْهَدُونَ﴾.

وهذا هو رد الفعل في أول صده.. إنكار لتلك الجريمة في نظرهم  
وتشنيع على الفاعل وبحث عن الجاني!!

﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟﴾

قال: بلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ، فَارْجِعُوا إِلَى  
أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا: إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ، ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ  
مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾.

في ساحة المحاكمة، وعلى رؤوس الأشهاد يجري هذا الحوار،  
وتقام هذه الحجة الدامغة التي تلفتهم إلى مواطن الخطأ والخطيئة في  
عقيدة الوثنية..

لماذا يوجه السؤال إلى إبراهيم ولا يوجه إلى كبير الأصنام؟!

وكيف تتحطم الآلهة المزعومة وهي التي تتخذ ملجأً ومنجى؟!  
أيهما أقوى سلطاناً العابد أم المعبود؟!

إن الصنم أصمّ، أعمى، أبكم، ولا يغني شيئاً، لكن الإنسان يسمع  
ويبصر ويتكلم وينحت التماثيل.. فأيهما أسمى من الآخر وأعلى؟!  
﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ؟!﴾  
أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون؟! ﴿

هنا لا مفر من أحد أمرين، الاقتناع أو المكابرة.. لكن القوم أبوا  
منطق العقل وعدلوا إلى البطش والتنكيل شأن كل الجهلاء المتكبرين..  
﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

وما كان الله ليدع رسوله، فلقد نصره نصراً مؤزراً، وأظهر حجته  
البالغة وآيته الكبرى..

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُم  
الْأَخْسَرِينَ..﴾.

### المجوسية:

يرى المسلمون أن المجوس ممن لهم شبه كتاب منزل بناء على  
أنهم من بقايا أتباع إبراهيم عليه السلام ثم حرقوا وبدلوا..

والمجوس يعظمون النار وينيون لها المعابد اعتقاداً منهم أن عبادتهم  
لها في الدنيا تنجيهم من عذابها في الآخرة، وتعظيماً لها لأنها صارت برداً  
وسلاماً على إبراهيم..

وكانت المجوسية منتشرة في فارس والهند والصين، وتقوم عقيدتهم  
على الإيمان بأصلين هما النور والظلمة، وهما بالفارسية: يزدان،  
وأهرمن.

واختلفوا حولهما اختلافات كثيرة.. فذهب بعضهم إلى أن يزدان أزلي قديم، وأهرمن محدث مخلوق، وقد جرت بينهما حرب ضروس انتهت بالصلح على أن يكون العالم السفلي خالصاً لأهرمن سبعة آلاف سنة ثم يخلي العالم ويسلمه إلى يزدان.

وهناك من يعتقد أن النور والظلمة أزليان قديمان، يتساويان في القديم ويختلفان في الجوهر والفعل والحيز والأجناس والأبدان والأرواح.. وساق الإمام الشهرستاني جدولاً يبين فيه تلك الفروق لدى طائفة المانوية، نقتطف منه ما يلي<sup>(١)</sup>:

### الظلمة

### النور

١- الجواهر: حسن، فاضل، كريم، صاف، نقي، طيب الريح، حسن المنظر.  
قبيح، ناقص، لثيم، كدر، خبيث، متن الریح، قبيح المنظر.

٢- النفس: خيرة، كريمة، حكيمة، نافعة، عالمة.  
شريرة، لثيمة، سفيهة، ضارة، جاهلة.

٣- الفعل: الخير والصلاح والنفع والسرور والترتيب والنظام والإتقان.  
الشر والفساد والضرر والغم والتشويش والتبوير والاختلاف.

٤- الحيز: جهة فوق، وأكثرهم على أنه مرتفع من ناحية الشمال، وزعم بعضهم أنه بجنب النور.  
جهة تحت، وأكثرهم على أنها منخفضة من ناحية الجنوب، وزعم بعضهم أنها بجنب النور.

٥- الأجناس: خمسة، أربعة منها أبدان، والخامس روحه، فالأبدان هي النار والنور والريح والماء، وروحها النسيم، خمسة، أربعة منها أبدان والخامس أرواحها، فالأبدان هي الحريق والظلمة والسموم والضباب، وروحها الدخان وهي تتحرك في هذه الأبدان.  
وتدعى الهامة وهي تتحرك في هذه الأبدان.

٦- الصفات: حيّة، خيرة، طاهرة، ميتة، شريرة، نجسة، دنسة، وقال بعضهم  
(١) الملل والنحل تحقيق محمد سيد كيلاني ح ١ ص ٢٤٤.

زكية، وقال بعضهم كون النور لم يزل على مثال هذا العالم، له أرض وجو، فأرض النور لم تزل لطيفة على غير صورة هذه الأرض، بل هي على صورة جرم الشمس، وشعاعها كشعاع الشمس، ورائحتها أطيب رائحة، وألوانها ألوان قوس قزح<sup>(١)</sup>.

وأياً ما كان فإن أساطير المجوسية حول الإله، والشيطان، والأجرام السماوية والعالم الأرضي وما يجري في نظام الكون والكائنات لا يمكن بحال من الأحوال أن يستسيغها عاقل، وبالتالي فهي لا تمثل العقيدة الصحيحة التي تهب الأمن والأمان وتعلي من كرامة الإنسان..

وقد حرص القرآن المجيد على إثبات أن كل ما عدا الله فهو حادث...

ولعل في حوار إبراهيم عليه السلام مع الصابئة عبدة الكواكب ما يؤكد هذه الحقيقة.. قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا، قَالَ هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ.

فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ.

فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تُشْرِكُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) القوس برج في السماء، وقزح اسم ملك موكل بالسحاب أو اسم ملك من ملوك العجم، أضيف قوس إلى أحدهما - راجع ترتيب القاموس المحيط ح ٣.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٧٥ - ٧٨.



فقد تدرج بهم إبراهيم، وتنزل إليهم، وألزمهم الحجة، فهذه الكواكب تتغير وتغيّب، ويعتريها النقص والتمام، والصغر والكبر، والخسوف والكسوف.. فلا يعقل أن تكون آلهة!!

والحقيقة الكبرى والحجة البالغة التي تنطق بها كل ذرة في هذا الوجود أعلنها إبراهيم في قوله:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١).

كما أكد القرآن العظيم إسناد كافة الحوادث والأحداث إلى الله وحده، فقال جلّ شأنه:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ، تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢).

وخصّ الأسلوب القرآني النور والظلمة بالذكر في دخولها تحت القدرة الإلهية.. فقال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (٣).

ونص صراحة على أن مصدر النور والظلمة - وهو الشمس والقمر أو الليل والنهار - أثر من آثار رحمة الله بعباده فقال:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٤).

(١) سورة الأنعام، آية: ٧٩.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٢٦، ٢٧.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١.

(٤) سورة فصلت، آية: ٣٦.

## اليهودية :

اليهود - في الأصل - هم أتباع سيدنا موسى عليه السلام، وهو رسول من أولي العزم، اصطفاه الله وأيده بالمعجزات، وأنزل عليه التوراة هدىً ونوراً..

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾<sup>(١)</sup>.

وهذه الأمانة التي استحفظها الله الربانيين والأحبار؛ لم تحفظ بالاهتمام الواجب، ولم تلتق القلوب على أدائها والعمل بما فيها..

وتوالى على اليهود - بعد موسى - عصور تاريخية حالكة انقلبوا فيها رأساً على عقب..

فافتروا على الله الكذب..

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ..﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ: عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ..﴾<sup>(٤)</sup>.

وتفيض الكتب المقدسة لدى اليهود بوصف الله تعالى بما لا يليق، فهو سبحانه يقضي ليله في البكاء والنحيب على شعب بني إسرائيل الضائع، وهو سبحانه لما فرغ من خلق السموات والأرض استوى على عرشه مستلقياً على قفاه واضعاً إحدى رجله على الأخرى.. وقد صارعه يعقوب فصّره..

---

(١) سورة المائدة، آية: ٤٤.

(٢) سورة البقرة، آية: ٨٠.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٤.

(٤) سورة التوبة، آية: ٣٠.

تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وقتل اليهود الأنبياء وأهدروا عصمتهم؛ فإبراهيم عليه السلام في منطق التوراة المحرفة يرضى لنفسه العار ويسلم امرأته لفرعون مصر.

وداود عليه السلام يحتال على امرأة قائده ويرتكب معها الفاحشة ويرسل زوجها ليقتل في المعركة.

ولوط عليه السلام يحتال عليه ابنتاه ويسقيانه خمرًا ويضاجعانه ويحملان منه سفاحاً.

وسليمان عليه السلام يستهويه حب النساء حتى يعبد الأصنام إرضاء لهن.. ومن العجيب أن يتعبد اليهود بسفر يسمى نشيد الإنشاء، وهو تشبيب بالمرأة ووصف كامل لجسدها، وغزل فاضح يتنزه عنه الإنسان العادي، ومع ذلك ينسبونه لسليمان عليه السلام..

ويتوه الباحث بين ما يسمونه الناموس والأسفار والمكتوبات والتلمود، وقد توزع اليهود فرقاً في العقيدة وأشتاتاً في الوطن وتفرقوا أيدي سباً، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله..

وقد نكل بهم بختنصر عام ٥٨٦ ق. م، ودمر مدينة أورشليم وأحرق الهيكل وساقهم أسرى إلى بابل، فيما عرف تاريخياً بالأسر البابلي الشهير، وبه انتهى اليهود كدولة.

ثم حدث أن غزا الفرس أرض فلسطين، وسمح لهم القائد الفارسي «قورش» بالعودة إلى أورشليم وبناء الهيكل من جديد تحت السلطان الفارسي، فظلوا بها حتى دهمهم الغزو الروماني عام ٧٠ م فشردهم «تيطس» أحد أباطرة الرومان وأحرق مدينتهم وهدمهم ومزقهم كل ممزق، فانقلبوا هائمين على وجوههم في صحراء العرب وما جاورها من أمصار، وكان لهم في يثرب مأوى من تشرد.. ومكثوا بها زمناً لم يسلم أهل يثرب

من نشاطهم المخرب وفتنتهم الحارقة إلى أن جاء الإسلام وهاجر الرسول ﷺ وسطع نور الله على يثرب فأصبحت مدينة الرسول وحرَم الإسلام<sup>(١)</sup> ..

فخبروني أيّ عقيدة يمكن أن يكتسبها الإنسان من اليهودية؟! وأيّ سكيّنة نفسية يمنحها اليهود للإنسان؟!

إنهم يرفضون أن يتهود البشر ويعتبرون عقيدتهم حكراً عليهم، ولا يرضون للإنسان إلّا أن يكون ذليلاً لهم، خاضعاً لأهوائهم، مسلوب الإرادة أمام مخططاتهم.

النصرانية:

جاء سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام مصداقاً بالتوراة ومبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد.. . وجعل الله نشأته آية، وبارك عليه وعلى أمّه الصديقة واصطفّاها على نساء العالمين.. .

غير أن النصرانية التي وجدت قبيل البعثة المحمدية لم تكن بالدين الصحيح الذي جاهد عليه المسيح، واكتنفها الغموض، ودخلها التحريف، ومزقتها الصراعات.. .

ويدور أمر هذه النصرانية المحرّفة حول مجموعة اتجاهات رئيسية تحدد ما نقصده.. .

أولاً: هل المسيح إنسان أم إله؟!

---

(١) من الدراسات حول هذا الموضوع:

أ- إظهار الحق للعلامة رحمه الله الهندي.

ب- الأسفار المقدسة قبل الإسلام - د. علي عبد الواحد وافي.

ج- اليهودية - د. أحمد شلبي.

د- مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام د. عوض الله حجازي.

اختلف النصارى حول طبيعة المسيح اختلافات وبيلة، ويصدم العقل البشري بمفاهيم وتعبيرات تسلبه التفكير السليم، مثل الاتحاد والتجسد، والأقنوم والكلمة، واللاهوت والناسوت، والأب والابن وروح القدس إله واحد..

وانعقد مجمع نيقية عام ٣٢٥ م ليقرر هذه الطلاسم:

«نؤمن بالله الواحد، الآب، مالك كل شيء، وصانع ما يُرى وما لا يُرى، وبالابن الواحد يسوع المسيح، ابن الله الواحد، بكر الخلاق كلها، الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيء من أجلنا، ومن أجل معشر الناس، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، وصار إنساناً، وحبل به، وولد من مريم البتول، وقتل وصلب أيام فيلاطوس، ودفن ثم قام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه، وهو مسند للمجيء تارة أخرى بين الأموات والأحياء.

ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا..»<sup>(١)</sup>.

ثانياً: أين إنجيل عيسى عليه السلام الذي أنزله الله وحيّاً؟!

إن العهد الجديد لدى النصارى كله قائم على تأليفات بشرية، وباعترافهم جميعاً ليست إنجيل عيسى، وإنما هي إنجيل متّى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا..

وبعض هؤلاء لم ير المسيح، فلوقا تلميذ بولس، ذلك اليهودي الذي أفسد على النصارى دينهم.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ح ١ ص ٢٢٣ ط دار المعرفة - بيروت.

وهناك شك كبير لدى الباحثين في أن كاتب إنجيل يوحنا من تلاميذ المسيح . .

وأياً ما كان فإن هذه الأناجيل كلها قائمة على زعم فاسد وأدعاء باطل هو الإلهام والتلقي عن الله بعد انتقال المسيح .

ويضاف إلى هذه الأناجيل ما يسمى بأعمال الرسل، وهي رسائل حول قصة المسيح ومبادئه، وجميعها أوهام تلقاها أصحابها عن طريق الرؤى وأضغاث الأحلام . .

ثالثاً: إن الخطيئة الأولى وعقدة الذنب، والصلب والفداء عقائد غير معقولة معنئ، وغير واقعة أصلاً .

فهم يزعمون أن خطيئة آدم عليه السلام تلاحق البشر، وأن الإله حل في مريم، وتجسد في عيسى، وُصِّلَ تكفيراً للخطيئة . .

والحق أن آدم عليه السلام لم يرتكب خطيئة وإنما نسي أو تأوَّل ثم تلقى كلمات من ربه فتاب عليه، وهبط آدم إلى الأرض طاهراً مجتنباً، ونبياً رسولاً، وخليفةً يعمر الأرض . .

وعلى فرض الخطيئة - وقد نفرض المستحيل - هل الذنب يورث؟! وهل يتحمل الأبناء وزر آبائهم؟!

ولو سلّمنا جدلاً هذا الإرث الظالم، فما السبيل إلى مغفرة الذنب؟! ألا يكفي أن يقول الإله: غفرتُ لكم، طالما كانت تلك مشيئته؟! وما الحكمة وراء هذه المناورات من التجسد والحلول والصلب...؟! . .

ولو قبلنا هذه التمثيلية على علاقتها بما علاقة اليهود بتلك المسألة الإلهية المحضة؟! . .

وهل صلب المسيح باختياره الحر أم قهراً عنه؟!

وإذا كانت عقيدة النصارى أن اليهود اقتادوه وقدموه للحاكم الظالم ليقتله ويصلبه فأى تكفير فى هذا لخطايا البشر؟!

ألم يكن من المتصور أن يذهب المسيح ويتحر فداء للبشر؟!

ولو انتهينا إلى تسليم كل هذه الافتراءات والتخيلات الكهنوتية أليس من عرفان الجميل أن يُشكر اليهود على فعلتهم هذه فى تخليص البشر من ملاحقة شبح الخطيئة الأولى؟!

تساؤلات يطرحها العقل ويصاب حيالها الكهنوت الكنسي بصمت الموتى...!!

وبعد - فإن هناك ضرورة إنسانية كبرى تلح على ظهور نبي جديد يصون للإله قدسيته، ويحفظ للإنسان وعيه وفكره، وينقذ البشرية من ضلالها الآثم وتصوراتها الخاطئة عن الله والملائ الأعلى..

وما كان ذلك النبي إلا محمد بن عبد الله ﷺ، الذي تحمل عبء هذا النداء الإلهي:

﴿فَإِنْ حَاجَّكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِينَ أَسْلَمْتُمْ؟﴾  
فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولَّوا فإنما عليك البلاغ، والله بصيرٌ بالعباد<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٢١.





## الأخلاق

إن الإنسانية في حقيقة أمرها تجمع أخلاقي يرتبط بالإرادة الحرة التي يكون على أساسها التكليف والمسؤولية..

لكن ما المقياس الأخلاقي؟!

إن القوانين مهما أحكمت لا تستطيع أن تسيطر على قوى الإنسان الداخلية، ثم إن القانون يحتاج إلى من يقوم على حمايته وعلى أمر تنفيذه، وهذا الحارس للقانون إنما هو إنسان يحتاج إلى من يحرسه أيضاً لأنه لن يكون معصوماً..

إن الإيمان وحده هو الذي يتولى تأصيل القيم والمبادئ داخل النفس الإنسانية..

وإن النفس المؤمنة تسارع إلى الخير بمقتضى فطرتها، أما النفس الملحدة فتساق من ظاهرها برهبة السُّوط وعين القانون.. ومتى أخطأ السوط أو غفل القانون فهناك مجالات رحبة من فوضى الأخلاق وسريان قانون الغاب..

وتؤكد أيضاً الضرورة الأخلاقية للإيمان لتصحيح مسار العلاقات الاجتماعية كي تنمو على أساس المحبة لله والمحبة في الله.. ذلك المبدأ الذي يتسامى على أهواء النفس ودنایا المادة، فتنزوي الأحقاد، وتنبأ

الخصومات، ويعيش الناس عباد الله إخواناً<sup>(١)</sup>.

ومتى أدركنا أن الملل والنحل التي سادت العالم قبيل البعثة المحمدية قد أهدرت كرامة الإنسان، وضيعت معالم الخلافة التي منحها الله له، وسلبته وعيه الحضاري، فماذا تكون أخلاق الناس يومئذ؟! إن الفساد العقدي لا ينجم عنه إلا فساد خلقي، فأخلاق المرء على قدر دينه..

ويمكن تصور مدى هذا الفساد الخلقي من الواقع الجاهلي في المنطقة العربية كنموذج لما ساد بقية العالم..

وهذه لمحات عن هذا الواقع الأليم..

#### ١ - نكاح الجاهلية:

علاقة الرجل بالمرأة هي محور أخلاق الناس، فإذا سمت هذه العلاقة وأُتِّسَمَت بالرشد، وقامت على العفاف الشريف كانت أخلاق الناس حسنة..

وإذا شاعت هذه العلاقة بلا تنظيم، وأهدرت قيم الأعراض؛ ساءت أخلاق الناس، وضاعت معالم حياتهم الإنسانية..

وقد حدثتنا السيدة عائشة زوج النبي ﷺ - كما في صحيح البخاري - أن نكاح الجاهلية كان على أربعة أنحاء:

فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليّته أو ابنته فيصدقها<sup>(٢)</sup> ثم ينكها..

---

(١) راجع «الإيمان ضرورة أخلاقية» ص ٥٧ من كتاب «دراسات في العقيدة الإسلامية والأخلاق» د. محمد المسير وآخرين ط ١٤٠٣ هـ.

(٢) يعين صداقها ويسمى مقداره.

ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها<sup>(١)</sup> أرسلني إلى فلان فاستبضي<sup>(٢)</sup> منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب.

وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد<sup>(٣)</sup>، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومراً عليها ليالي بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم:

قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان.. تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها.

ونكاح رابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا ودعوا لها القافة<sup>(٤)</sup>، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتا<sup>(٥)</sup> به، ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك.

ثم تقول السيدة عائشة:

---

(١) الطمث: الحيض.

(٢) البضع هو الفرج، والمباضعة هي المجامعة، واستبضي منه: اطلبي منه المجامعة.

(٣) كانوا يفعلون ذلك مع رؤسائهم وأكابرهم ليكتسب أبناءهم الشرف منهم، وهو أشبه بما يعرف الآن بينك الأجنة...!!

(٤) جمع القائف: وهو الذي يلحق الولد بالوالد بالآثار.

(٥) التصق به.

فلما بُعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم» .

هذا ولو تأملنا نكاح الخطبة والعقد الواقع في الجاهلية نجد أنه كان محفوظاً بمزالق أخلاقية كثيرة، تعقبها القرآن المجيد..

من هذه الانحرافات زواج المحارم كزوجة الأب والجمع بين الأختين، وزوجة الابن، والمرأة وابنتها.. إلخ.

يقول الله تعالى :

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا، حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعُمَّاتُكُمْ، وَخَالَاتُكُمْ، وَبَنَاتُ الْأَخِ، وَبَنَاتُ الْأَخْتِ، وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ، وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرُّضَاعَةِ، وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ، وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ، وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ، وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾<sup>(١)</sup>.

وجاء في أسباب النزول أنه لما توفي أبو قيس بن الأسلت، وكان من صالحى الأنصار، خطب ابنه قيس امرأته، فقالت:

أنا أعدك ولداً، وأنت من صالحى قومك، ولكنى آتى رسول الله ﷺ.

فقالت:

إن أبا قيس توفي، وإن ابنه قيساً خطبني وهو من صالحى قومه، وإنما كنت أعدّه ولداً فما ترى؟!

(١) سورة النساء، آية: ٢٢، ٢٣.

فقال لها: ارجعي إلى بيتك، فنزلت ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾<sup>(١)</sup>.

بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فجعل امرأة الأب من أموال الميراث تُورث كما يورث المتاع، فإذا مات الرجل وترك امرأة ولا ولد لها جاء ابنه من غيرها أو وليه فألقى عليها ثوباً فإن شاء تزوّجها بالصدّاق الأول، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صدّاقها، وإن شاء منعها من الزواج..  
فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ..﴾<sup>(٢)</sup>.

### وَأَدِ الْأَوْلَادِ:

شاع بين العرب قتل الأولاد لأكثر من سبب، فبعضهم فعل ذلك خشية الإملاق ولم يفرق بين ذكر وأنثى.. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾<sup>(٣)</sup> فالولد في اللغة يطلق على الذكر والأنثى.

وتلاحظ أن البيان القرآني لفت أنظار الناس إلى حقيقة هامة هي أن الرزق بيد الله يؤتیه من يشاء، وأن رزق هؤلاء الأولاد مقدّم على رزق آبائهم، فالتناس إنما ييسر لهم الرزق بسبب من يعولونهم..

وبعض العرب - وهم ربيعة ومضر - قتلوا البنات حميّة وخوف العار، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي

(١) سورة النساء، آية ٢٢.

(٢) راجع الروايات وتخريجها في تفسير ابن كثير ح ١ ص ٤٦٥ ط دار المعرفة - بيروت والآية من سورة النساء، ١٩.

(٣) سورة الإسراء، آية: ٣١.

التراب، ألا ساء ما يحكمون ﴿١﴾.

فالرجل منهم إذا ولد له بنت اختفى من قومه مهموماً مكروباً حزيناً، ماذا يفعل؟ أيبقي على حياتها ويظل العار يلاحقه أم يدفنها في التراب وهي على قيد الحياة؟!.

وهنسي هذا الجاهلي أنه إنما جاء من امرأة، ويعيش مع امرأة..!!  
ومن العرب من قال إن الملائكة بنات الله وهم خزاعة وكنانة فوأدوا بناتهم ليلحقوا بنات الله..

قال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٢).  
وقال جلّ شأنه: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً، أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (٣).

ومنشأ الضلال في هذه الفرية أنهم نسبوا الولد لله تعالى وجعلوا هذا الولد من جنس ما يبرؤون منه وينفرون، ثم كان هذا الحكم سفاهة من غير علم ولا دليل.

ويرى الإمام الرازي أن العرب إنما أطلقوا لفظ البنات لأن الملائكة لما كانوا مستترين عن العيون أشبهوا النساء في الاستتار فأطلقوا عليهم لفظ البنات.

وأيضاً قرص الشمس يجري مجرى المستتر عن العيون بسبب ضوئه الباهر ونوره القاهر فأطلقوا عليه لفظ التأنيث» (٤).

ويبدو أن هناك اتجاهاً آخر في قتل الأولاد تمثل في النذر للأصنام

---

(١) سورة النحل، آية: ٥٨، ٥٩.

(٢) سورة النحل، آية: ٥٧.

(٣) سورة الزخرف، آية: ١٩.

(٤) التفسير الكبير، ص ٢٠، ص ٥٤.

وتقديمهم قرابين لها. . ويحمل على ذلك ما ورد من قصة عبد المطلب حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم، فنذر لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ليزبحن أحدهم عند الكعبة. .

وسبب ذلك<sup>(١)</sup>: أن عبد المطلب أمر في المنام بحفر زمزم، ووصف له موضعها، وكانت جرهم قد غلبت آل إسماعيل على مكة، وملكوها زماناً صويلاً، ثم أفسدوا في حرم الله.

فوقع بينهم وبين خزاعة حرب، وخزاعة من قبائل اليمن، من أهل سبأ، ولم يدخل بينهم بنو إسماعيل، فغلبتهم خزاعة، ونفت جرهماً من مكة.

وكانت جرهم قد دفنت الحجر الأسود والمقام وبئر زمزم، وظهر بعد ذلك قصي بن كلاب على مكة، ورجع إليه ميراث قريش، فأنزل بعضهم داخل مكة - وهم قريش الأباطح -، وبعضهم خارجها - وهم قريش الظواهر -، فبقيت زمزم مدفونة إلى عصر عبد المطلب.

فرأى في المنام موضعها فقام يحفر، فوجد فيها سيوفاً مدفونة وحلياً، وغزلاً من ذهب مشنفاً بالدر، فعلقه عبد المطلب على الكعبة، وليس مع عبد المطلب إلا ولده الحارث، فنازعتهم قريش، وقالوا له: أشركنا، فقال: ما أنا بفاعل، هذا أمر خُصصت به، فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه.

فنذر حينئذ عبد المطلب لئن آتاه الله عشرة أولاد وبلغوا أن يمنعوه، لينحرن أحدهم عند الكعبة.

فلما تموا عشرة، وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه، وكتب

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٦٠، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود.

كل واحد منهم اسمه في قدح، وأعطوها القداح قيم هبل، - وكان الذي يجيل القداح -.

فخرج القدح على عبدالله، وأخذ عبد المطلب المدينة ليذبحه، فقامت إليه قريش من نادية فمنعوه، فقال: كيف أصنع بنذري؟ فأشاروا عليه أن ينحر مكانه عشراً من الإبل، فأقرع بين عبدالله وبينها فوقعت القرعة عليه، فاغتم عبد المطلب، ثم لم يزل يزيد عشراً عشراً، ولا تقع القرعة إلا عليه، إلى أن بلغ مائة، فوقعت القرعة على الإبل، فنحرت عنه، فجرت سنة.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا ابن الذبيحين»<sup>(١)</sup> يعني إسماعيل عليه السلام وأباه عبدالله.

ثم ترك عبد المطلب الإبل لا يردّ عنها إنساناً ولا سبعاً، فجرت الدية في قريش والعرب مائة من الإبل وأقرها رسول الله ﷺ.

ومهما يكن من أمر فإن القرآن المجيد قد ذكر هذا الواقع الأليم للعرب وسفهمهم على قتل أولادهم.

وروي سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

---

(١) قال محققو الكتاب: الحديث رواه الحاكم في مستدركه بلفظ أن أعرابياً قال للنبي ﷺ: يا ابن الذبيحين كما في كشف الخفا عن المقاصد.

وأقول: وروي ابن جرير حديثاً غريباً فيه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال يا رسول الله عد عليّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله ﷺ، راجع هذا والآثار الواردة في الذبيح الأول في تفسير ابن كثير ج ٤، ص ١٧.



وساق الإمام القرطبي في تفسيره هذه الواقعة<sup>(١)</sup> :

روي أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ كان لا يزال مغتماً بين يدي رسول الله ﷺ .

فقال له رسول الله : مالك تكون محزوناً؟! .

فقال : يا رسول الله إني أذنبت ذنباً في الجاهلية فأخاف أن لا يغفره الله لي وإن أسلمت .!!

فقال له : أخبرني عن ذنبك .

فقال : يا رسول الله إني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لي بنت فتشفعت إليّ امرأتي أن أتركها، فتركها حتى كبرت وأدركت، وصارت من أجمل النساء، فخطبوها فدخلتني الحمية ولم يحتمل قلبي أن أزوجه أو أتركها في البيت بغير زوج . .

فقلت للمرأة :

إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثها معي .

فسرت بذلك وزيتها بالثياب والحلي ، وأخذت عليّ الموائيق بأن لا أخونها .

فذهبت بها إلى رأس بئر، فنظرت في البئر، ففطنت الجارية أنني أريد أن ألقها في البئر فالتزمتني وجعلت تبكي وتقول يا أبت أي شيء تريد أن تفعل بي . . ؟!

فرحمتها، ثم نظرت في البئر فدخلت عليّ الحمية، ثم التزمتني وجعلت تقول : يا أبت لا تضع أمانة أمني .!!

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج ٧، ص ٩٧ .

فجعلتُ مرة أنظر في البئر، ومرة أنظر إليها فأرحمها، حتى غلبني  
الشيطان، فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسةً، وهي تنادي في البئر:  
يا أبتِ قتلتي ..!!

فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت ..

فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه وقال:  
«لو أمرت أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك ..».

### قانون الغاب:

عاش العرب في جزيرتهم بلا قانون ولا شريعة إلا ما تمليه ظروف  
الزمان والمكان؛ ووقعت بينهم حروب ومنازعات أهلكت الحرث والنسل  
بلا سبب معقول ولا غاية نبيلة، وتسלט عليهم الأقوياء منهم غلبةً وقهراً ..

وتحدّث الروايات أن كليب بن ربيعة بلغ من بغيه أنه كان يحمي  
مواقع السحاب فلا يُرعى حماه، وإذا جلس لا يمر أحد بين يديه إجلالاً  
له، ولا يحتمي<sup>(١)</sup> أحد في مجلسه غيره، ولا يغير إلا بإذنه، ولا تورّد إبل  
أحد مع إبله، ولا توقد نار مع ناره، ولم يكن بكريّ ولا تغليبيّ يجير رجلاً  
ولا بغيراً، أو يحمي حمى إلا بأمره، وكان يجير على الدهر فلا تُخفر ذمته،  
وكان يقول:

وحش أرض كذا في جواري فلا يُهاج ..!!

وكان هو الذي يُنزل القوم منازلهم ويرحلهم، ولا ينزلون ولا يرحلون  
إلا بأمره ..

وقد بلغ من بغيه أن اتخذ جرو كلب فكان إذا نزل منزلاً به كلاً قذف  
ذلك الجرو فيه فيعوي، فلا يرعى أحد ذلك الكلاً إلا بإذنه.

---

(١) احتبى بالشوب اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها.

وكان يفعل هذا بحياض الماء فلا يردّها احد إلا يأذنه أو من آذن بحرب..

وكان يحمي الصيد فيقول: صيد ناحية كذا وكذا في جوارى فلا يصيد أحد منه شيئاً..

من أجل ذلك ضرب به المثل في العز فقيل:  
أعز من كليب وائل..!!

وكان هذا الطاغية سبباً في حرب أهلية استمرت أربعين عاماً بين بكر وتغلب ابني وائل، عرفت في التاريخ بحرب البسوس..!!

فقد تزوج كليب جلييلة بنت مرة، وذات يوم دخل عليها قائلاً:  
هل تعلمين على الأرض أمنع مني ذمة؟!.

فسكتت، فأعادها ثانية وثالثة فقالت:  
نعم أخي جسّاس..!!

فأسرّها في نفسه، ومضت مدة، وبينما هي تغسل رأسه وتسرحه قال لها: من أعزّ وائل؟!.

قالت: أخوأي جسّاس وهمّام..!!

فنزح رأسه من يدها وخرج، فرأى فصيل ناقة لخالتها البسوس فرماه بقوس وقتله، ثم مرت عليه إبل جسّاس وفيها ناقة البسوس فأنكرها وقال:  
ما هذه الناقة؟.

قيل له: لخاله جسّاس.

فقال: أو بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير عليّ بغير إذني؟!.

ارم ضرعها يا غلام.

فأخذ القوس ورمى ضرع الناقة فاختلط دمها بلبنها.

هنا بدأت عملية الثأر لذلك الفصيل وتلك الناقة..!!

فأغار جساس على كليب زوج أخته وطعنه برمح، وأثناء احتضاره طلب بعضاً من الماء، فنزل إليه عمرو ابن عم جساس وأجهز عليه..

فضرب به المثل القائل:

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار  
وتوالت الأحزان، وغرست الأحقاد، واقتل الفريقان قتالاً مريراً،  
أهلك الحرث والنسل..

وإذا انتقلنا إلى يثرب وفيها الأوس والخزرج نجد أن الحروب قد  
دمرتهم في الجاهلية، وكان من أشهر حروبهم حرب سمير، وحرب كعب،  
وحرب حاطب، ويوم بعث..

فحرب سُمير مثلاً نشبت لاختلافهم حول:

من أعز أهل يثرب؟!..

وذلك حين قدم رجل من غطفان معه فرس، ووقف في سوق بني  
قينقاع قائلاً: ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب..!!

فلما كثر الكلام أقبل الرجل ودفع الفرس إلى مالك بن العجلان  
الخزرجي.

وتحمس رجل حليف له فتعقبه سُمير بن يزيد الأوسي وقتله، وبدأت  
الحرب بين الأوس والخزرج..

إن العجب ليشثد بالإنسان العاقل حين يتصفح أسباب الحروب في  
الجاهلية..

إنها بدايات حقيرة ونهايات مؤلمة مروعة..!!

وقد نبه القرآن المجيد إلى ذلك في قوله تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١﴾.

وبلغ من عمق المأساة أن اخترعوا النسيء، وهو تأخير حرمة شهر المحرم إلى صفر، لحاجتهم إلى شتّ الغارات وطلب الثأر. . فما كادوا يصبرون عن القتال هذه الفترة الزمنية من ذي القعدة إلى المحرم، مع أن الله تعالى جعلها واحات أمن وأمان يفيء الناس إليها. .

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ، يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا، يُحْلَوْنَ عِامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عِامًا، لِيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ، زَيْنٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢).

لقد زين لهم الشيطان القتال في الأشهر الحرم، وعرف في تاريخ العرب حروب الفجار بين كنانة وقيس لأنهم فجروا فيها واستحلوا المحارم بينهم.

وأول فجار وقع في أحد مواسم الحج بعكاظ، حين جلس بدر بن معشر الغفاري، وجعل يتناول على الناس ويقول:

نحن بنو مدرك بن جندب من يطعنوا في عينه لا يَطْرَفِ  
ومن يكونوا قومه يُغَطَّرِفِ (٣) كأنهم لجة بحر مُسْدِفِ (٤)

ثم مد رجله وقال:

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٢) سورة التوبة، آية: ٣٧.

(٣) الغطريف والغطارف: السيد الشريف السخي.

(٤) المسدف: المظلم.

أنا أعز العرب، فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف...!!  
فوثب رجل من بني نصر بن معاوية فضربه بالسيف على ركبته  
فقطعها<sup>(١)</sup>..

\* \* \*

---

(١) لمعرفة تفاصيل هذه الحروب وغيرها يراجع كتاب «أيام العرب في الجاهلية» تأليف:  
محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجادي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم.

## كلمة توضيح

إن ما ذكرناه عن العرب في جاهليتهم ليس إلا مثلاً لما يجري في العالم أجمع ..

ففي فارس كان مزدك - كما يقول الشهرستاني<sup>(١)</sup> - ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال، أحلّ النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ ..

وفي الهند ساد نظام الطبقات الاجتماعية الشاذ، الذي قسم الناس إلى أربع طبقات:

- ١ - الكهنة وخلقوا من رأس براهيم.
- ٢ - الحراس والجنود ونشؤوا من ذراعيه.
- ٣ - أرباب الحرف والصناعة وتكونوا من ساقيه.
- ٤ - الأرقاء وخرجوا من قدميه.

وعلى الصعيد العالمي دارت الحرب سجالاً بين الفرس والروم، وشقي الناس بويلاتها، وتسلبت على الشعوب أكاسرة وقياصرة أذاقوهم الهوان ! وأصبح الناس بين حاكم طاغية وشعب مستضعف وعمّ العالم

---

(١) الملل والنحل جـ ١، ص ٢٤٩.

فساد أخلاقي، وظلم اجتماعي، واضطهاد ديني ..  
وأصدق وصف لحال العالم قبيل الإسلام ما جاء في القرآن  
المجيد ..

﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾<sup>(٢)</sup>.

فالظاهرة العامة تمثلت في هذه الاتجاهات المنحرفة، ولا ينفي ذلك  
أن هناك أضواءً خافتةً ظهرت في حياة هؤلاء البشر ..

فالحنفاء بحثوا عن الدين الصحيح، وعرفوا أن الحق وراء هذه  
الأصنام والأوثان، وأقسم قس بن ساعدة الإيادي:

أن لله ديناً هو أرضى من دينهم هذا .. !!

وهناك من أحمى المؤودة مثل زيد بن عمرو بن نفيل وصعصعة بن  
ناجية، ومنهم من أحب مكارم الأخلاق، حتى قال حاتم الطائي:

فلا الجود يفني المال قبل فنائه      ولا البخل في مال الشحيح يزيد  
فلا تلتمس مالاً بعيش مقتر      لكل غدٍ رزق يعود جديد  
وقال عنترة:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي      حتى يوارى جارتي مأواها  
 واجتمع البعض في دار عبدالله بن جدعان وتعاهدوا على نصره  
المظلوم، وعُرف ذلك بحلف الفضول ..

فهذه اتجاهات فردية ليس لها من قوة التأثير ما يجعلها ظاهرة  
اجتماعية ..

---

(١) سورة الجمعة، آية: ٢، وسورة آل عمران، آية: ١٦٤.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.



وليس لها من صحة القصد وسلامة النية ما يجعلها مذهباً أخلاقياً له دعائمه الفكرية..

والأمثال العربية في مجموعها تؤكد هذا المعنى، فهي مرتبطة بشخص واحد يضرب به المثل، ولذا جاء في صحيح مسلم أن عائشة رضي الله عنها قالت:

«يا رسول الله إن ابن جُذعان كان يطعم الطعام ويقرّي الضيف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟»

فقال: لا، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

وروى الإمام أحمد أن عدي بن حاتم الطائي قال:  
يا رسول الله إن أبي كان يصل الرحم، ويفعل ويفعل، فهل له في ذلك؟ يعني من أجر.

قال: إن أباك طلب شيئاً فأصابه..!!

وفي رواية:

إن أباك أراد أمراً فأدركه..!!

يعني الذكر..

وبعد - فالناس في ضرورة كبرى إلى معرفة معالم الأخلاق الفاضلة والحياة الإنسانية الراشدة..

وهم في أمس الحاجة إلى قانون الحق والواجب في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية..

والعقل الإنساني قديماً وحديثاً قاصر عن أن يحيط بقانون العمران البشري..

والخالق وحده هو أعلم بخلقه..

والله وحده هو أرحم بعباده..

ولا بد لدنيا الناس من دين الله ..

وصدق الله حيث يقول:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١).



---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٦٤.

## البَابُ الرَّابِعُ

### الوحي

- ١ - الوحي في اللغة .
- ٢ - الوحي في الفلسفة .
- ٣ - الوحي في الشرع .
- ٤ - الوحي المحمدي .
- ٥ - شبهات حول الوحي .



## الوحي في اللغة

جاء في مختار الصحاح<sup>(١)</sup>:

«الوحي: الكتاب، وجمعه وُحْيٌ، مثل حَلْيٍ وحُلْيٍ. وهو أيضاً الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقىته إلى غيرك.

يقال: «وَحَى إليه الكلام» «بَحِيه» «وَحِيّاً»، وأوحى أيضاً وهو أن يكلمه بكلام يخفيه.

وحى وأوحى أيضاً أي كتب.

وأوحى الله إلى أنبيائه.

وأوحى: أشار.

والوَحَا: السرعة، يُمد ويُقصر.

ويقال: «الوَحَا الوَحَا» البدار البدار

والوَحْيَ على فعيل: السريع، يقال موت وَحْيٍ.

وهذه المعاني اللغوية استعملها القرآن المجيد في تعبيراته الشريفة،

فجاء الوحي بمعنى الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ

---

(١) تأليف العلامة محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ترتيب الأستاذ محمد خاطر،

ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٧١٣.

المحراب فأوحى إليهم أن سَبِّحُوا بِكْرَةً وَعَشِيًّا. ﴿١﴾.

وذلك أن زكريا عليه السلام عندما بُشِّرَ بغلام اسمه يحيى، في حال الكبر ومن زوجه العاقر؛ دعا الله أن يبين له علامة تدل على حمل امرأته، فأرشدته المولى سبحانه وتعالى إلى آية عجيبة، وهي أن يحتبس لسانه عن كلام الناس، لا يستطيعه ثلاثة أيام بلياليها.

فكان يشرف على قومه من مصلاه ويشير إليهم بتسبيح الله تعالى أول النهار وآخره.

وجاء الوحي بمعنى الإلهام الفطري في قوله جلّ شأنه:  
﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر  
ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات..﴾ ﴿٢﴾.

فالله سبحانه ألهم النحل وفطرها على بناء بيوتها الدقيقة الصنع في الجبال وفروع الأشجار وفيما يعدّه الناس لها من أماكن خاصة، ثم أمرها تعالى أمر تكوين بتتبع الثمرات والوصول إلى مآكلها..

وجاء الوحي بمعنى الإلهام الإلهي في قوله تعالى:  
﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في  
اليمّ، ولا تخافي ولا تحزني، إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ ﴿٣﴾.

فقد قذف الله في قلبها فعل هذه الأشياء، ووجهها هذه الوجهة فقامت بإرضاع موسى، فلما أحسّت من فرعون تتبع الولدان ألقّت برضيعها في اليم وهي يراودها الأمل في نجاته وتتوقع له مستقبلاً كريماً..

وقد جمعت الآية في سياقها البياني أمرين ونهيين وبشارتين، فالأمران هما: أرضعيه، وألقيه.

(١) سورة مريم، آية: ١١.

(٢) سورة النحل، آية: ٦٨، ٦٩.

(٣) سورة القصص، آية: ٧.

والنهيان هما: لا تخافي، ولا تحزني .  
والبشارتان هما: إنا رآدوه إليك، وجاعلوه من المرسلين .

وجاء الوحي بمعنى الوسوسة في قوله جلّ شأنه :  
﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَفُسْقٌ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ  
لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

فالآية وردت في سياق النهي عن أكل الميتة وما ذبح لغير الله، وشأن  
المؤمن أن يطيع الله فيما أمر ويجتنب ما نهى، ولكن الشياطين يوسوسون  
إلى المشركين ضلالاً وبهتاناً، ويزيّنون لهم القبيح في قولهم أتأكلون ما  
قتلتهم ولا تأكلون ما قتل الله ..؟؟!

يعنون الذبيحة في الأولى والميتة في الثانية ..  
ومع أن الفرق واضح وكبير بينهما ..

\* \* \*

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٢١ .





- ٢ -

## الوحي في الفلسفة

- مع سقراط .
- مع أفلاطون .
- مع الفارابي .
- مع ابن سينا .
- تعقيبات على الاتجاه الفلسفي .



## الوحي في الفلسفة

أ- مع سقراط:

التاريخ الفلسفي القديم بلغ قمته على أيدي سقراط وأفلاطون ولسنا نعرف على وجه اليقين أنبياء بعثوا في أرض اليونان، وإن كان سقراط (٤٦٩ - ٣٩٩ ق.م) قد اعتقد أن هناك هاتفاً روحياً يحمله تبعات رسالة يجب أن يؤديها لشعب أثينا.

وروى أفلاطون في ذلك قصة:

«كان لدى اليونانيين معبد شهير في مدينة دلفي، وتقوم كاهنته بالإدلاء بما يوحى إليها من إجابات عن الأسئلة التي يقدمها الزائرون في شتى الاتجاهات..»

و ذات يوم سألها أحد أتباع سقراط:

هل بين الرجال من هو أكثر حكمة من سقراط؟.

ف قالت الكاهنة:

ليس هنا من هو أحكم من سقراط<sup>(١)</sup>.

وما لبث سقراط أن زاول رسالته الفلسفية، وواجه السوفسطائيين الذين أنكروا حقائق الأشياء، وجعلوا الفرد مقياس كل شيء، ودعوا إلى

---

(١) راجع «محاورات أفلاطون» ترجمة د. زكي نجيب محمود ص ٥١.

تحصيل المنفعة الشخصية واللذة العاجلة.

وأخذ سقراط يحاور الناس وخاصة الشباب، ويلتقي بهم في الأسواق والحوانيت، ويجادلهم في الخير والشر، والعدل والظلم، والشجاعة والجبن، وحقوق الفرد والجماعة.. إلى غير ذلك مما يتصل بالإنسان وسعادته، حتى قيل عنه: إنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض..

أي أنه جعل اهتمام الفلسفة بالأخلاق وطبيعة الإنسان بدلاً من البحث في الطبيعيات، ولذلك كان شعار فلسفته حكمة مكتوبة على معبد دلفي:

اعرف نفسك بنفسك!!..

فالإنسان ليس جسماً بل نفس يجب أن تحظى في المقام الأول بالتربية لأنها مستودع الأسرار.

وبعض الباحثين يزعم أن سقراط نبي من أنبياء الله، وهذا زعم باطل وأدعاء عريض لا دليل عليه فنحن نؤمن بمن قصّهم القرآن علينا ونسكت عما سكت عنه، ولا يجوز أن نمنح النبوة بأهوائنا..

ب - مع أفلاطون:

تبلورت فلسفة أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٧ ق.م) في كلمتين:

الفيلسوف الملك، أو الملك الفيلسوف.

والمقصود هو اتحاد القوتين الفلسفية والسياسية في شخص واحد يتولى انقاذ المجتمع من الشقاء..

وشخصية الفيلسوف تكمن في تنسم صورة الخير الأسمى وعالم المثل، وذلك أن الوجود عند أفلاطون قسمان:

١ - عالم البصر، ويتضمن:

أ - الصور أي الظلال والانعكاس.

ب - الموضوعات المادية حية أو جمادية.

والقوة الحاكمة على عالم البصر هي الشمس، وليدة الخير الأعظم،  
التي تهب المراثيات حيويتها ونماءها..

ويمثل القسم الأول أولى مراتب المعرفة وهي الظن، بينما يمثل  
الثاني الاعتقاد.

٢ - عالم البصيرة، وينقسم إلى:

أ - المعرفة الناتجة عن مقدّمات أو مسلّمات، ويقوم على أساس من  
القسم الثاني من عالم البصر، ويستعان عليها بالعلوم الرياضية.

ب - الإدراك الناشئ عن المنطق، مقتصرًا على المثل، بعيداً عن  
المحسوسات، بحيث ينتقل من مثال لآخر حتى ينتهي إلى مثال المثل..

ويطلق أفلاطون على القسم الأول الفهم أو المعرفة، وعلى الثاني  
الإدراك أو العلم..

والقوة الحاكمة على عالم البصيرة هي صورة الخير الأسمى التي  
تمد الأشياء المعقولة بقابليتها لأن تعرف، وتدين لها في وجودها وماهيتها.

ولا أحد يبلغ حد المعرفة التامة في كنه الأشياء ما لم يعرف جوهر  
الخير وصورته المثلى..

وقدم أفلاطون منهجاً تربوياً يتولى الإنسان من مهده إلى بلوغ سن  
الخمسين، ويمر بمراحل متعددة، ينتقي فيها الأكفاء، وفي النهاية يرفع  
الذين فاقوا الأقران، وبرزوا في كل فروع العلم والعمل، ونسير بهم إلى  
الهدف الأخير، فيتأملون جوهر الخير، ويعاينون عالم المثل وينسجون على  
منوالها في تنظيم المجتمع..

وهؤلاء الفلاسفة يقضون بقية حياتهم في التأمل والفلسفة، وعلى

كل منهم متى حان دوره أن يتولى زمام الحكم والسياسة كواجب لا مندوحة عن القيام به .

وصفات الفيلسوف الحاكم هي :

- ١ - فطرة سليمة هائمة بكل أنواع المعرفة .
- ٢ - شغف بحقيقة الوجود الخالد الذي لا يغيره الزمن .
- ٣ - محبة الصدق محبة حقيقية ومقت الكذب مقتاً كلياً .
- ٤ - هجر اللذات التي محورها الجسد .
- ٥ - عفة لا يسودها طمع لأنه أبعد أهل الدنيا عن حب المال .
- ٦ - الزهد في الحياة الحاضرة وعدم مهابة الموت .
- ٧ - النزاهة والرقّة وحسن المعاملة ولين الجانب هي ظاهرات الخلق الفلسفي .

٨ - سرعة الخاطر وقوة الذاكرة ومحبة الجمال وزكاة الفؤاد هي الصفات المميزة للروح الفلسفية .

هذا ولا يبعد لدى الباحثين أن يكون أفلاطون قد استقى هذا الجانب الإشرافي من قدماء المصريين الذين عايشهم ثلاث سنين تعرف فيها على مظاهر حضارتهم ، تلك الحضارة التي اعتقد أفلاطون أنها أقدم بكثير من حضارة اليونان ، وسجل رأيه هذا في محاوره «طيمائوس» في صورة حديث بين «سولون»<sup>(١)</sup> وكاهن مصري طاعن في السن :

« قال الكاهن : يا سولون ، يا سولون أنتم أيها اليونانيون أطفال دائماً ، فليس ثمة شيء اسمه يوناني قديم .

فسأله سولون : ماذا تعني بقولك ؟ .

أجاب الكاهن : أنتم صغار في أرواحكم ، إذ ليس فيها أي أثر من

---

(١) أحد الحكماء السبعة القدماء في اليونان .

الآراء القديمة ولا التراث البعيد ولا العلم الذي شاخ مع الزمن.

ثم يقول: إن ما تذكره يا سولون عن أصل الإنسان، والعالم لا يختلف إلا في القليل عن حكايات الأطفال».

ومن المقطوع به أن مصر عاصرت تاريخ الأنبياء، ووقعت على أرضها أحداث كبار من هذا التاريخ مثل هجرة إبراهيم وزوجه سارة، وتولي يوسف خزائن مصر واستقدام أهله إليها، وقصة موسى مع فرعون.. . ومع ذلك فإن النبوة بمعناها الحقيقي لم يتعرض لها أفلاطون، وكلامه عن المثل والروح والخير الأسمى كلام عام لا يمثل الاصطفاء الإلهي ولا التكليف الشرعي.. .

ج- مع الفارابي<sup>(١)</sup>:

فإذا انتقلنا إلى فلاسفة المسلمين صادفتنا مشكلة أساسية خلال حديثهم عن الوحي والنبوة.. .

لقد تلقفوا الموقف الفلسفي القديم بمقولاته العامة وطوّعوا لها المفاهيم الإسلامية ومزجوا بينهما مزجاً أساء للحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية معاً.

وإذا استطلعنا رأي الفارابي (٢٥٩ - ٣٣٩ هـ) باعتباره أكبر فلاسفة المسلمين؛ وجدنا أن النبوة ترتبط لديه بقضيتين هامتين في الفكر الفلسفي، هما:

١ - نظرية العقول.

٢ - قوى النفس الإنسانية.

يتخيل الفارابي للكون نظاماً عجيباً على قمّته الموجود الأول صاحب

---

(١) ما ذكرناه هنا مقتبس من دراستنا السابقة «المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وموقف الإسلام منه».

العظمة والجلال والمجد، والمنفرد بالوجوب الذاتي للوجود.

ويفيض عن الأول الموجود الثاني وهو جوهر غير متجسم أصلاً ولا هو في مادة، يعقل ذاته ويعقل الأول..

وينشأ عن الثاني أمران:

أ- الموجود الثالث بما يعقل من الأول.

ب- السماء الأولى بما هو متجوهر بذاته التي تخصه ويلزم من الموجود الثالث الذي هو عقل محض أمران أيضاً:

أ- الموجود الرابع.

ب- كرة الكواكب الثابتة.

ويتوالى الفيض:

عن الرابع ينشأ ← الخامس وكرة زحل.

وعن الخامس يلزم ← السادس وكرة المشتري.

وعن السادس يفيض ← السابع وكرة المريخ.

وعن السابع يوجد ← الثامن وكرة الشمس.

وعن الثامن يصدر ← التاسع وكرة الزهرة.

وعن التاسع يصدر ← العاشر وكرة عطارد.

وعن العاشر يصدر ← الحادي عشر وكرة القمر.

وهذه الموجودات الأحد عشر تسمى عقولاً، والتسع الباقية تسمى أجساماً سماوية.

ويلاحظ أن الفارابي في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة». أدخل الموجود الأول ضمن سلسلة العقول فكانت أحد عشر، وكان هو العقل الأول، ولكن في بعض كتبه الأخرى جعل الموجود الأول رتبة وحده، وبدأ عدّ العقول من الموجود الثاني وجعله العقل الأول.



ويترتب على ذلك أن يسمى عقل فلك القمر بالعقل العاشر كما هو المشهور.

ومما يلفت النظر أيضاً أن الفارابي جعل في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» الفيض مع كل عقل ثنائياً فهو عقل وجسم كما سبق، والمشهور أن الفيض ثلاثي يشمل عقلاً ونفساً وجسماً، فمن إدراك العقل للأول يفيض عقل آخر، ومن حيث إنه واجب بغيره يفيض عنه نفس فلكية، ومن حيث إنه ممكن بذاته يفيض عنه جسم سماوي، وقد ذكر ذلك الفارابي في كتابه «عيون المسائل» باقتضاب ثم جاء ابن سينا فعمّقه ووضحه..

وهذه الموجودات العلوية ترتب ترتيباً تنازلياً، فأفضلها وأكملها هو الموجود الأول ثم العقول بترتيبها ثم الأجسام الفلكية بترتيبها، والعقل العاشر هو المسمى العقل الفعال صاحب التأثير فيما دون فلك القمر.. هذه هي نظرية العقول بخيالها الجامع..

أما قوى النفس الإنسانية فيقسمها الفارابي إلى :

- ١ - القوة الغذائية وبها يتغذى الإنسان، وقوتها الرئيسية في الفم ولها رواضع وخدم وآلات هي المعدة والكبد والطحال.. إلخ.
- ٢ - القوة الحاسة وآلاتها هي الحواس الخمس.

٣ - القوة المتخيلة تحفظ المحسوسات بعد غيبتها عن الحس، وهي حاکمة عليها، تتركب بعضها إلى بعض، وتفصل بعضها عن بعض، في تركيبات وتفصيلات مختلفة بعضها كاذب وبعضها صادق.

٤ - القوة الناطقة وبها يمكن أن يعقل المعقولات، وبها يميز بين الجميل والقيح، وبها يحوز الصناعات والعلوم.

٥ - القوة النزوعية هي التي تشتاق إلى الشيء وتكرهه، وهي التي

يكون بها الإرادة، فإن الإرادة نزوع إلى ما أدرك إما بالحس وإما بالتخيل وإما بالقوة الناطقة..

وسائر هذه القوى رئاستها في القلب ينبوع الحرارة الغريزية ومنه تنبث في جميع الأعضاء عن طريق الدماغ الذي يعدل الحرارة لتناسب كل عضو.

وأدنى هذه القوى هي الغذائية وأرفعها هي الناطقة ولها مهمتان واحدة عملية وأخرى نظرية..

وتتمثل العملية في الأفعال الجميلة والهيئات والملكات التي تصدر عنها، والنظرية هي القمة العليا وبها يتوصل إلى السعادة.

وتمر القوة النظرية بمراحل ثلاث:

#### ١ - العقل بالقوة:

ويسميه الفارابي العقل اليهولاني وهو هيئة ما في مادة معدة لأن تقبل رسوم المعقولات، وقد يسمى بالعقل المنفعل لاستعداداته الدائم لقبول المعاني المجردة.

#### ٢ - العقل بالفعل:

وهو المرحلة الثانية من العقل النظري وذلك حين ينتزع المعقولات عن موادها، وتصير معقولات بالفعل، لأن الأشياء التي في مادة أو هي مادة معقولات بالقوة ويمكن أن تصير بالفعل إذا أشرق عليها نور العقل الفعال (عقل فلك القمر).

#### ٣ - العقل المستفاد:

متى استكمل الإنسان عقله المنفعل بالمعقولات كلها صار عقلاً بالفعل، ويظل يترقى إلى أن يصير عقلاً ومعقولاً بالفعل فيدرك حينئذ المعقولات المجردة التي لم تخالط المادة أصلاً فيحصل له عقل ما

بالفعل، رتبته أعلى وأشد مفارقة للمادة، ومقاربة للعقل الفعال - يسمى العقل المستفاد.

هذا وعقد الفارابي في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» فصلين متوالين أحدهما «في سبب المنامات» والآخر «في الوحي ورؤية الملك» بناهما على أساس من القوة المتخيلة.

ذلك أنها إذا انفردت بنفسها في النوم، وتخلّت عما تبعثه الحاسة إليها، وما تقدمه هي إلى الناطقة برز لها فعل خاص هو المحاكاة..

فأحياناً تحاكي المحسوسات وأحياناً تحاكي المعقولات، وأحياناً تحاكي القوة الغاذية وأحياناً تحاكي القوة النزوعية..

ويعتقد الفارابي أن العقل الفعال قد يفيض منه على القوة المتخيلة فيجعلها تحاكي المعقولات التي في نهاية الكمال مثل السبب الأول والأشياء المفارقة للمادة - بأفضل المحسوسات وأكملها مثل الأشياء الحسنة المنظر، وتحاكي المعقولات الناقصة بأخص المحسوسات وأنقصها.

وفي نهاية الفصل يقول:

«وهذه كلها قد تكون في النوم وقد تكون في اليقظة، إلا أن التي في اليقظة قليلة، وفي الأقل من الناس، وأما التي في النوم فأكثرها في الجزئيات وأما المعقولات فقليلة».

ومن هذا المنطلق قدم الفارابي تفسيره الفلسفي للنبوة ورؤية الملك..

فمتى كانت القوة المتخيلة كاملة ولا تستولي عليها المحسوسات الواردة من الخارج استيلاء يستغرقها بأسرها، وتفرغت هي لأفعالها التي تخصصها وكانت حالها في اليقظة مثل حالها عند تحليلها من المحسوسات في النوم؛ حينئذ تصير متعرضة لفيض العقل الفعال..

فتقبل في اليقظة عنه الجزئيات الحاضرة والمستقبلية، أو محاكياتها من المحسوسات والمعقولات المفارقة وسائر الموجودات الشريفة ويكون للإنسان بما قبله من المعقولات نبوة بالأشياء الإلهية - على حد تعبير الفارابي - وتلك هي أكمل المراتب التي تنتهي إليها المتخيلة.

ومن غريب الخيال ما يحكيه الفارابي عن رؤية الملك فيقول<sup>(١)</sup>:  
«فإن تلك المتخيلة تعود فترتسم في القوة الحاسة، فإذا حصلت رسومها في الحاسة المشتركة انفعلت عن تلك الرسوم القوة الباصرة فارتسمت فيها تلك فتحصل عما في القوة الباصرة منها رسوم تلك في الهواء المضيء الموصل للبصر بشعاع البصر..»

فإذا حصلت تلك الرسوم في الهواء عاد ما في الهواء فيرتسم من رأس في القوة الباصرة التي في العين، وينعكس ذلك إلى الحاس المشترك وإلى القوة المتخيلة..

ولأن هذه كلها متصلة بعضها ببعض فيصير ما أعطاه العقل الفعال من ذلك مرثياً لهذا الإنسان.

فإذا اتفقت التي حاكت بها القوة المتخيلة تلك الأشياء محسوسات في نهاية الجمال والكمال؛ قال الذي يرى ذلك إن الله عظمة جليلة عجيبة، ورأى أشياء لا يمكن وجود شيء منها في سائر الموجودات أصلاً».

بقيت نقطة أخيرة وهي أنه قد اعترض على الفارابي بأنه يضع النبي في مرتبة دون الفيلسوف، من جهة أن طريق الأول هو المخيلة وطريق الثاني هو العقل، والعقل أفضل من المخيلة.

ولكن ظاهر فلسفة الفارابي أنهما سواء لأمرين:

---

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٧٥.

- ١ - أن مصدر الإيحاء في كليهما هو العقل الفعال.
- ٢ - أن الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية واحدة، وتلك هي الرسالة التي جاهد من أجلها الفارابي ومن بعده الفلاسفة الإسلاميون.

ويمكن أن نقول إن فلسفة الفارابي السياسية والاجتماعية تحتم أن يكون على قمة البشر رئيس المدينة الفاضلة الذي يحل فيه العقل الفعال، ويكون بما يفيض منه إلى عقله المنفعل حكيماً فيلسوفاً، وبما يفيض منه إلى قوته المتخيلة نبياً..

وهذا الإنسان الذي جمع بين الفلسفة والنبوة هو أكمل مراتب الإنسان، وأعلى درجات السعادة.

د - مع ابن سينا:

وضح ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ) رأي شيخه وبسطه، فجعل للنبي ثلاث خصائص:

- ١ - أن يكون متمتعاً بقوة قدسية تمكنه من الاتصال بالعقل الفعال من غير فكر ولا نظر، فتصل به إلى كمال العلم من غير تعليم وتعلم بشري حتى تحيط علماً بما شاء الله تعالى على قدر الطاقة البشرية من معرفة الإله الحق، وطبقات الملائكة، وسائر أصناف الخلق، وكيفية المبدأ والمعاد... إلخ.

- ٢ - أن يكون متميزاً بمخيلة قوية تعينه على تخيلات الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلية، ويستطيع بها أن يدرك كثيراً من الأمور التي تقدم وقوعها بزمان طويل فيخبر عنها، وكثيراً من الأمور التي تكون في الزمان المستقبل فينذر بها.

- ٣ - أن تكون نفسه المحركة قادرة على الإهلاك وقلب الحقائق، من التدمير على قوم بريح عاصفة، وآخرين بصاعقة أو طوفان، وهكذا مثل الزلزلة وقلب العصا حية إلى غير ذلك.

وكل من كتب عن النبوة عند ابن سينا أو الفلاسفة ذكر هذه الأمور الثلاثة على أنها خصائص للنبوة عندهم ..

والحق أنها ليست تخص الأنبياء عندهم بل هي عامة لكل العارفين وأصحاب الإشراقات.

وقد أشار ابن سينا ونبيه على ذلك في مصنفاته عن الحكمة الإلهية وأهمها الأنماط الثلاثة الأخيرة في كتابه «الإشارات والتنبيهات»<sup>(١)</sup>.

### النمط الأول: في السعادة:

بدأ بمناقشة أوهام القائلين بأن اللذة الحسية هي كل شيء، وأوضح أن هذه اللذة هي المنكوحات والمطعومات وأمور أخرى تجري مجراها، وأثبت أن هناك لذات باطنية أقوى من تلك اللذات الحسية فلاعب الشطرنج قد يعرض له منكوح ومطعم فيرفضه إيثاراً للذة الغلبة الوهمية، كذلك فإن كبير النفس يستصغر الجوع والعطش عند المحافظة على ماء الوجه ..

وليس ذلك من العاقل فقط بل في العجم من الحيوانات، فإن من كلاب الصيد ما يقتنص على الجوع ثم يمسكه على صاحبه، والمرضعة من الحيوانات تؤثر ما ولدته على نفسها.

فإذا كانت اللذات الباطنية أعظم من الظاهرة الحسية فما قولك في العقلية؟! .

ثم يخلص إلى أن اللذة الحقيقية للإنسان هي في الكمال الذي يخص الجوهر العقلي المميز للإنسان وهو:

أن يتمثل فيه جليلة الحق قدر ما يمكنه أن ينال منه بيهائه الذي

---

(١) الإشارات والتنبيهات - تحقيق د. سليمان دنيا، والأنماط الثلاثة ص ٧٤٩ - ص

يخصه، ثم يتمثل الوجود كله على ما هو عليه مجرداً عن الشوب، مبتدأ فيه بعد الحق الأول بالجواهر العالية ثم الروحانية السماوية والأجرام السماوية ثم ما بعد ذلك تمثلاً لا يمايز الذات.. فهذا هو الكمال الذي يصير به الجوهر العقلي بالفعل، وما سلف فهذا الكمال الحيواني».

النمط الثاني: في مقامات العارفين:

يحدد ابن سينا مفاهيم ألفاظ ثلاثة هي:

الزاهد: هو المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها، وهو في زهده تاجر يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة.

العابد: هو المواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوهما، وهو في عبادته أجير بعمل في الدنيا لأجرة يأخذها في الآخرة، وإنما يعبد الله ويطيعه ليخوله في الآخرة شبعه من مطعم شهوي ومشرب هني ومنكح بهي.. ولا مطمح لبصره إلا إلى لذة البطن والجنس..

العارف: هو المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحق في سره، وهو يريد الحق الأول لا لشيء غيره، ولا يؤثر شيئاً على عرفانه، وتعبده له فقط لأنه المستحق للعبادة، وزهده سمو بنفسه عن كل ما يشغل عن الحق.

ولا يزال العارف في رياضته الروحية والتحرك بسره إلى جناب القدس حتى تعن له خلصات من اطلاع نور الحق عليه، ويواصل الرياضة حتى يصير سره مرآة مجلوة محاذياً بها شطر الحق فتد عليه اللذات العلا..

النمط الثالث: في أسرار الآيات:

للعارفين آيات وخوارق تصدر عنهم، فقد يتركون الأكل مدة مديدة، ويخبرون بالغيب ويتصرفون في عالم العناصر.. فما سر ذلك؟! وقد حاول

ابن سينا أن يفسر ذلك كله تفسيراً طبيعياً، واعتبره من مذاهب الطبيعة المشهورة - على حد تعبيره .

فالمريض لا يأكل فترات طويلة، وللعارف ما للمريض من اشتغال الطبيعة عن المادة، بل يزيد عنه فقدان المرض المضاد للقوة . .

والغاضب والمنافس تتضاعف قوته، والعارف أولى بذلك، فقد يعتريه من بهاء الحق وجلاله ما يضاعف قوته . .

والنفس الإنسانية تنال من الغيب نيلاً ما في حالة المنام فلا مانع من أن يقع مثل ذلك النيل في حال اليقظة للعارف الذي قلّت شواغله الحسية وانجذب إلى عالم القدس . .

ثم أخذ ابن سينا يفسّر المعجزات والكرامات والسحر والحسد بقوة النفوس الخيرة أو الشريرة، وعلاقة النفس بالبدن التي هي علاقة تدبير وتصرف وليست علاقة انطباق وانطباع، والاتصال بالقوى السماوية والعقل الفعال<sup>(١)</sup> . .

هذا وقد استوعب الإمام ابن تيمية هذا الاتجاه الفلسفي وعبر عنه بإيجاز واف فقال:

«ثم إنهم لما أرادوا تقرير «النبوة» جعلوها فيضاً يفيض على نفس النبي من العقل الفعال أو من غيره، من غير أن يكون رب العالمين يعلم له رسولاً معيناً، ولا يميز بين موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، ولا يعلم الجزئيات، ولا نزل من عنده ملك، بل جبريل هو خيال يتخيل في نفس النبي أو هو العقل الفعال . .»<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا «الروح بين الإسلام والفلسفة» ص ٨١ - ص ١٠٥ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ٥، ص ٥٤٦ .



## تعقيبات على الاتجاه الفلسفي

لنا وقفات مع نظرية العقول وتفسير الفلاسفة للنبوة<sup>(١)</sup>.

أولاً:

إذا تساءلنا لم اقتصرت سلسلة العقول على عشرة فقط وكانت الأفلاك تسعة؟!.

فالجواب أن أرباب هذه النظرية أقاموها على مذهب «بطليموس» في الفلك، ويدعي فيه أن الأرض مركز العالم وأن الكواكب السيارة تسعة.. وقد ثبت الآن خطأ هذه النظرية علمياً، وتبين أن الشمس هي المركز وأن الأرض والكواكب الأخرى هي التي تدور حولها، كما اكتشف حديثاً كواكب جديدة..

وإن فلك القمر الذي نسبوا إلى عقله تدبير هذا الكون، وجعلوها مصدر النبوة - قد وطئه الإنسان بقدميه وهبطت أول مركبة فضائية تقل رجلين أمريكيين على سطحه في رحلة «أبوللو ١١» ١٩٦٩ م.. ووجد أن سطح القمر أحجار وصخور لا تختلف في جوهرها عن أحجار وصخور الأرض..

---

(١) راجع كتابنا «المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وموقف الإسلام منه» ص ٢٠٧، ط. مكتبة دار التراث بالمدينة المنورة.

## ثانياً:

ذكر الغزالي أن ما قيل في العقول العشرة وتأثيرها في العالم الأرضي وكيفية نشأتها - تحكمات باطلة وأنه على الحقيقة ظلمات بعضها فوق بعض، ولو حكاها الإنسان عن رؤيا رآها لاستدلّ بها على سوء مزاجه..

وقد رفض ابن رشد أقوال الفارابي وابن سينا في تلك النظرية وهدم الأساس القائل: «إن الواحد من جميع الجهات لا يصدر عنه إلا واحد»، ويبيّن أنهم قاسوا الغائب على الشاهد، وليس بينهما إلا الاشتراك في الاسم، وذلك أن الفاعل الغائب فاعل مطلق، والفاعل الشاهد فاعل مقيد، وليس يصدر عن الفاعل المطلق إلا فعل مطلق، ولا يختص الفعل المطلق بمفعول دون مفعول..

وابن رشد - وهو الذي نصب نفسه محامياً عن الفلسفة ضد هجمات الغزالي - قد اتهم الفارابي وابن سينا بالتقول على الحكماء والتخرص على الفلاسفة وتحريف مذهبهم وقال<sup>(١)</sup>:

فما أكذب هذه القضية «إن الواحد لا يصنع إلا واحداً» على ما فهمه ابن سينا وأبو نصر..

ثم قال: والعجب كل العجب كيف خفي هذا على أبي نصر وابن سينا، لأنهما أول من قال بهذه الخرافات فقلدهما الناس ونسبوا هذا القول إلى الفلاسفة..

وقد تهكّم بهم أيضاً أبو البركات البغدادي ووصفهم بالتقليد الأعمى لأرسطو، فهي آراء لا تخضع للبرهان والحجاج العقلي أخذوها مأخذ الوحي، وأظهر تناقضهم مع المبدأ الذي اصطنعوه لأنفسهم وهو «أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد»، إذ كيف يجوزون صدور الثلاثة عن العقل الأول؟!..

(١) تهافت التهافت - تحقيق د. سليمان دنيا ص ٣٩٥، ٣٩٧.

وما عللوا به هذا الصدور كان أخرى بهم أن يجعلوه عند المبدأ الأول، ويجعلوا في الترتيب أولاً وثانياً، ومقدماً وتالياً، كما جعلوه في الثاني، وهو بالأول أولى.

وكانوا يقولون - عوض قولهم إن الثاني بما يعقل الأول يصدر عنه عقل، وبما يعقل ذاته يصدر عنه جرم فلك ونفس - أن المبدأ الأول بما يعقل ذاته عقلاً أولاً بوحدانيتها وبذاته (كما قالوا) يصدر عنه موجود هو أول مخلوقاته، فإذا أوجده عرفه وعقله موجوداً حاصلاً في الوجود معه كان بما يعقله يصدر عنه آخر غيره.

وكذلك يعقل فيوجد، ويوجد فيعقل، فتكون مخلوقاته عنده دواعي مخلوقاته فيوجد ثان لأجل أول، وثالث لأجل ثان<sup>(١)</sup>.

فالله تعالى فرد وحده لا يسبقه شيء ولا يتولد عنه شيء، وهو سبحانه قضى كل شيء بكلمة «كن».

﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾<sup>(٣)</sup>.

ثالثاً:

إن محاولة بعض الفلاسفة أو الباحثين التقريب بين نظرية العقول وعقيدة الملائكة محاولة فاشلة، فهي ضرب من الرمزية في التفسير لا تستند إلى قواعد ولا ترجع إلى أصول..

وإن حقائق الغيب لا تخرع وإنما تتلقى من المعصوم، وإن الآراء

---

(١) المعتبر في الحكمة، نقلاً عن «قراءات في الفلسفة» د. النشار، د. أبو ريان ص ٧٤٣.

(٢) سورة الإخلاص.

(٣) سورة البقرة، آية: ١١٧.

التي يحاولون إضفاء الصبغة الإسلامية عليها لا تخضع لبرهان وليس هناك ضرورة عقلية للقول بها اللهم إلا التقليد الأعمى . .

ومتى كانت فكرة العقول بنظمها الخيالي وأساطيرها الوثنية تتسامى إلى الوحي الإلهي في مثل قوله تعالى عن جبريل الأمين: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مَطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٌ﴾<sup>(١)</sup>.

وقد فند الإمام ابن تيمية هذا الادعاء، وبسط القول في ذلك، ونحن نلخصه فيما يلي<sup>(٢)</sup>:

١ - اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسول الله في تنفيذ أمره الكوني وأمره الديني وهم عباد مكرمون ليس لهم من الأمر شيء قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا﴾<sup>(٣)</sup>.

٢ - ملائكة الله لا يحصي عددهم إلا الله، حتى قال النبي ﷺ: «أُطِيتَ السَّمَاءُ وَحَقُّ لَهَا أَنْ تَنْطُ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ قَاعِدٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ».

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾<sup>(٤)</sup>.

فمن جعلهم عشرة أو تسعة عشر أو زعم أن التسعة عشر الذين على سقر هم العقول والنفوس فهذا من جهله بما جاء عن الله ورسوله، وضلاله في ذلك بين، إذ لم تتفق الأسماء في صفة المسمى ولا في قدره كما تكون الألفاظ المترادفة، وإنما اتفق المسميان في كون كل منهما روحاً متعلقاً بالسموات.

---

(١) سورة التكوين، آية: ١٩ - ٢١.

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٤، ص ١١٩ - ١٢٧.

(٣) سورة فاطر، آية: ١.

(٤) سورة المدثر، آية: ٣١.

وهذا من بعض صفات ملائكة السموات، فالذي أثبتوه هو بعض الصفات لبعض الملائكة.

٣ - لم يثبت الفلاسفة للملائكة من الصفة إلا مجرد ما علموه من نفوسهم؛ مجرد العلم للعقول والحركة الإرادية للنفوس. ومن المعلوم أن الملائكة لهم من العلوم والأحوال والإرادات والأعمال ما لا يحصى إلا ذو الجلال..

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (١).

وقال جلّ شأنه: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّن الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (٢).

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ (٣).

واستشهد ابن تيمية بكثير من الآيات والأحاديث التي تعرض أعمال الملائكة وتصرفاتهم مع بني آدم ثم قال:

«وأمثال هذه النصوص، التي يذكر فيها من أصناف الملائكة وأوصافهم وأفعالهم - ما يمنع أن تكون على ما يذكرونه من العقول والنفوس، أو أن يكون جبريل هو العقل الفعال، وتكون ملائكة الأدميين هي القوى الصالحة، والشياطين هي القوى الفاسدة كما يزعم هؤلاء».

٤ - زعمهم أن العقول - أي الملائكة - صادرة عن الله صدور المعلول عن علته؛ هو قول بتولدها عن الله، وأن الله ولد الملائكة وهذا مما رده الله ونزه نفسه عنه وكذب قائله.

(١) سورة غافر، آية: ٧.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٢٥.

(٣) سورة الانفطار، آية: ١٠، ١١.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا، وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلَّهِمْ أَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾<sup>(١)</sup>.

فأخبر سبحانه أن الملائكة مدينون مقهورون ليسوا كالمعلول المتولد تولدًا لازماً لا يتصور أن يتغير عن ذلك، وهم عباد الله لا يشبهون به كما يشبه المعلول بعلمته والولد بالوالد.

رابعاً:

إن التفسير الفلسفي للنبوة في مصدرها وقوى النفس الخاصة بها ورؤية الملك القرين لها لما يأباه الشرع ويتنزه عنه العقل الفطري.

وقد أصاب لب الحقيقة التفتازاني حين صرح في مقاصده عن طريقة الفلاسفة بقوله:

«هم يقرون بالاحتياج إلى النبي والشرعية وبشبوت المعجزة لكن يقررون ذلك على وجه لا يوافق ما علم من الدين بالضرورة».

وقد شنع عليهم ابن تيمية بأنهم أرادوا تخريج أحوال الأنبياء وخصائصهم على أصول فلاسفة اليونان الذين لم يعرفوا النبوة ولم يكن لهم فيهم مقال.. وقال<sup>(٢)</sup>:

«وأبعد هؤلاء (طوائف المكذبين) عن النبوة؛ المتفلسفة والباطنية والملاحدة، فإن هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم وهو المنام.

---

(١) سورة مريم، آية: ٨٨ - ٩٥.

(٢) النبوات ص ١٧٩.

وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوة، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط.

ثم إنهم لما سمعوا كلام الأنبياء أرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء فيضعونها على معانيهم، ويسمون تلك المعاني بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء ثم يتكلمون ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء فيظن من لم يعرف مراد الأنبياء أنهم عنوا ما عنته الأنبياء فضل بذلك طوائف». **خامساً:**

إن نظرية النبوة في الفلسفة قد ترتب عليها مجموعة مخاطر هي:

١ - النبوة مكتسبة باستكمال قوة الإنسان الناطقة في جزأها النظري والعملية وتفرغ قوته المتخيلة لعملها الخاص وهو المحاكاة.

٢ - عقل فلك القمر هو مصدر الوحي وينبوع المعرفة الشرعية ومنه تستقي كافة عقائد الدين ومناهج السلوك.

٣ - النبوة مستمرة بمعنى أن الفيض من العقل الفعال دائم لمن استأهله، وإن كانت الشروط التي وضعها الفارابي جعلته يصرح «واجتماع هذه كلها في إنسان واحد عسر فلذلك لا يوجد من فطر على هذه الفطرة إلا الواحد بعد الواحد، والأقل من الناس»<sup>(١)</sup>.

٤ - ليست للنبوة مميزات خاصة بها تنفرد عن كافة أنواع المعرفة الأخرى بل هم لم يقرؤا بها إلا من حيث ما هو مشترك بينهم وبين غيرهم، ولم يقبلوا المعجزات إلا من حيث إنها أعمال لقوى النفس التي بلغت الكمال ورفضوا أن تكون أمراً لله وحده يؤيد به من يشاء من رسله.

وقد تنبه الدكتور إبراهيم مذكور إلى أن الفارابي في إثباته للنبوة قد

---

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة.

جرّدها من بعض ما كانت تعتمد عليه من أحاديث وأسانيد وسلك سبيل تأويل ما ورد من نصوص دينية تخالف آراءه أو تبعد عنها. !!

واعتذر عن الفارابي بأنه كان يرد على أباطيل ابن الراوندي واعتراضات الرازي الطبيب. . واعتبر الغنيمة الكبرى التي ظفر بها الفارابي من جهاده هو إظهاره لمنزلة النبي السياسية والاجتماعية وقال<sup>(١)</sup>:

«ومهما يكن من شيء فلو لم يصنع الفارابي إلا أنه أظهر في جلاء منزلة النبي السياسية والاجتماعية لكفى، وقد استطاع بهذا أن يرد على أباطيل ابن الراوندي واعتراضات الرازي وفي ضوئه سار فلاسفة الإسلام الآخرون وفسّروا كثيراً من التعاليم الدينية بهذه الروح وتلك النزعة».

وأقول: إن منزلة النبي السياسية والاجتماعية ليست لدى المسلمین من الخفاء حتى يكشفها الفارابي، أو من البعد حتى يقربها، أو من الغموض حتى يجليها. .

وأجدني في غير حاجة إلى شرح تلك المنزلة في الإسلام، وأكتفي بآية واحدة من كتاب الله عزّ وجلّ وهي:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد اجتمعت الفلسفة الاجتماعية كلها في كلمة واحدة هي «الأمانات».

واجتمعت الفلسفة السياسية كلها في كلمة واحدة هي «العدل»، والأمانات والعدل في إطار العقيدة الصحيحة هي النعمة الكبرى التي هدانا الله إليها على لسان الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام.

\* \* \*

(١) في فلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ص ٩٩.

(٢) سورة النساء، آية: ٥٨.



## الوحي في الشرع

- الاصطفاء .
- الاصطلاح الشرعي .
- الضمان الإلهي .
- قصة الغرائيق



## الاصطفاء

«الحمد لله رب العالمين» .

شهادة حقّ يؤمن بها الناس جميعاً بلسان المقال أو بلسان الحال، وإن عناية الله التي شملت الكائنات كلها، ورحمته التي وسعت كل شيء؛ لتحقيق بها أن تتعهد الإنسان في أمر معاشه كما تعهدته في أمر خلقه . .  
والحياة تحتاج إلى قانون . .

والقانون لا بد أن يصدر من جهة عليا حتى يحظى بالقبول والتنفيذ . .  
والإنسان كفرد، والإنسان كمجتمع قاصر عن أن يحيط بكل ما  
ينفعه، ولا يملك قوة الإلزام الحقيقية التي تحمي سلطة القانون . .  
فالناس في حاجة إلى قانون إلهي ينظم أمر معاشهم . . !!

ثم إن الإنسان لم يخلق للعدم وإنما خلق للبقاء، والحياة الدنيا  
مقضيّ عليها بالزوال حتماً . . فما السبيل لسعادة الآخرة؟!  
إن البشر في ضرورة ملحة للتعرف على الخالق ومعرفة العبادة الحقّة  
للمعبود الحق . .

إن التلقي عن الله في أمر المعاش والمعاد هو الحل الأول والآخير  
لمشكلة الإنسان . .

لكن كيف التلقي؟!!

هل كل إنسان مهياً بفطرته واكتسابه لأن يستمع للملأ الأعلى ويأخذ  
عن العليّ الأعلى؟!

إن كل الدلائل والوقائع تمنع هذا العموم، فالعقل الإنساني على  
درجات، والعلم البشري على تفاوت..

إذن البعض من الناس يمكنه أن يتلقى عن الله..  
تأتي تساؤلات:

- من يكون هذا البعض؟

- ما مؤهلات هذا التلقي؟

- من يضع هذه المؤهلات؟

- من يحكم باستحقاقها؟

إن الجواب لا تنتظره من البشر، وإلاً فسينقلب الأمر، ويحكم  
المخلوق على الخالق.

إن الاصطفاء الإلهي هو الأمر المعقول في هذا الجانب، وصدق الله  
حيث يقول:

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ  
رَسُولٍ﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ  
يَشَاءُ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة الأنعام، آية: ١٢٤.

(٢) سورة الحج، آية: ٧٦.

(٣) سورة الجن، آية: ٢٦، ٢٧.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٧٩.

## الاصطلاح الشرعي

من اليسير أن نتعرف على مفهوم الوحي بعد هذه المقدمة، فما هو إلا صلة بين الرب سبحانه وتعالى وبين من يصطفيه من خلقه ليتحمل أمانة التبليغ عند الخالق إلى الخلق..

هذه الصلة أو تلك العلاقة يصحبها علم ضروري بمصدرها ويصاحبها ظواهر نفسية وبدنية للمصطفى، ويتبعها آثار توجيهية يعلنها المصطفى للناس حوله..

وقد عبّر ابن خلدون عن هذا المفهوم بقوله<sup>(١)</sup>:

«استغراق في لقاء الملك الروحاني بإدراك الأنبياء المناسب لهم، الخارج عن مدارك البشر بالكلية، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية.. كل ذلك في لحظة واحدة بل في أقرب من لمح البصر».

يعني ابن خلدون أن الوحي يملك على النبي قلبه وقالبه، ويستجمع الشعور كله ويوجهه نحو هذا اللقاء الفريد بين الإنسان المصطفى والملك الروحاني.

ويكون للنبي في هذه الحال إدراك خاص ووسيلة معرفة غير ما ألفه البشر من الحواس والعقل، ثم تحصل مرحلة عبور للوحي من حالته

---

(١) مقدمة ابن خلدون ط ١ تحقيق د. علي عبد الواحد وافي.

الروحية إلى حالة حسية وعقلية يدركها النبي ويبلغها للبشر في صورة أمر أو نهى أو خبر. . إلخ.

ولعل ابن خلدون يعبر عن نوع هام وشائع من أنواع الوحي وهو لقاء الملك، وإلاً فالوحي على صور جمعتها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَبِشْرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسَلْ رَسُولًا فَيُوحِي بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ، إِنَّهُ عَلَيَّ حَكِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

فالتلقي عن الله تعالى يكون على أنواع:  
الأول: «إلاً وحيًا».

والمقصود هو الإلقاء في قلب النبي بكلام خفي يدرك بسرعة ويعلم على جهة اليقين مصدره الإلهي.

وهذا الإلقاء - على جهة العموم - يقع يقظة ونوماً، مثال ذلك الإلهام إلى أم موسى في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ. .﴾<sup>(٢)</sup> وحكى القرآن عن إبراهيم عليه السلام قوله ﴿يَا بَنِيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾<sup>(٣)</sup>.

وهذا النوع ليس خاصاً بالأنبياء بل قد يقع لغيرهم، فأم موسى لم تكن نبيه، والرؤيا الصالحة أو الصادقة تحصل لعامة الناس وقد حصلت لملك مصر - على عهد يوسف عليه السلام - ولم يكن نبياً ولا ولياً. .

والآية الكريمة في سورة الشورى لا تتحدث عن خصائص الأنبياء وإنما عبرت عن التلقي. عن الله مطلقاً، والفرق بين تلقي الأنبياء وتلقي غيرهم أن لدى الأنبياء يقيناً بمصدره الإلهي.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٥١.

(٢) سورة القصص، آية: ٧.

(٣) سورة الصافات، آية: ١٠٢.

الثاني: «أو من وراء حجاب».

والمعنى أن كلام الله تعالى يصل مسموعاً إلى النبي دون رؤية للمولى عز وجل، فالنبي يسمع مباشرة دون واسطة، كما حدث لموسى عليه السلام فقد كلمه الله ولكن منعه الرؤية حين طلبها. قال سبحانه ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ أَرْنِي انْظُرْ إِلَيْكَ، قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ (١).

وقد اختلف العلماء في حقيقة كلام الله تعالى وذهبوا مذاهب شتى، جمعها الشيخ ابن أبي العز الدمشقي في تسعة أقوال (٢):

أحدها: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معان، إما من العقل الفعال عند بعضهم أو من غيره. وهذا قول الصابئة والمتفلسفة.

ثانيها: أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه، وهذا قول المعتزلة.

ثالثها: أنه معنى واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عبّر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبّر عنه بالعبرانية كان تورا.

وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالأشعري وغيره.

رابعها: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل.

وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث.

خامسها: أنه حروف وأصوات، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً. وهذا قول الكرامية وغيرهم.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١١٣.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٩ ط المكتب الإسلامي سنة ١٣٩٩ هـ.

سادسها: أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب المعتبر، ويميل إليه الرازي في المطالب العالية.

سابعها: أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته هو ما خلقه في غيره، وهذا قول أبي منصور الماتريدي.

ثامنها: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات..

وهذا قول أبي المعالي ومن اتبعه.

تاسعها: أنه تعالى لم يزل متكلماً إذ شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً..

وهذا هو المأثور عن أئمة الحديث والسنة.

ونحن نرى أن حقيقة الذات والصفات فوق قدرة العقل البشري وكل ما نعلمه بيقين أن الله تعالى لم يكن له كفواً أحداً، وليس كمثله شيء، وكل ما طرأ ببالك فالله بخلاف ذلك..

الثالث: «أو يرسل رسولاً».

والرسول هو ملك الوحي المخصص للتبليغ عن الله، والسفارة بينه وبين رسله وأنبيائه، وهو جبريل عليه السلام..

وقد عبّر القرآن المجيد عن ملك الوحي بتعبيرات متعددة، فذكره بالاسم العلم في بعضها، وذكره بأوصاف تليق بمهمته المقدسة في البعض الآخر، وهذه التعبيرات هي:

١ - قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ



الله مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ<sup>(١)</sup>.

وذلك في سياق الرد على اليهود وبيان زيف اعتقادهم، ومزاعمهم الفاسدة حول الله وملائكته ورسله..

وروي في أسباب النزول أن اليهود قالوا للنبي ﷺ:

إنَّه ليس نبي من الأنبياء إلَّا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحي فمن صاحبك حتى نتابعك؟!!

قال عليه الصلاة والسلام: جبريل.

قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال، ذاك عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك...! فتزلت الآية..

وحول اسم جبريل قال الإمام السهيلي<sup>(٢)</sup>:

«إسم جبريل سرياني، ومعناه عبد الرحمن أو عبد العزيز، هكذا جاء عن ابن عباس موقوفاً ومرفوعاً أيضاً، والوقف أصله..

وأكثر الناس على أن آخر الاسم منه هو اسم الله، وهو «إيل».

وكان شيخنا رحمه الله يذهب مذهب طائفة من أهل العلم في أن هذه الأسماء إضافتها مقلوبة، وكذلك الإضافة في كلام العجم يقولون في غلام زيد: زيد غلام، فعلى هذا يكون «إيل» عبارة عن العبد، ويكون أول الاسم عبارة عن اسم من أسماء الله تعالى، ألا ترى كيف قال في حديث ابن عباس: جبريل وميكائيل، كما تقول: عبدالله وعبد الرحمن.

(١) سورة البقرة، آية: ٩٧.

(٢) الروض الأنف ج ١ ص ٢٧٢.

ألا ترى أن لفظ «عبد» يتكرر بلفظ واحد، والأسماء ألفاظها مختلفة؟!!

ثم قال الإمام السهيلي :

واتفق في اسم جبريل عليه السلام أنه موافق من جهة العربية لمعناه، وإن كان أعجمياً، فإن الجبر هو إصلاح ما وهى، وجبريل موكل بالوحي، وفي الوحي إصلاح ما فسد، وجبر ما وهى من الدين.

ولم يكن معروفاً بمكة ولا بأرض العرب، فلما أخبر النبي ﷺ خديجة به انطلقت تسأل من عنده علم من الكتاب كعداس وبحيرى الزاهب فقال لها :

«قدوس.. قدوس.. أنى لهذا الاسم أن يذكر في هذه البلاد؟!».

٢ - قال الله تعالى :

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

أي نزل بالقرآن جبريل منجماً لحكم جليلة..

والقدس - بسكون الدال وضمها - الطهر، اسم ومصدر، وإضافة الروح إلى القدس كما يقال: حاتم الجود، والمراد الروح المقدس، وحاتم الجواد..

٣ - قال جل شأنه :

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾<sup>(٢)</sup>.

أي أرسل الله إلى مريم البتول جبريل عليه السلام ليطمئن فؤادها،

---

(١) سورة النحل، آية : ١٠٢.

(٢) سورة مريم، آية : ١٧.

ويعلمها مسبقاً بما اختصها الله به من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب، فتمثل لها جبريل بشراً سوياً لتأنس بحديثه، إذ لو رآته على صورته الحقيقية لنالها الفزع الأكبر..

والإضافة في «روحنا» للتشريف، كما هي في قوله ﴿هذه ناقةُ الله﴾<sup>(١)</sup> وقوله ﴿وطهرَ بَيْتِي للطائفين﴾<sup>(٢)</sup> وقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مساجدَ الله﴾<sup>(٣)</sup>.

٤ - قال عز وجل:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾<sup>(٤)</sup>.

أي نزل بالقرآن - على سبيل التدرج - جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ ليكون من المرسلين الذين يتحملون أمانة التبليغ عن الله مبشرين ومنذرين..

ووصف جبريل فيما سبق بالقدس وهنا بالأمين ليجمع الحسنيين، فهو طاهر في ذاته مبرراً من كل دنس وإثم، وأمين فيما يمارسه من عمل وما يتحملة من رسالة..

٥ - قال سبحانه:

﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا. بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾<sup>(٥)</sup>.

أي أنه إذا كان ليلة القدر نزل جبريل عليه السلام في كبكبة من الملائكة يسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى، كما ورد بذلك الخبر.

(١) سورة هود، آية: ٦٤.

(٢) سورة الحج، آية: ٢٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ١١٤.

(٤) سورة الشعراء، آية: ١٩٣، ١٩٤.

(٥) سورة القدر، آية: ٤.

وإطلاق لفظ الروح على جبريل لما يترتب على عمله من حياة القلوب والعقول بوحى الله، وصلاح الأفراد المجتمعات بشرائع الله.. وقد جرى العرف اللغوي على إطلاق الروح على عالم ما وراء الطبيعة وما ليس من مادة العناصر..

٦ - قال جلُّ شأنه:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾<sup>(١)</sup>.

فهذا القرآن كلام الله المنزل بواسطة ملك كريم له من القوة والمكانة الرفيعة والمنزلة السامية ما يؤهله لأمانة الوحي إلى الأنبياء..

\* \* \*

---

(١) سور التكويد، آية: ١٩، ٢١.

## الضمان الإلهي

يعتقد المؤمنون جميعاً بوجود إبليس وأعدائه، وبقدرتهم على إغواء البشر، وأن رسالتهم الأولى هي المساعدة في انحراف الإنسان عقدياً وسلوكياً..

فهل في مقدور إبليس أن يخدع النبي في الوحي إليه؟! وهل لدى النبي من الآيات ما يجعله على يقين من وحي الله إليه؟! ويتدبر قليل ندرك أن الملك أو الرئيس إذا بعث مندوباً عنه لا بد أن يتحقق لدى المرسل إليهم شخصية هذا المبعوث حتى يحظى بالقبول.. ورب الناس أقدر على ذلك، فهو يؤيد رسله بالمعجزات التي يقف أمامها العقل والجهد الإنساني عاجزاً عن الإتيان بمثلها أو محاكاتها.. ويمتنع عقلاً وشرعاً أن تقع المعجزة على أيدي المتنبئين الكذابين، قال تعالى:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

وهذا على فرض القول ببعض الرسالة فما بالك بمن يقول الرسالة كلها؟!!

---

(١) سورة الحاقة، آية: ٤٤ - ٤٧.

فوصول الوحي إلى الأنبياء محوط بضمان إلهي يمنع التزئد على النص ويحول دون التدخل الشيطاني في التبليغ ..

قال سبحانه :

﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾<sup>(١)</sup>.

وإذا كان الشيطان قد مُنع شرعاً من التمثل بالرسول ﷺ في الرؤيا، ففي الحديث الصحيح «من رآني في المنام فقد رآني فإنَّ الشيطان لا يَتمثل بي».

وإذا كان الرسول قد أخبر أن الشيطان لا يلقى عمر بن الخطاب في طريق واحدة فقال: «ما سلك عمر فجاً إلاَّ وسلك الشيطان فجاً آخر» ..

فهل يتصور أن يوقع الشيطان في وحي الله إلى رسله؟!!

وهل يعقل أن يتمكن الشيطان من التلبس على الأنبياء؟!!

وقد رأيت للإمام الرازي فكرة نفيسة، تجعل وصول كلام الله تعالى إلى الملك ثم إلى الرسول ثم إلى الأمة قائماً على معجزة خاصة تقطع بيقين مصدره .. فهو يقول:

«إن الرسول إذا سمعه (كلام الله تعالى) من الملك كيف يعرف أن ذلك المبلغ ملك معصوم لا شيطان مصل؟!!

والحق أنه لا يمكنه القطع بذلك إلاَّ بناء على معجزة تدل على أن ذلك المبلغ ملك معصوم لا شيطان خبيث .. وعلى هذا التقدير فالوحي من الله تعالى لا يتم إلاَّ بثلاث مراتب في ظهور المعجزات.

المرتبة الأولى: أن الملك إذا سمع ذلك الكلام من الله تعالى فلا

---

(١) سورة الجن، آية: ٢٦ - ٢٨.

بدُّ له من معجزة تدل على أن ذلك الكلام كلام الله تعالى .

المرتبة الثانية : أن ذلك الملك إذا وصل إلى الرسول لا بدُّ له أيضاً من معجزة .

المرتبة الثالثة : أن ذلك الرسول إذا أوصله إلى الأمة فلا بدُّ له أيضاً من معجزة .

فثبت أن التكليف لا يتوجه على الخلق إلاً بعد وقوع ثلاث مراتب في المعجزات»<sup>(١)</sup> .

ونسوق نموذجاً لكيفية تيقن النبي بمصدر الوحي إليه من حياة سيدنا محمد ﷺ .

أولاً :

كان محمد ﷺ يتحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد، ويخلو في هذا المكان يتأمل في ملكوت السموات والأرض، ويطعم من جاءه من المساكين وعابري السبيل . .

الأمر الذي يجعل النفس أكثر إشراقاً، وأقرب إلى الفيض الإلهي . .

ثانياً :

ثبت في صحيح مسلم أن الرسول ﷺ قال : إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن» .  
ويروي ابن إسحق :

أن رسول الله ﷺ حين أراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته<sup>(٢)</sup> أبعد حتى تحسر<sup>(٣)</sup> عنه البيوت ، ويفضي إلى شعاب مكة ويطون أوديتها .

---

(١) التفسير الكبير حـ ٢٧ ص ١٨٩ ط دار إحياء التراث العربي - بيروت .

(٢) قضاء الحاجة .

(٣) تنقطع عنه البيوت ويبعد عنها .

فلا يمر رسول الله ﷺ بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت رسول الله ﷺ حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة.

فمكث رسول الله ﷺ كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان..»<sup>(٣)</sup>.

ويمكن فهم تسليم الحجر والشجر كما نفهم سائر خوارق العادات فهي فعل الله تعالى الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهي غير مألوفة للبشر..

أو أن هذا التسليم مجاز عن أصوات ملائكة تناجي الرسول دون أن يراهم، فيظن الأصوات صادرة عما حوله من حجر أو شجر..

وعلى كل فالمقصود هو التهيئة النفسية والروحية لتحمل الرسالة وتلقي الوحي عن طريق الإرهاص الشخصي..

ثالثاً:

قبل تلقي الوحي بستة أشهر مكث ﷺ لا يرى رؤيا إلا تحققت كما رآها..

وفي ذلك ما يمهد لربط النبي بالملا الأعلى، ويقوي يقينه برعاية الله له وكفالاته إياه.

رابعاً:

عندما فجأ الوحي محمداً ﷺ أول مرة وهو في غار حراء ورجع إلى زوجته خديجة، وقصّ عليها ما حدث؛ أفضى إليها بمكنون سره وقال:

---

(١) الروض الآنف ح ١ ص ٢٦٦.



لقد خشيت على نفسي...!!

هنا بدأت هذه السيدة الحكيمة تسلك أكثر من طريق كي تستوثق مما حدث:

١ - بحثت عن السلوك الشخصي لسيدنا محمد وعلاقاته الاجتماعية فرأتها على المستوى الرفيع فقالت:

أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً..

والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق<sup>(١)</sup>.

٢ - قامت بتجربة عملية.. فتروي كتب السيرة أنها قالت لرسول الله ﷺ:

أي ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟!

قال: نعم.

قالت: فإذا جاء فأخبرني به.

فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع، فقال رسول الله ﷺ لخديجة: يا خديجة هذا جبريل قد جاءني.

قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى، فقام رسول الله فجلس عليها.

قالت: هل تراه؟ قال: نعم.

---

(١) راجع حديث بدء الوحي في صحيح البخاري ح ١.

قالت: فتحوّل فاجلس على فخذي اليمنى، فتحوّل رسول الله فجلس على فخذه اليمنى.

فقالت: هل تراه؟! قال: نعم.

قالت: فتحوّل فاجلس في حجري، فتحوّل رسول الله فجلس في حجرها.

قالت: هل تراه؟! قال: نعم.

فتحسّرت وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها ثم قالت له: هل تراه؟! قال: لا.

قالت: يا ابن عم أثبت وأبشّر فوالله إنه لملك، وما هو بشيطان.

٣- أخذت السيدة خديجة تسائل أهل الخبرة فذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان امرأً تنصّر في الجاهلية، وعلى علم بأخبار أهل الكتاب..

وتحدثت خديجة مع ورقة في شأن محمد ﷺ وما لقي في الغار، والتقى ورقة بسيدنا محمد وسمع منه خبر ما رأى فوصل إلى نتيجة حاسمة ألقي بها في سمع الزمان:

«والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى».

وتضيف بعض الروايات أن السيدة خديجة ركبت إلى بحيرى الراهب فسألته عن جبريل فقال:

قدوس.. قدوس.. يا سيدة نساء قريش أنى لك بهذا الاسم؟!!

قالت:

بعلي وابن عمي محمد أخبرني أنه يأتيه.

فقال:

قدوس.. قدوس.. ما علم به إلا نبيّ مقرب، فإنه السفير بين الله وبين أنبيائه، وإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به، ولا أن يتسمّى باسمه. وكان بمكة غلام لعتبة بن ربيعة اسمه عداس، عنده علم من الكتاب فأرسلت إليه تسأله عن جبريل فقال: قدوس.. قدوس، أنى لهذه البلاد أن يذكر فيها جبريل يا سيدة نساء قریش؟!

فأخبرته بما يقول النبي ﷺ فقال لها عداس مثل ما قاله الراهب.. فكان مما زادها الله تعالى به إيماناً و يقيناً<sup>(١)</sup>.

خامساً:

بعد اللقاء الفريد في غار حراء بين الرسول وجبريل؛ انقطع الوحي فترة من الزمن تشوّق الرسول خلالها لمعاودة اللقاء، فتتبع رؤوس شواهد الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً..

فيسكن لذلك جأشه، وتقرّ عينه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا كمثل ذلك.

وذات يوم رأى الرسول الملك في صورته الحقيقية، ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال:

سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسيه بين السماء والأرض فجثت منه رعباً، فرجعت فقلت: زملوني.. زملوني.. فدثروني فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها

---

(١) الروض الأنف ح ١ ص ٢١٥.

المدثرُ قُمْ فَاَنْذِرْ، وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ. ﴿١﴾

وبهذا يحصل الترقى في الاستعداد، ويثبت العزم على تبليغ الدعوة، وهكذا يتوالى التأكيد تلو التأكيد..

فيقين النبي - أي نبي - بمصدر الوحي إليه ثابت وواقع، وتصحبه بينات من الأمر ودلائل تؤكد في قلب النبي وعقله اتصاله بالملا الأعلى واصطفاءه من رب العالمين.

وقد أثبت الله تعالى للنبي هذا الإيمان كما أثبتة للمؤمنين فقال ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾ ﴿٢﴾.

\* \* \*

---

(١) سورة المدثر، آية: ١ - ٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٥.

## قصة الغرائق

وقد ذكر بعض المفسرين وأهل السير قصة الغرائق، وساقوا لها روايات متعددة، وهي لو أخذت على ظاهرها تكون قاذحة في مبدأ الضمان الإلهي للوحي، وقد تلقي ظلالاً على ضرورة يقين الأنبياء بالاصطفاء، وضرورة ثبوت العصمة لهم في مجال التبليغ عن الله تعالى..

والغرائق مراد بها الأصنام وهي في الأصل نوع من الطير طويل العنق يشبه به في الجمال..

من هذه الروايات ما سيق عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن أنيس قالوا: جلس رسول الله ﷺ في نادٍ من أندية قريش كثير أهله، فتمنى يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه..

فأنزل الله عليه: ﴿والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى﴾. فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾<sup>(١)</sup>، ألقى عليه الشيطان كلمتين:

تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى فتكلم بها ثم مضى فقرأ السورة كلها فسجد في آخر السورة، وسجد القوم جميعاً معه، ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه،

---

(١) سورة النجم، آية: ٢٩، ٢٠.

وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود.

فرضوا بما تكلم به وقالوا:

قد عرفنا أن الله يحيي ويميت، وهو الذي يخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، إذ جعلت لها نصيباً فنحن معك. فلما أمسى أتاه جبرائيل عليه السلام فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال: ما جئتكم بهاتين..

فقال رسول الله ﷺ: أفتريتُ على الله وقلتُ على الله ما لم يقل؟!.

فأوحى الله إليه ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾<sup>(١)</sup>.

فما زال مغموماً مهموماً حتى نزلت عليه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup>.

فسمع من كان من المهاجرين بأرض الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا كلهم فرجعوا إلى عشائرتهم وقالوا: هم أحب إلينا.

فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان».

تأويلات فاسدة:

وقد أجهد المفسرون أنفسهم في تأويل هذه الروايات إذ وضعوها في مقابلة العصمة للرسول على مستوى واحد، وأخذوا يوفقون بينهما..

من هذه التأويلات:

١ - إن النبي ﷺ كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلاً ويفصل الآي تفصيلاً في قراءته، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات، ودسه فيها ما

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٣، ٧٥.

(٢) سورة الحج، آية: ٥٢.

اختلقه من تلك الكلمات، محاكياً نعمة النبي ﷺ وأشاعوها..  
ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها  
الله وتحقيقهم من حال النبي ﷺ في ذم الأوثان وعيها ما عرف عنه..  
فيكون ما روي من حزن النبي ﷺ لهذه الإشاعة والشبهة وسبب  
الفتنة.

٢ - قال بعضهم إن «في» بمعنى «عند»، أي ألقى الشيطان في قلوب  
الكفار عند تلاوة النبي ﷺ، كقوله عز وجل «ولبثت فينا»<sup>(١)</sup> أي عندنا.  
فالأمنية بمعنى التلاوة كما قال تعالى: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون  
الكتاب إلا أمانياً﴾<sup>(٢)</sup> أي قراءة، لأن الأمي لا يعلم الكتاب من الصحف  
وإنما يعلمه قراءة، وكما قال حسان بن ثابت:  
تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر  
فالمشركون هم الذين توبهموا أن النبي قال هاتين الكلمتين..

٣ - ذهب آخرون إلى أن المتكلم بذلك بعض شياطين الأنس وهم  
الكفار، فإنه عليه الصلاة والسلام لما انتهى في قراءة هذه السورة إلى هذا  
الموضع وذكر أسماء آلهتهم، وقد علموا من عادته أنه يعيها فقال بعض من  
حضر: تلك الغرائق العلى.. فاشتبه الأمر على القوم لكثرة لغط القوم  
وكثرة صياحهم، وطلبهم تغليظه وإخفاء قراءته، ولعل ذلك كان في صلاته  
عليه السلام لأنهم كانوا يقربون منه في حال الصلاة ويسمعون قراءته  
ويلغون فيها..

فتوهم القوم أنه من قراءة الرسول ﷺ، ثم أضاف الله تعالى ذلك  
إلى الشيطان لأنه بوسوسته يحصل أولاً، ولأنه سبحانه جعل ذلك المتكلم  
في نفسه شيطاناً..

(١) سورة الشعراء، آية: ١٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ٧٨.

٤ - هناك تأويل أكثر قبحاً وهو أن الرسول ﷺ تكلم بهذه الألفاظ سهواً، أو قسراً، أو اختياراً..

فعلى الأول يقول قتادة ومقاتل إن الرسول كان يصلي عند المقام فنفس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان!!..

وقال قوم إن الشيطان أجبر النبي ﷺ أن يتكلم بهذا!!..

ويروى عن ابن عباس أن شيطاناً يقال له الأبيض أتى النبي ﷺ على صورة جبريل، وألقى عليه هذه الكلمة، أو أن النبي عليه السلام لشدة حرصه على إيمان قومه أدخل هذه الكلمة من عند نفسه ثم رجع عنها.. ويذهب الزمخشري إلى أن الرسول سبق لسانه على سبيل السهو والغلط<sup>(١)</sup>..

وهذه التأويلات وغيرها لا تغني من الحق شيئاً، ومهما أكثر الناس من تصريف القول فيها فهي حرث في البحر، والتسليم بها قدح في النبوة ونيل من الوحي وافتراء على الرسول.. مع المحققين:

ونحن نرفض الرواية من أصلها، ولا نرقى بها إلى درجة معارضة المقطوع به، ولو شاء ربك لما رواها أحد ولا سطرها..

وحجتنا في ذلك مع المحققين من أهل العلم ما يلي:

أولاً:

الاهتمام بالرواية ومحاولة التوفيق بين المتعارضين إنما يكون إذا تساوت الأدلة واتفقت في درجة الاحتجاج بها..

---

(١) راجع هذه التأويلات وغيرها في تفسير الطبري ج ١٧، ص ١٨٦، وتفسير الزمخشري ج ٣، ص ١٩، وتفسير القرطبي ج ١٢، ص ٨١، وتفسير ابن كثير ج ٣، ص ٢٢٩ وتفسير الرازي ج ٢٣، ص ٥٠.



وعصمة الأنبياء في نطاق التبليغ عن الله تعالى من صميم العقيدة  
وجزئها الذي لا ينفك، وثبوتها بالعقل والنقل، وتظاهرت الآيات على  
إثباتها..

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ  
تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (١).

فكتمان الوحي أو الزيادة عليه معارضة لهذا الأمر الإلهي الصريح،  
وانحراف عن الرسالة التي نيطت بهذا الإنسان المصطفى، وتمرد على  
طاعة الله..

وكل ذلك يستحيل في حق الأنبياء.

وقال سبحانه: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتَنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِيُفْتَرِيَ  
عَلَيْنَا غَيْرَهُ، وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا، وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ  
شَيْئًا قَلِيلًا، إِذَا لَا أَذْقُنَاكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا  
نَصِيرًا ﴾ (٢).

فالآية تتحدث عن نعمة الله تعالى وفضله على نبيه ﷺ حيث عصمه  
العصمة الكاملة، وثبته التثبيت كله رغم محاولاتهم إغراء الرسول بالتخلي  
عن رسالته مقابل الملك عليهم أو السيادة، ورغم شدة البأساء والضراء  
التي ألحقوها بالرسول والمسلمين...

ولولا حرف امتناع لوجود، أي امتنع الركون إليهم لوجود التثبيت  
الإلهي..

ثم نلاحظ أن في الآية تهديداً ووعيداً لأدنى انحراف عن الرسالة  
والميل إلى أهواء المشركين..

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٧٣، ٧٥.

وقال جلَّ شأنه في نفس سورة النجم:  
﴿وما يَنْطِقُ عن الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾.

فغريب أمر هؤلاء المفتونين برواية الغرائيق، لقد كان يكفي مطالعة صدر سورة النجم لنرفض كل ما يتعارض معها..!!

فالرسول ﷺ لا يصدر في فعله ولا قوله التشريعي عن هوى النفس، وإنما يتعاهده الوحي دائماً، ويتنزل عليه الملك الروحاني بماله من قوة وفطنة ووضوح..

وبالتالي لن يستطيع شيطان من الإنس أو الجن أن يفتنه في التَقْوَلِ على الله، أو يزيد فيما أنزل الله، أو ينحرف عن وحي الله.. ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ يُشْرِكُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وقصة الغرائيق ليس لها من الصحة ما يعارض القطعي من العصمة حتى نكلف أنفسنا محاولة التوفيق..

وما ذكره الإمام ابن حجر في قوله<sup>(٢)</sup>:

«إن القصة رويت بثلاثة أسانيد على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتجّ بمثلها من يحتجّ بالمرسل، وكذا من لا يحتجّ به لاعتضاد بعضها ببعض».

فلا يزيد الأمر شيئاً، فلا تزال أدنى مرتبة من ثبوت العصمة للأنبياء..

وقضية الاحتجاج بالمرسل أو عدم الاحتجاج به لا علاقة لها بمجال

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٩، ١٠٠.

(٢) فتح الباري ج ٨، ص ٣٣٣.

العقيدة، وإذا كان من المقرر أن أحاديث الأحاد المرفوعة المتصلة لا تعارض القطعي المتواتر فكيف بالمراسيل؟!..

وكيف بها إذا ناقضت المقطوع به نقلاً وعقلاً؟!..

ثانياً:

إن جمهرة كبيرة من العلماء الثقات طعنوا طعنوا قوية في هذه الروايات، ومالوا بها إلى أنها من وضع الزنادقة وأعداء الدين، وأنها قائمة على التلفيق في الإسناد والكذب في المتن..

قال القاضي عياض في كتاب الشفا<sup>(١)</sup>:

[فيكيفك أن هذا حديث لم يخرجْه أحد من أهل الصحة، ولا رواه بسند صحيح سليم متصل ثقة، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم..

قال أبو بكر البزار: «وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره، إلا ما رواه شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فيما أحسب، والشك في الحديث أن النبي ﷺ كان بمكة وذكر القصة..

ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير.

وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس..

فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف عن طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه، مع وقوع الشك فيه الذي ذكرناه، الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه.

---

(١) نقلاً عن كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٢، ص ٨٢.

وأما حديث الكلبي فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه كما أشار إليه البزار رحمه الله].

وساق الإمام الرازي<sup>(١)</sup>:

أنه روي عن محمد بن إسحق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال: هذا من وضع الزنادقة، وصنف فيه كتاباً..

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم..

وقال الإمام ابن كثير<sup>(٢)</sup>:

«قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرائق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا.. ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح».

وقال العلامة الكرمانى<sup>(٣)</sup>:

«وما قيل كان ذلك بسبب ما ألقى الشيطان في أثناء قراءة الرسول ﷺ:

تلك الغرائق العلا منها الشفاعة ترتجى  
فلا صحة له نقلاً وعقلاً».

ثالثاً:

إن الرواية التي سقناها في مفتح هذه الدراسة عن قصة الغرائق لو تأملناها قليلاً نجد بها مأخذ كثيرة - غير ما يتعارض مع العصمة - منها:

---

(١) التفسير الكبير جـ ٢٣، ص ٥٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم جـ ٣، ص ٢٢٩.

(٣) صحيح البخاري شرح الكرمانى جـ ١٨، ص ١١٦.

أ- قولهم «جلس رسول الله ﷺ في نادٍ من أندية قريش كثير أهله...».

والواقع التاريخي ينبيء أنه في هذا الوقت ما كان الرسول ﷺ والمسلمون يجهرون بالقرآن المجيد في جوف الكعبة أو في أندية قريش، وإنما كانوا يتخافتون بصلاتهم، وقد هاجر بعض المسلمين إلى أرض الحبشة فراراً بدينهم..

ب- قولهم: «فتمنى يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه...».  
يقصدون به أن الرسول ﷺ تمنى مهادنة المشركين في عقائدهم وتأليفهم على ما هم عليه من ضلال..  
فأي منطق هذا؟!.

إن الرسالة الأولى والأساسية للنبي ﷺ هي الدعوة إلى الله وحده وإخلاص العبادة له سبحانه، وقد طلب منهم منذ بدء الدعوة «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا...».

فهل هذه القضية تحتمل المواربة أو التأجيل أو التنازل؟!..  
ولام يدعوهم وعلام يتألفهم إذا نحننا جانب التوحيد؟!..  
ج- قولهم «ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه...»  
هذا يخالف ما ثبت في الصحيح أن أمية بن خلف هو الذي فعل ذلك..  
والقصة كما رواها البخاري في صحيحه خالية تماماً من زيادة إلقاء الشيطان..

ونص الرواية: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:  
«سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس».

وفي رواية أخرى:

أول سورة أنزلت فيها سجدة «والنجم» قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتل كافراً وهو أمية بن خلف.

ولعل سجود المشركين من التأثير البياني المعجز للقرآن العظيم، فهم كانوا يتسمعون للقرآن، ويتحاورون حول حقيقته، ويحاولون إدراك مغزى هذا الوحي كما قال جلّ شأنه:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِإِ الَّذِي الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلَفُونَ﴾.

وقد قال قائلهم<sup>(١)</sup>:

والله إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مُغْدِقُ أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلَى، وإنه ليحطم ما تحته...

رابعاً:

إن الآية الكريمة في سورة الحج - التي جعلوا سبب نزولها قصة الغرانيق - لها من السياق الموضوعي والمعنى الواضح ما يباعد بينها وبين هذه القصة المزعومة..

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

هذه الآية سبقها بأكثر من عشر آيات قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنْ اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

وهي أول آية نزلت في القتال بعد مرحلة طويلة من ضبط النفس وتحمل الأذى..

(١) السيرة النبوية لابن كثير - تحقيق د. مصطفى عبد الواحد ج ١، ص ٤٩٩.

(٢) سورة الحج، آية: ٥٢.

ثم ألمحت الآيات إلى وعد الله تعالى بالنصر لمن يتحمل أمانة التكليف الإلهي ويقود الحياة بمنهج الله .

قال تعالى: ﴿ وَلَيَنْصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصِرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

ثم ساقَت الآيات عبرة القرون الأولى وما فعله الله بالقرى الظالمة . .

قال سبحانه: ﴿ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ ﴾ .

وتؤكد الآيات أن مشركي قريش على شاكله من سبقهم من المكذبين، وشأن الرسول ﷺ أن يندرهم ويوضح لهم العاقبة التي تنتظر الناس، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . .

قال جلّ شأنه: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ، وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ .

ثم تأتي آيتنا في هذا السياق الموضوعي لتضع الحقيقة الكاملة أمام الرسول ﷺ . .

فهو ليس بدعاً من الرسل، وكل نبي كان حريصاً على هداية قومه، يشقّ عليه مخالفتهم، ويحزنه إعراضهم، ويود أن لو استقاموا على الطريقة . .

هذه أمنية كل رسول ونبي . .

وقد أثبت الله تعالى هذا المعنى لسيدنا محمد ﷺ في أكثر من آية فقال: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨ .

وقال جلّ شأنه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا  
بهذا الحديثِ أَسَفًا﴾<sup>(١)</sup>.

وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا  
يَصْنَعُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولكن الحياة لا تخلو من عقبات ..

وشياطين الإنس والجن يقفون بالمرصاد لكل دعوة حق .. يلقون  
الشبه ويشيرون الفتنة ويفسدون في الأرض، كما قال جلّ شأنه:

﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي  
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا  
يَفْتَرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

ويظل المؤمنون الصادقون في جهاد وبلاء وتمحيص حتى يأتي وعد  
الله ويتحقق نصر الدين والملة وتصبح كلمة الله هي العليا ..

وهنا تتخاذل الشياطين، وتزول مكائدهم وتطهر الأرض من رجسهم  
﴿فَيَنْسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وتلك سنة جارية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. عبّر عنها  
القرآن في أكثر من آية قبل قوله سبحانه:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ  
الْكَافِرُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

\* \* \*

---

(١) سورة الكهف، آية: ٦.

(٢) سورة فاطر، آية: ٨.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١١٢.

(٤) سورة الصف، آية: ٨.



- ٤ -

## الوحي المحمدي

- الرؤيا الصالحة .
- لقاء إسرافيل .
- صلصلة الجرس .
- تشكّل الملك بصورة رجل .
- رؤية الملك في صورته الحقيقية .
- المناجاة في الحضرة الإلهية .
- تذييل .



## الوحي المحمدي

نقف هنا وقفة نستجلي فيها صور الوحي الإلهي التي صاحبت الاصطفاء لسيدنا محمد ﷺ، وهي صور لا يجمعها نص ديني واحد، وإنما استقرأها العلماء من تتبع أحوال الوحي مع الرسول الكريم..

وهي - في جوهرها - تلتقي مع الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسَلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾<sup>(١)</sup>.

وقد جمع الله لرسوله محمد ﷺ ما تفرق في الرسل، فتحققت له كل أنواع الوحي..

وصور الوحي المحمدي على النحو التالي..

أولاً: الرؤيا الصالحة:

جاء في صحيح البخاري عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح..».

فالرؤيا الصالحة كانت تمهيداً للوحي وتقدمة للنبوة، تجعل الرسول في تهيئة نفسية لما ينتظره من الكرامة..

---

(١) سورة الشورى، آية: ٥١.

وهذه الرؤيا من الصدق والوضوح بحيث تتحقق في اللحظة كما رآها في النوم أو بحيث تعبّر وتكون أعلام خير وبشائر هدى ..

وقد بدأت هذه المرحلة قبيل لقاء غار حراء بستة أشهر واستمرت بقية عمره الشريف ..

ولا نعرف نماذج من الرؤى قبل النبوة ولكن جاء القرآن وجاءت السنة الصحيحة بنماذج من الرؤى التي وقعت بعد النبوة، منها على سبيل المثال ..

١ - قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا، وَلَوْ أَرَأَاهُمْ كَثِيرًا لَفَاسَلْتَهُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾<sup>(١)</sup>.

ففي غزوة بدر الكبرى واجه المسلمون المشركين في أول واقعة حربية حاسمة، وكان المشركون ضعف عدد المسلمين، وقد وقعت رؤيا لرسول الله ﷺ خلال المعركة شاهد فيها المشركين قلة قليلة فأخبر أصحابه يومئذ قائلاً: «كأنني أنظر إلى مصارع القوم» وتلك بشرى لإلهية حتى يشتد العزم وتقوى الإرادة ويزداد الإقدام ..

٢ - قال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ...﴾<sup>(٢)</sup>.

فقد أخبر الرسول ﷺ صحابته في العام السادس للهجرة برؤيا حق شاهد فيها المسلمين داخلين المسجد الحرام في أمن تام مؤدّين المناسك ..

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٤٣.

(٢) سورة الفتح، آية: ٢٧.

ولما سار المسلمون ووصلوا إلى الحديبية لم يشك جماعة منهم أن  
الرؤيا النبوية تتحقق عامهم هذا.. . وحين وقع ما وقع من صلح الحديبية  
تساءل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال:  
ألم تخبرنا أن سنأتي البيت ونطوف به؟! .

قال عليه الصلاة والسلام:  
بلى، أفأخبرتكَ أنك آتية عامك هذا؟! .

قال عمر: لا .

قال عليه الصلاة والسلام: فإنك آتية ومطوف به..!!

وفعلًا ففي العام السابع وفي ذي القعدة أدى الرسول والمسلمون  
عمرة القضاء ودخلوا مكة معتمرين ملبين بعد سبع سنين طوال حُرِّموا  
خلالها من رؤية الكعبة المشرفة.. .

وتجمع المشركون رجالاً ونساءً وصبيّةً، وتزاحموا ليرَوْا هذا النبي  
القائد يحيط به المهاجرون والأنصار في ولاء كامل وحب كبير وطاعة  
مطلقة<sup>(١)</sup>.. .

٣- جاء في صحيح البخاري أن ابن عمر رضي الله عنهما قال:  
سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بيننا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه  
حتى إني لأرى الريّ يخرج من أظفاري ثم أعطيت فضلي عمر.. .  
قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ .

قال: العلم» .

فهنا عبّر الرسول رؤياه، وفسّر اللبن بالعلم في كثرة الانتفاع بهما،  
ويظهر من ذلك فضل عمر، فهو الفاروق الذي كان إسلامه فتحاً، وهجرته  
نصراً وخلافته رحمةً.. .

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا «الرسول حول الكعبة» ص ٤٥ .

٤ - وفي صحيح البخاري أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال :  
قال رسول الله ﷺ : «بينما أنا نائم رأيت الناس يُعرضون عليّ ،  
وعليهم قمص ، منها ما يبلغ الثدي ، ومنها ما يبلغ دون ذلك ، ومرّ عليّ  
عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره . .  
قالوا : ما أولته يا رسول الله ؟ .

قال : الدين .» .

وتعبير الرؤيا هنا بتفسير القميص بالدين ، لأن الأول يستر العورة في  
الدنيا ، والثاني يستر العورة في الآخرة ، والقميص به كمال الإنسان في  
مظهره ، والدين به كمال الإنسان في حقيقته وباطنه ، وعمر رضي الله عنه  
له من سابقته في الإسلام وجهاده مع رسول الله ونصرتة للمسلمين وخدمته  
إياهم ما يجعله من أعلام الصحابة المبشرين بالجنة والفائزين بالرضوان .

٥ - وجاء في الصحيح أيضاً :

«بينما أنا نائم أتيت خزائن الأرض فوضع في يدي أسوران من  
ذهب ، فكبرا عليّ ، وأهْمَانِي ، فأُوحِي إلي أن انفخهما ، فنفختهما فذهبا .  
فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما ، صاحب صنعاء وصاحب  
اليَمَامَةِ» .

والمعنى أن الرسول ﷺ أول سوارِي الذهب اللذين طارا من يديه  
بالعنسي متنبئ صناعاء ، ومسيلمة متنبئ اليَمَامَةِ ، وأن هذين الشخصين  
الكذابين سيذهب كيدهما وينمحق شأنهما . .

وقد وقع ذلك كما أخبر الصادق المصدوق . .

ثانياً : لقاء إسرائيل :

ذكرت كتب السيرة وبعض المسانيد في السنة أن الرسول ﷺ تلقى  
وحي الملك إسرائيل مدة ثلاث سنين لم ينزل فيها شيء من القرآن .

وإنما كانت هذه المرحلة توسّطاً بين الرؤيا الصالحة وتتابع الوحي بالقرآن الكريم بواسطة الملك جبريل، أو كانت في المدة التي فتر فيها الوحي بعد لقاء غار حراء..

فالقرآن الكريم هو وحي الله بواسطة جبريل فقط، وكان إسرائفيل يتنزل يعلمه الكلمة والشئ مما يريد الله عزّ وجلّ..

وفي مسند الإمام أحمد عن الشعبي:

أن رسول الله ﷺ نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرائفيل عليه السلام ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة والشئ ولم ينزل القرآن، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه السلام فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة، عشراً بمكة وعشراً بالمدينة، فمات وهو ابن ثلاث وستين سنة».

ونقل الإمام السيوطي عن ابن عساكر قوله:

«والحكمة في توكيل إسرائفيل به أنه الموكل بالصُّور الذي فيه هلاك الخلق وقيام الساعة، ونبوته ﷺ مؤذنة بقرب قيام الساعة وانقطاع الوحي»<sup>(١)</sup>.

وإثبات هذا اللون من الوحي بلقاء إسرائفيل يتعارض مع حديث بدء الوحي للسيدة عائشة، المخرج في الصحيحين..

وموقف العلماء من هذا إما التوفيق أو الترجيح..

وممن وفق الإمام أبو شامة قال:

وحديث عائشة لا ينافي هذا، فإنه يجوز أن يكون أول أمره الرؤيا، ثم وكلّ به إسرائفيل في تلك المدة التي كان يخلو فيها بحراء، فكان يلقي إليه الكلمة بسرعة، ولا يقيم معه تدريجاً وتمريناً، إلى أن جاءه جبريل فعلمه بعدما غطّه ثلاث مرات.

(١) الإتيان في علوم القرآن ج ١، ص ٦٠ ط. الحلبي.

فحكّت عائشة ما جرى له مع جبريل ولم تحك ما جرى له مع  
إسرافيل اختصاراً للحديث، أو لم يكن وقفت على قصة إسرافيل...»<sup>(١)</sup>.

ومن العلماء من رجّح رواية عائشة ورفض رواية الشعبي، ونقل  
الإمام العيني أن الواقدي وغيره أنكروا كون النبي ﷺ وكُل به غير جبريل  
عليه السلام<sup>(٢)</sup>.

ونقل الطبري قول الواقدي:

«فذكرت ذلك لمحمد بن صالح بن دينار فقال: والله يا ابن أخي لقد  
سمعت عبدالله بن أبي بكر بن حزم، وعاصم بن عمر بن قتادة يحدثان في  
المسجد، ورجل عراقي يقول لهما هذا، فأنكراه جميعاً وقالوا: ما سمعنا  
ولا علمنا إلا أن جبريل هو الذي قُرّن به، وكان يأتيه بالوحي من يوم أن  
نُبّيء إلى أن تُوفي ﷺ»<sup>(٣)</sup>.

ومما استدل به البعض على توهين رواية الشعبي ما جاء في الطبراني  
والبيهقي بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل على الصفا، فقال رسول  
الله ﷺ:

يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سَفَةٌ دقيق ولا كَفٌّ  
من سويق...!!

فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هَذّة من السماء أفزعته فقال  
رسول الله ﷺ: أمر الله القيامة أن تقوم؟!.

---

(١) نقلاً عن كتاب «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» للإمام محمد بن يوسف  
الصالحى - تحقيق د. مصطفى عبد الواحد - ج ٢، ص ٣٠٩.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج ١، ص ٤٠.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ج ٢، ص ٣٨٦.



فقال: لا، ولكن أمر إسرائيل فنزل إليك حتى يسمع كلامك، فأتاه إسرائيل فقال:

إن الله تعالى بعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض وأمرني أن أعرض إليك أسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة، فقلت: فإن شئت نبياً ملكاً وإن شئت نبياً عبداً؟! .

فأوماً إليه جبريل أن تواضع، فقال بل نبياً عبداً.. ثلاثاً<sup>(١)</sup>.

ورواه ابن حبان في صحيحه مختصراً من حديث أبي هريرة ولفظه: جلس رسول الله ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال له جبريل:

هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة.. وذكر الحديث<sup>(١)</sup>.

فمن هذه الآثار فهم البعض أن إسرائيل لم ينزل على رسول الله قبل هذا اللقاء مع جبريل فكيف يستقيم أن يكون مكث مع الرسول ثلاث سنين قبل مجيء جبريل؟! .

ومهما يكن من أمر فإن جانب التوفيق أرجح لما يلي:

١ - إن إثبات لقاء إسرائيل لا ينافي أن القرآن كله نزل به جبريل الأمين.

٢ - إن مهمة إسرائيل كانت تهيئة نفسية وتدريباً وتمريناً..

٣ - إن ما نقله الواقدي بأن مشايخه قالوا: ما سمعنا ولا علمنا..

لا ينفي القضية في واقعها، فعدم سماعهم أو علمهم لا ينفي الأمر في ذاته.

٤ - إن رواية الطبراني لا يفهم منها أن نزول إسرائيل مع جبريل على

---

(١) نقلاً عن كتاب «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» ج ٢، ص ٣١٠.

الصفاء كان ابتداء ولأول مرة، وليس هناك تعارض بين لقاء إسرائفيل في ابتداء النبوة وبين نزوله حينذاك . .

ففي الأول كان يعلمه الكلمة والشيء، وفي الثاني كان للتخيير بين النبي الملك وبين النبي العبد، ولعل هذا اللقاء الثاني كان امتداداً للمرحلة الأولى، بل هذه الرواية تؤكد علاقة إسرائفيل بالنبوة والوحي . . !!

### ثالثاً: صلصلة الجرس:

في صحيح البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ .

فقال عليه الصلاة والسلام:

«أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال . . .» .

الصلصلة هي الصوت القوي . .

والمعنى أن لحظة الإيحاء هذه يجتمع لها من اليقظة والوعي والتغيرات النفسية والعضوية ما يشدّ النبي شدّاً قوياً لتلقّي الوحي، وتحاط هذه اللحظة بأصوات الملائكة المصاحبين لجبريل، حتى يتفرغ الوعي كله لمصدر الوحي . .

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال:

«ما جاء جبريل بالقرآن إلى النبي ﷺ إلا ومعه أربعة من الملائكة حفظة» .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال:

«كان النبي ﷺ إذا بُعث إليه الملك بُعث ملائكة يحرسونه من بين

يه ومن خلفه أن يتشبه الشيطان على صورة الملك»<sup>(١)</sup>.

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يحسّون بهذه الأمور الطارئة، وقد عبّر عنها عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قال:  
«كنا نسمع عنده مثل دويّ النحل».

وهذه الحالة هي أشد حالات الوحي، وقد جاء في الأحاديث الشريفة ما يشير إلى هذه الشدة، ويصف ما يعتري النبي عندها، ففي حديث عائشة السابق تقول:

«ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً».

وفي حديث الإفك قالت عائشة رضي الله عنها:  
«فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء»<sup>(٢)</sup> عند الوحي، حتى إنه ليتحدّر منه مثل الجمان<sup>(٣)</sup> من العرق، في اليوم الشاتي، من ثقل القول الذي أنزل عليه».

وفي حديث عبادة بن الصامت قال:  
«كان نبي الله عليه الصلاة والسلام إذا أنزل عليه؛ كرب لذلك وتربّد»<sup>(٤)</sup> وجهه».

فهذه المعاناة وتلك المكابدة في تلقّي الوحي هي تفسير لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾<sup>(٥)</sup>.

---

(١) نقلاً عن كتاب «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي جـ ١، ص ٥١.

(٢) البرحاء - بضم الباء وفتح الراء - شدة الكرب وشدة الحمى.

(٣) الجمان - بضم الجيم وتخفيف الميم - جمع جمانة وهي حبة تعمل من فضة كالدرّة.

(٤) أي تغير لونه.

(٥) سورة المزمل، آية: ٥.

فنقل القول في تلقّيه وحياً وفي التزامه عملاً والقيام به تكليفاً .

لكن مع تكرار الوحي وتتابع النزول تخفّ حدة هذه الأعراض ويصبح الأمر أيسر من ذي قبل .

وإذا قارنا بين القرآن في عهده المكي والمدني نلاحظ أن الآيات المكية أقصر على وجه العموم من الآيات المدنية، بل إن أطول آية في القرآن هي آية المداينة في سورة البقرة - وهي مدنية .

ونجد أيضاً أن السور المدنية - على جهة العموم - أطول كثيراً من السور المكية، اللهم إلا ما ندر كسورة النصر المدنية .

ويظهر كذلك أن النجم القرآني - وهو القدر المنزل من الآيات مرة واحدة - في عهده المكي قليل الآيات، وانظر - مثلاً - النجم الأول من القرآن، وهو الآيات الخمس الأول من سورة العلق، وقارن بها نزول صدر سورة براءة إلى ما يقرب من أربعين آية في العهد المدني . .

بل أحياناً تنزل السورة كلها، ففي مسند أحمد عن أسماء بنت يزيد قالت :

«إني لأخذة بزمام العضباء، ناقة رسول الله ﷺ، إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة» .

وفي رواية: فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها .

وثبت في الصحيحين نزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ مرجعه من الحديبية، وهو على راحلته . .

وأخيراً نستحضر صورة اللقاء الأول في غار حراء :

«فجاءه الملك فقال: اقرأ .

قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ قلت: ما أنا بقارئ .

قال: فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني .

فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارىء .

فأخذني فغطّني الثالثة . . . إلخ» .

استحضر معي هذه الصورة ومشاقّها وما خلّفته من آثار نفسية جعلت الرسول يرجع إلى السيدة خديجة يرجف فؤاده، ويقول زمّلوني . . زمّلوني، حتى ذهب عنه الروح .

وأضف إليها صورة اللقاء المتكرر في رمضان لمدارسة القرآن، ففي الصحيح «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الرياح المرسلّة .

رابعاً: تشكّل الملك في صورة رجل :

قدرة الملك على التشكّل بالصورة البشرية محل اتفاق أهل الأديان جميعاً، لقد نزل الملائكة على إبراهيم الخليل ضيفاً مكرمين، وقدم لهم عجلًا حنيذًا، ولم يعرف أنهم ملائكة إلا حين أفصحوا له عن حقيقة أمرهم . .

قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا، قَالَ سَلَامٌ قَوْمٍ مُنْكَرُونَ، فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَغْلَامٍ عَلِيمٍ . . ﴾<sup>(١)</sup> .

وأتى الملائكة لوطاً عليه السلام في صورة شباب بهيّ الطلعة، جميل المنظر . .

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٢٤ - ٢٨ .

قال سبحانه: ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يومٌ عَصِيبٌ، وجاءه قومه يهرعون إليه..﴾ (١).

وبعث الله إلى مريم البتول جبريل عليه السلام في صورة بشر سوي يبشرها باصطفائها واصطفاء وليدها..

قال جلّ شأنه: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً..﴾ (٢).

وانطلاقاً من هذه الحقيقة (٣) كان جبريل عليه السلام يتنزل على سيدنا محمد ﷺ ويتمثل له في صورة رجل.. وقد أخرج البخاري في صحيحه «وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول».

وجاء في السنة الصحيحة أن هذا الرجل اتخذ أكثر من شكل:

١ - فتارة يأتي على صورة رجل أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم ريحاً ولا يعرفه أحد من الصحابة، وتعددت الروايات في ذلك.

ففي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام».

فقال رسول الله ﷺ:

الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم

---

(١) سورة هود، آية: ٧٧ - ٧٨.

(٢) سورة مريم، آية: ١٧.

(٣) الفرق بين تشكّل الملك وتشكّل الجن، أن الملك يتشكّل بالصورة الحسنة فقط ولا تحكم عليه الصورة أما الجن فيتشكّل بالحسن والقيبح وتحكم عليه الصورة.

الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً.

قال: صدقت.

فعجبنا له يسأله ويصدقه.

وقال: فأخبرني عن الإيمان.

قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

قال: صدقت.

قال: فأخبرني عن الإحسان.

قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال: فأخبرني عن الساعة.

قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.

قال: فأخبرني عن أماراتها.

قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان.

ثم انطلق فلبثنا ملياً ثم قال: يا عمر أتدري من السائل؟.

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال:

«كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟.

قال: أن تؤمن بالله وملائكته وبلغائه ورسله، وتؤمن بالبعث

قال: ما الإسلام؟.

قال: أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان.

قال: ما الإحسان؟

قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال: متى الساعة؟

قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربّتها، وإذا تناول رعاية الإبل البهم<sup>(١)</sup> في البنيان، في خمس<sup>(٢)</sup> لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

ثم أدبر، فقال ردوه، فلم يروا شيئاً، فقال:

هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم».

وقد أتى جبريل على هذه الصورة ليخفي على الناس في بادئ الأمر، ويتطلعوا إليه في ضعف، ويتأملوه في تعجب كي تقوى ملكتهم في تتبع أسئلته وحفظ الجواب عنها، ولأن القضية قضية تعليم لهم وبيان فاتخذت هذا الشكل من الحوار لفتاً للأنظار وترسيخاً لحقائق الإيمان..

ووقعت في هذا اللقاء بعض الأمور التي ساعدت على هذا الهدف:

- فالرجل على صورة وضاعة، وهو ليس من أهل المدينة فلا يعرفه أحد، وليس قادماً من سفر فثيابه بيضاء ولا يُرى عليه عناء ولا إرهاق..

---

(١) روي برفع «البهم» صفة للرعاة والمعنى الرعاة السود أو المجهولون، وروي بالجر صفة للإبل أي الإبل السود وهي شرها.

(٢) خبر مبتدأ محذوف أي علم الساعة في خمس.

(٣) سورة لقمان، آية: ٣٤.



- عندما قدم إلى النبي ﷺ جلس بين جلسة المتعلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه.

- عقب جواب النبي ﷺ كان يقول: «صدقت»، وتعجب الصحابة يسأله ويصدق، فشأن السائل أن يكون جاهلاً بالجواب وخاصة بما يتعلق بأمور الوحي والتشريع، فهي من خصائص النبي فدلّت كلمة «صدقت» على أن سؤاله سؤال عارف محقق..

٢ - وتارة يأتي جبريل في صورة بشرية ويؤم النبي ﷺ عند الكعبة، ويعلمه الصلاة، ويبين له أوقاتها بدءاً ونهايةً، وذلك في غداة الليلة المباركة التي وقع فيها الإسراء والمعراج..

ففي صحيح مسلم عن أبي مسعود رضي الله عنه قال:  
سمعت رسول الله ﷺ يقول: نزل جبريل عليه السلام فأمني فصلّيت معه، ثم صلّيت معه، ثم صلّيت معه، يحسب بأصابعه خمس مرات..

وثبت في سنن أبي داود والترمذي وغيرهما من رواية ابن عباس وغيره في إمامة جبريل أنه صلّى الصلوات الخمس مرتين في يومين، فصلّى الخمس في اليوم الأول أول الوقت، وفي اليوم الثاني آخر وقت الاختيار..

ونصّ الحديث كما رواه الترمذي عن ابن عباس:  
«أمني جبريل عليه السلام عند البيت مرتين، فصلّى الظهر في الأولى منهما حين كان الفياء مثل الشراك، ثم صلّى العصر حين كان كل شيء مثل ظله، ثم صلّى المغرب حين وجبت الشمس وأفطر الصائم، ثم صلّى العشاء حين غاب الشفق، ثم صلّى الفجر حين برق الفجر وحرم الطعام على الصائم..

وصلّى المرة الثانية الظهر حين كان ظل كل شيء مثله لوقت العصر بالأمس، ثم صلّى العصر حين كان ظل كل شيء مثليه، ثم صلّى المغرب

لوقته الأول، ثم صلى العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل، ثم صلى الصبح حين أسفرت الأرض.

ثم الفتت إليّ جبريل فقال: يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت فيما بين هذين الوقتين».

فنحن نعتقد أن هذه الإمامة كانت في الصورة البشرية حتى تتأتى المماثلة والافتداء..

٣ - وأحياناً يأتي الملك على صورة أحد الصحابة وهو دحية الكلبي، كان من كبار الصحابة، وشهد أحداً وما بعدها، وأُعطى شطراً كبيراً من الحسن حتى قيل إن دحية إذا قدم المدينة لم تبق معصر<sup>(١)</sup> إلا خرجت تنظر إليه لفرط جماله، ويروى أنه كان يمشي متلثماً يستر وجهه متحرجاً من فتنة النساء به..

قال ابن حجر:

وكان جبرائيل عليه السلام ينزل على صورته (دحية الكلبي)، جاء ذلك من حديث أم سلمة، ومن حديث عائشة، وروى النسائي بإسناد صحيح عن يحيى بن معمر عن ابن عمر رضي الله عنهما: «كان جبرائيل يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي».

وروى الطبراني من حديث عفير بن معدان عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ قال:

«كان جبرائيل يأتيني على صورة دحية الكلبي، وكان دحية رجلاً جميلاً»<sup>(٢)</sup>.

وساق محمد بن سعد روايات في هذا المعنى منها:

---

(١) المعصر: الفتاة إذا اكتملت أنوثتها.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة جـ ١، ص ٤٦٣ ط. المكتبة التجارية الكبرى.

عن عامر الشعبي قال:

شبه رسول الله ﷺ ثلاثة نفر من أمته فقال: دحية الكلبي يشبه جبرائيل، وعروة بن مسعود الثقفي يشبه عيسى بن مريم، وعبد العزى يشبه الدجال.

وعن عائشة قالت:

«وثب رسول الله ﷺ وثبة شديدة فنظرت فإذا معه رجل واقف على برذون، وعليه عمامة بيضاء، قد سدل طرفها بين كتفيه ورسول الله ﷺ واضع يده على معرفة برذونه، فقلت: يا رسول الله لقد راعني وثبتك.. من هذا؟»

قال: ورأيتيه؟ قلت: نعم، قال: ومن رأيت؟

قلت: رأيت دحية الكلبي، قال: ذاك جبريل عليه السلام<sup>(١)</sup>.

وفي أحاديث الإسراء ثبت أن النبي ﷺ قال:

«عُرِضَ عَلَيَّ الأنبياء، فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى بن مريم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم، يعني نفسه، ورأيت جبريل فإذا أقرب من رأيت به شبهاً دحية الكلبي».

وهذا التشكل من الملك بصورة الإنسان لا يعني بحال من الأحوال أنه انقلب عن طبيعته وخرج عن فطرته، ولا يعني أيضاً أنه صار له بدنان أو جسمان، ولا علاقة له بتنقل الأرواح في الأجساد.

كل ما في الأمر أن القدرة على التشكل في الملك تجعله يُرى على أوضاع مختلفة، ويظهر أمام الرائي على أشكال متعددة، وهو هو في حقيقته وطبائعه وسائر أحواله المميزة..

---

(١) الطبقات الكبرى ج ١ القسم الأول ص ١٨٤ ط. مؤسسة دار التحرير.

وأظن أن في التصوير التليفزيوني والسينمائي الآن ما يقرب هذا المعنى، فإن في استطاعة المصور أن يقدم لك صوراً متعددة للشخص الواحد في أوضاع لا نتصورها في الواقع بأن تكون الصورة صغيرة جداً أو كبيرة عن المألوف، أو في حركات لا يمكن أن يأتي بها الشخص في لحظة واحدة..

ولا مجال بعد ذلك لأن يقال:

إذا أتى جبريل النبي ﷺ في صورة دحية فأين تكون روحه؟ أفي الجسد الذي يشبه جسد دحية أم في الجسد الذي خلق عليه، له ستمائة جناح؟!.

فإن كان في الجسد الأعظم فما الذي أتى إلى النبي ﷺ جبريل، لا من جهة روحه ولا من جهة جسده!!.

وإن كانت في الجسد المشبه بجسد دحية فهل يموت الجسد الذي له ستمائة جناح كما تموت الأجساد إذا فارقتها الأرواح؟ أم يبقى حياً خالياً من الروح؟!.

فهذه التساؤلات غير مطروحة إطلاقاً، والأعجب من ذلك هو ما تكلفه العلماء في الجواب عليها..

فقد نقل صاحب السيرة الشامية عدة أجوبة منها:

يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام:

لا يبعد أن تكون انتقالها من الجسد الأول غير موجب لموته، لأن موت الأجساد بمفارقة الأرواح ليس بواجب عقلاً، وإنما هو بعادة مطردة أجراها الله في أرواح بني آدم، فيبقى ذلك الجسد حياً لا ينقص من معارفه وطاعاته شيء..

ويقول العلامة علاء الدين القونوي:

في الممكن أن يخص الله بعض عباده في حال الحياة بخاصة لنفسه

الملكية القدسية، وقوة لها يقدر بها على التصرف في بدن آخر غير بدنها المعهود، مع استمرار تصرفها في الأول.

وقد قيل في الأبدال إنهم إنما سموا أبدالاً، لأنهم قد يرحلون إلى مكان ويقيمون في مكانهم شبحاً آخر تشبيهاً بشبحهم الأصلي بدلاً عنه.

وقد أثبت الصوفية عالماً متوسطاً بين عالمي الأجساد والأرواح، وبنوا على ذلك تجسّد الأرواح وظهورها في صور مختلفة من عالم المثال<sup>(١)</sup>.

وأظن أن هذه الإجابات عقدت القضية أكثر، وزادت المسألة غموضاً، والأمر أهون مما تصور هؤلاء...!!

هذا والفرق بين صورة الوحي في صلصلة الجرس، وصورة الوحي في تشكل الملك بصورة البشر؛ راجع إلى ضرورة المناسبة بين الملك والرسول بإيجاد العامل المشترك الذي يجمع بينهما حتى يمكن التلقي والتعليم والوعي..

ويكون ذلك إما بتقارب الرسول من الملك أو بتقارب الملك من الرسول، والحال الأولى هي الصلصلة بحيث تغلب الأوضاع الروحية، وتعلو فوق المدارك الإنسانية، وينخلع الرسول من صورته البشرية في الوعي والإدراك.

وهذا الوضع يجعل الرسول في شدة وتكلف ومجاهدة..

والحال الثانية هي تشكل الملك بصورة البشر، ويظل الرسول في مداركه الإنسانية المعتادة، فيسهل التلقي والحوار.

ويرى ابن خلدون أن الحال الأولى - وإن كانت أشد - أدنى مرتبة من الثانية، ويذهب إلى أن الأولى رتبة الأنبياء غير المرسلين، فهي بداية الخروج من أفق البشرية إلى أفق الملائكية..

---

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للإمام الصالح الشامي ج ٢، ص ٣٥٨.

وأن الثانية رتبة الأنبياء المرسلين الذين تمرّسوا على الاتصال بالملأ الأعلى، وتكرر لديهم الانسلاخ من البشرية ..

ويذهب ابن خلدون إلى أن التعبير النبوي بصلصلة الجرس وصورة الرجل على التمثيل وليس الحقيقة، تقريباً لحالتي الوحي، وذلك بناء على نظريته في ترتيب الموجودات وقدرتها على الانسلاخ من طبائعها إلى الرتبة العليا ..

وذكر ابن خلدون الحديث الشريف: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول».

وعلق عليه قائلاً:

«واعلم أن الأولى، وهي حالة الدويّ، هي رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حققوه؛ والثانية - وهي حالة تمثل الملك رجلاً يخاطب - هي رتبة الأنبياء المرسلين، ولذلك كانت أكمل من الأولى ..

وإنما كانت الأولى أشدّ لأنها مبدأ الخروج في ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل، فيعسر بعض العسر، ولذلك لما عاج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع، وصعب ما سواه، وعندما يتكرر الوحي ويكثر التلقي يسهل ذلك الاتصال، فعندما يعوج إلى المدارك البشرية يأتي على جميعها وخصوصاً الأوضح منها، وهو إدراك البصر ..

وفي العبارة عن الوعي في الأولى بصيغة الماضي، وفي الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة، وهي أن الكلام جاء مجيء التمثيل لحالتي الوحي، فمثل الحالة الأولى بالدويّ الذي هو في المتعارف غير كلام، وأخبر أن الفهم والوعي يتبعه عقب انقضائه، فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله - العبارة عن الوعي بالماضي المطابق للانقضاء والانقطاع.

ومثل الملك في الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم، والكلام يساوقه الوعي، فناسب العبارة بالمضارع المقتضي للتجدد..»<sup>(١)</sup>.

ونحن نرفض أن تكون العبارة النبوية تمثيلاً وليست حقيقة لما يلي:

أولاً: ابن خلدون فسّر العبارة النبوية «مثل صلصلة الجرس» بأنها الدويّ الذي هو في المتعارف غير كلام، وهذا خلط بين موقفين:

- موقف الرسول عند هذه الحال من الوحي، فكان صوت الملك أو حفيف أجنحة الملائكة المصاحبة لملك الوحي، من القوة والشدة ما قرّبه الرسول إلينا بمثل صلصلة الجرس.

- موقف الصحابة عندما تعتري الرسول هذه الحال أنهم يسمعون دويّاً كدويّ النحل، فقد روى الإمام أحمد والحاكم عن عمر بن الخطاب قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه يسمع عند وجهه كدويّ النحل».

فيتضح من ذلك أن الصلصلة تقرب لصوت الملك وليست تقريباً لحالة من الإنسلاخ عن البشرية.

ثانياً: إن تمثّل الملك بصورة الرجل حقيقة رآها الصحابة وصارت محل إجماع المسلمين، وليست تقريباً لمعنى معين، وحديث الإسلام والإيمان والإحسان وأشراف الساعة؛ جرت وقائعه أمام الصحابة، وأخبرهم الرسول ﷺ أن السائل هو جبريل أتاهم يعلمهم دينهم..

خامساً: رؤية الملك في صورته الحقيقية:

بعد لقاء الغار الأول انقطع الوحي فترة زمنية، اختلف العلماء في مدتها، والمشهور أنها ستان ونصف، ثم انجلى الموقف، وتراءى للرسول جبريل عليه السلام في صورته الملائكية، ونزل عليه صدر سورة المدثر..

فقد أخرج البخاري في صحيحه في كتاب الوحي:

(١) مقدمة ابن خلدون - تحقيق د. علي عبد الواحد وافي ج ١، ص ٤٠٩.

أن جابر بن عبدالله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ۖ ۝ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ فحُمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ ۖ ».

وزاد البخاري في رواية ساقها في باب التعبير:

«وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي - ﷺ - فيما بلغنا حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه وتقرّ نفسه، فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غداً لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك».

وهنا موقف يحتاج إلى تأمل..

فهذه الرواية الأخيرة يفهم منها أن الرسول حاول أن يتحرر بإلقاء نفسه من شاهق الجبل حزناً على انقطاع الوحي..!!

ونحن إذا تأملنا هذه الرواية سنداً - نرى الإمام العيني يقول:

«وهذا من بلاغات معمر، ولم يسنده، ولا ذكر راويه، ولا أنه عليه السلام قاله، ولا يعرف هذا من النبي ﷺ...».

ومن العلماء من قبل هذه الرواية وحاول تعليلها، ويسوق الإمام العيني:

«قد يحمل على أنه كان أول الأمر قبل رؤية جبريل عليه الصلاة والسلام كما جاء مبيناً عن ابن إسحق عن بعضهم.

أو أنه فعل ذلك لما أخرجته تكذيب قومه، كما قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ﴾<sup>(١)</sup>.

(١) سورة الكهف، آية: ٦.



أو خاف أن الفترة لأمر أو سبب، فخشي أن يكون عقوبة من ربه ففعل ذلك بنفسه، ولم يرد بعدُ شرع بالنهي عن ذلك فيعترض به، ونحو هذا قرار يونس عليه السلام حين تكذيب قومه.. والله أعلم»<sup>(١)</sup>.

ونحن نرفض هذه الرواية سنداً وممتناً..

أما من جهة السند فنكتفي بما ساقه الإمام العيني، ولا نجعل للاحتتمالات نصيباً، مثل احتمال أن يكون بلغه من الثقات أو احتمال أن يكون بنفس الإسناد المذكور في حديث بدء الوحي.. فالاحتمال يسقط اليقين..

ومحاولات التعليل السابقة يشوبها الكثير..

فالحمل على أن ذلك كان قبل رؤية جبريل يسقطه نص الرواية القائل: «فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً..

والحمل على أن فعله ذلك خشية تكذيب قومه - غير منطقي لأنه لم يكن كُلف بالرسالة والتبليغ، وما زال مستقبل الوحي غيباً بالنسبة له لا يدري ما الله صانع فيه.

والحمل على خوف أن الفترة لأمر ما فخشي أن يكون عقوبة من ربه لو قبلناه من حيث الشكل فهو مرفوض من حيث الموضوع، فخوف عقوبة الله لا يدفع إلى مزيد من المعصية، وكون الشرع لم يرد بعد بالنهي عن الانتحار ليس مبرراً فإن من بداهة التفكير أن قتل النفس وقتل الغير سواء في الجريمة..

ويضاف إلى ذلك كله أن سيدنا محمداً ﷺ لم يعد نفسه لرسالة، ولم يتوقع نبوة بنص قوله تعالى:

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج ١، ص ٥٥.

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾<sup>(١)</sup>.

ولا يتصور أن يستبدّ به الحزن أو يصل به الشوق إلى الانتحار مع أن سيدنا محمداً ﷺ رجع من لقاء غار حراء يرجف فؤاده ويخشى على نفسه..!!

كل ما يمكن أن يقال إن الرسول الكريم في فترة الوحي حصلت له خواطر وتوقعات وإحساءات نفسية دفعت إليها الإرهاصات التي مرّ بها في الرؤيا الصالحة، والخلة في الغار، ولقاء الملك، فلعله ﷺ غدا إلى شواهد الجبال تطلّعا وترقباً للقاء جديد..

هذا ولقد ظهر جبريل للرسول مرة أخرى في صورته الملائكية ليلة الإسراء والمعراج عند سدرة المنتهى، ذلك المكان العلوي الذي ينتهي إليه ما يهبط من فوق وما يصعد من تحت، والذي توقف عنده جبريل وترك محمداً ﷺ يزجّ به في النور القدسي، وقال له: «وما منا إلا له مقام معلوم»..

وإلى هاتين المرتين في الرؤية لحقيقة جبريل يشير قوله تعالى:

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى، وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى، أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى، وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى .. ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾<sup>(٣)</sup>.

---

(١) سورة يونس، آية: ١٦.

(٢) سورة النجم، آية: ٥ - ١٤.

(٣) سورة التكويد، آية: ٢٣.

ويؤكد هذا المعنى الحديث الشريف في صحيح مسلم بسنده عن مسروق قال:

كنت متكئاً عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية..  
قلت: ما هن؟.

قالت: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئاً فجلستُ فقلت:

يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجلي، ألم يقل الله عز وجل:  
﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾.  
﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾.

فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء، ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض.

فقالت: أو لم تسمع أن الله يقول:

﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾<sup>(١)</sup>.

أو لم تسمع أن الله يقول:

﴿وَمَا كَانَ لَبِشٍ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسَلْ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول:

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٠٣.

(٢) سورة الشورى، آية: ٥١.

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (١).

قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله يقول: ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (٢).

ومن المعروف في فقه العقيدة أن هناك خلافاً بين أهل السنة في رؤية الرسول لربه عز وجل ليلة الإسراء والمعراج، وأن هناك فريقاً على رأسه أم المؤمنين عائشة ينكر هذه الرؤية ويفسر آيات النجم على أنها رؤية لجبريل.

وأن فريقاً آخر على رأسه عبدالله بن عباس يثبت الرؤية ويفسر آيات النجم على أنها رؤية لله عز وجل.

وليس في المسألة قاطع ولا نص صريح، والراجح هو رأي عائشة..

وفي صحيح الحديث أنه أبا ذر سأل رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه؟!».

وقد فسر النور بالحجاب في حديث آخر: «حجابه النور»، فيكون الرسول ﷺ رأى الحجاب الذي هو النور، وقد منعه ذلك من رؤية الرب عز وجل..

وهناك استدلال طريف مأخوذ من ختام آية الإسراء وآية النجم، ففي آية الإسراء قال: ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾.

وفي آية النجم قال: ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾.

فالملاحظ أن الآيتين هنا أثبتتا رؤية الآيات ولم تشيرا إلى رؤية الله،

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) سورة النمل، آية: ٦٥.

ولو وقعت رؤية الله سبحانه كانت أولى بالتسجيل والتنبيه والإشارة...!!  
بل يذهب بعض العلماء إلى أهمية تفسير آيات النجم برؤية جبريل عليه السلام فيقول:

«ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها (رؤية الله) البتة»<sup>(١)</sup>.

سادساً: المناجاة في الحضرة الإلهية:

هذا اللون من الوحي وقع لسيدنا محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج حيث فرضت الصلاة على الأمة الإسلامية من خلال مناجاة علوية قدسية، ناجى فيها الرسول ربه تبارك وتعالى، واشترك فيها موسى عليه السلام..  
وكان ذلك من وراء حجاب فلم تثبت الرؤية لأحد من الأنبياء مطلقاً في هذه الدنيا..

وتخيل معي حديثاً مع الله، هو الصدق كله، والصفاء كله، والنور كله، وتتقاصر الكلمات عن وصف هذه المناجاة، ونكتفي بما يقربها وهو النص الصحيح كما ورد عن المعصوم ﷺ.

ففي صحيح مسلم من رواية ثابت البناني عن أنس:  
«ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى، وإذا ورقها كأذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال..»

قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها.

فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض على خمسين صلاة في كل يوم

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٤ ط. المكتب الإسلامي ١٣٩٩ هـ.

وليلة، فنزلت إلى موسى ﷺ فقال:

ما فرض ربك على أمتك؟.

قلت: خمسين صلاة.

قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك  
فإني قد بلّوتُ بني إسرائيل وخبرتهم.

قال: فرجعت إلى ربي فقلت:

يا رب خفف على أمتي.

فحطّ عني خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت:  
حطّ عني خمساً.

قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام  
حتى قال:

يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر،  
فذلك خمسون.

ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له  
عشرًا.

ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة  
واحدة.

قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته فقال: ارجع إلى  
ربك فاسأله التخفيف.

فقال رسول الله ﷺ:

فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييتُ منه».

ونبه القارئ الكريم إلى بعض ملاحظات:

١ - جاء في بعض الروايات أن المناجاة كانت بعد مرحلة سُمع فيها صريف الأقدام، وهو صوت ما تكتبه الملائكة من أفضية الله تعالى ووحيه وما ينسخونه من اللوح المحفوظ أو ما شاء الله من ذلك أن يكتب..

وجاء في بعض الروايات أن الوصول إلى سدرة المنتهى كان بعد المناجاة..

وسدرة المنتهى أو السدرة المنتهى سميت بذلك لكونها ينتهي إليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها، ولم يتجاوزها أحد إلا الرسول ﷺ.

وعلى كل فالمناجاة وقعت في مكان علوي روعي وضاء..

وليكن معلوماً أن محمداً ﷺ في تلك المناجاة لم يكن أقرب إلى الله مكاناً من موسى عليه السلام وهو في طور سيناء، وإن كان أقرب إلى الله مكاناً ومنزلة ورفعة..

٢ - جاء في بعض الروايات:

«فراجعت ربي فوضع شطرها، قال فرجعت إلى موسى عليه السلام فأخبرته، قال ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، قال: فراجعت ربي فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدي».

وفي رواية:

«فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه، فلم يزل يردّه موسى حتى صارت إلى خمس صلوات».

ولعل الرواية التي فيها الحطّ خمساً هي الأصل، وباقي الروايات اختصرت وأوجزت المراجعات.

٣ - لعل اختصاص موسى عليه السلام بالمراجعة في أمر الصلاة باعتباره صاحب الشريعة السابقة، فإن التوراة هي الأصل الذي توارد عليه

أنبياء بني إسرائيل، حتى إن الجن أنفسهم تفتنوا لهذا المعنى وقالوا:  
﴿إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى﴾<sup>(١)</sup>.

ومن جهة أخرى فإن موسى هو كليم الله وصاحب المناجاة في  
الوادي المقدس طوى، وشأن أصحاب المقامات المتشابهة أن  
يتلاقوا<sup>(٢)</sup>..

## تذييل

يضيف بعض العلماء نوعاً آخر للوحي يسمونه النفث في الروح،  
ويستشهدون له بحديث يقول فيه النبي ﷺ: «إن روح القدس نفث في  
روعي، لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في  
الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما  
عند الله لن ينال إلا بطاعته».

قال الصالح: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب القناعة،  
والحاكم<sup>(٣)</sup>..

ونحن نرى أن إلقاء الملك في قلب النبي لون من ألوان الوحي  
السابقة المتعلقة بجبريل، وعلى الأخص من باب صلصلة الجرس..  
كذلك يضيفون نوعاً من الكلام الإلهي من وراء حجاب، وذلك  
برؤية الرب تبارك وتعالى مناماً، ويسوقون حديثاً تعددت طرقه، منها:

«احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا  
نترأى عين الشمس، فخرج سريعاً، فثوب بالصلاة، فصلى رسول  
الله ﷺ، وتجاوز في صلاته، فلما سلم دعا بصوته فقال لنا: على مصافكم

(١) سورة الأحقاف، آية: ٣٠.

(٢) كتابنا «الرسول حول الكعبة» ص ١٠٥.

(٣) نقلاً عن كتاب «سبل الهدى والرشاد» ج ٢، ص ٣٥٢.



كما أنتم؛ ثم انفتل إلينا فقال: أما إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة..

إني قمت من الليل فتوضأت فصليت ما قُدّر لي، فنعست في صلاتي فاستثقلت فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة فقال: يا محمد، قلت: رب لييك، قال: فيم يختصم الملائ الأعلّى؟.

قلت: لا أدري رب، قالها ثلاثاً.

قال: فرأيتّه وضع كفه بين كتفيّ فوجدت برد أنامله بين ثديي، فتجلى لي كل شيء وعرفت..

فقال: يا محمد، قلت: لييك رب، قال: فيم يختصم الملائ الأعلّى؟

قلت: في الكفارات، قال: ما هن؟.

قلت: مشي الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلاة، وإسباغ الوضوء في المكروهات..

قال: ثم فيم؟.

قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام.

قال: سل، قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك.

قال رسول الله ﷺ: إنها حق فادرسوها ثم تعلموها.

ونحن أمام هذا الحديث نضع مجموعة ملاحظات:

أولاً: علماء السنة مجمعون على أن رؤية الله تعالى يقظة لم تقع لأحد في الدنيا قبل سيدنا محمد ﷺ، بل لم تقع لأحد مطلقاً كما هو رأي السيدة عائشة فكيف نتصور وقوعها مناماً؟! .

فإذا أضفنا ما في هذه الروايات من رؤية الرب تبارك وتقدس على أحسن صورة أو على صورة شاب، ووضع الكف وبرد الأنامل<sup>(١)</sup> - كان التوقف في قبولها راجحاً.

ثانياً: إن الحديث يبدو أنه مقلوب المعنى، فهو يثبت أن الله تعالى هو السائل وأن الرسول هو المجيب، والشأن الصحيح أن يكون الرسول سائلاً ربه عما يجري في الملأ الأعلى ..

ومما يؤكد الاضطراب في هذا الحديث أن الدعاء المذكور في آخره ينسب مرة إلى الله تعالى تعليماً لرسوله، وينسب أخرى إلى الرسول تضرعاً إلى مولاه .. ففي رواية للترمذي عن ابن عباس:

«وقال يا محمد إذا صليت فقل اللهم إني أسألك فعل الخيرات .. إلخ».

وفي رواية لأحمد عن بعض أصحاب النبي ﷺ:

«وقال يا محمد إذا صليت فقل اللهم إني أسألك الطيبات .. إلخ».

وفي رواية للترمذي عن معاذ بن جبل:

«قال: سل قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات .. إلخ».

ويضاف إلى ذلك اضطراب آخر، وهو هل وقعت هذه الرؤية مناماً أم يقظة؟ وهل كانت في صلاة أم لا؟! .

---

(١) راجع الروايات في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» للإمام الهيثمي جـ ١، ص ٢٣٧، جـ ٧، ص ١٧٦، ط. دار الكتاب العربي.

ففي رواية الترمذي عن ابن عباس قال :  
«أحسبه قال في النوم» .

وفي رواية الترمذي عن معاذ قال :  
«فنعست في صلاتي فاستثقلت فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة» .

وفي رواية لأحمد :  
«فنعست في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة...» .

وذهب بعض الشراح إلى أن رواية «حتى استيقظت» تصحيف وأن المحفوظ هو «حتى استثقلت»<sup>(١)</sup> .

ثالثاً: بعض المفسرين ساق هذا الحديث تفسيراً للآية الكريمة ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ .

والحديث والآية بينهما بون شاسع ، فالآية تثبت الوحي للنبي ﷺ بإعلامه بالغيب الذي أوحاه الله تعالى إليه في شأن آدم واختصام الملائكة حول خلقه وأمر الله لهم بالسجود ، ولنقرأ ما قبلها وما بعدها : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ، مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ، إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنْمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ، إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ... ﴾<sup>(٢)</sup> .

والحديث يتعلق بالوضوء والصلاة والحسنات .. فما العلاقة بينهما؟! .

---

(١) راجع «تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذي» تحقيق د. عبد الوهاب عبد اللطيف ج ٩ ، ص ١٠٢ .

(٢) سورة ص ، آية : ٦٧ - ٧٢ .

وقد تفتن الإمام ابن كثير لذلك فقال:  
«وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور في القرآن، فإن هذا  
(أي المذكور في الحديث) قد فُسر، وأما الاختصاص الذي في القرآن فقد  
فُسر بعد هذا وهو قوله تعالى: ﴿إِذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾<sup>(١)</sup>».

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٤ ، ص ٤٣ .

## شبهات حول الوحي المحمدي

- تمهيد.
- الشبهة الأولى : البشرية .
- الشبهة الثانية : السحر .
- الشبهة الثالثة : الجنون .
- الشبهة الرابعة : الصرع .
- الشبهة الخامسة : العبقرية .



## تمهيد

قد نجد إنساناً يؤمن بموسى أو عيسى عليهما السلام وينكر نبوة محمد ﷺ ..

وقد نصادف إنساناً يؤمن بالله تعالى وينكر الرسالات جميعاً ..

وقد نلتقي بإنسان ملحد لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ..

ولا أظن أن المنكرين للوحي المحمدي يخرجون عن هذه الأصناف الثلاثة، وموقفنا مع هؤلاء يكون على النحو التالي :

أما الأول فلا يستطيع أن يتنكر لحالات الوحي المختلفة لأن طبيعة الوحي - في جوهرها - واحدة لا تتباين من نبي لآخر، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (١) .

وأما الثاني فهو واقع في تناقض غريب، حيث آمن بالله وكفر برسله، وكان عليه أن يتفحص الدلائل، ويتحقق من المعجزات، ويتعرف على حاجة البشر للرسالات، ويدرك قصور العقل البشري ..

---

(١) سورة النساء، آية : ١٦٣ .

وأما الثالث فالخلاف معه ليس في إنكار النبوة فحسب وإنما في إنكار الخالق المدبّر الحكيم، فالإيمان بالله مقدمة ضرورية لإثبات النبوات، ولا يتصور إيمان بالنبوة دون إيمان بمصدر الوحي فيها..

والجدل مع هذا النوع يكون بلفت النظر إلى آيات الأنفس والآفاق، وحكمة الوجود، ودقة نظام الكون، وإيداع الصنع في الكائنات..

وعندما يصل إلى عتبة الإيمان بالله يستطيع أن يتفهم شخصية الأنبياء والضرورة القصوى لبعثهم..

وهنا يمكن أن يلتقي مع النوعين السابقين، ويراجعوا - جميعاً - ملامح الشخصية المحمدية، والعمق التاريخي، وبشائر الأنبياء، والضرورة الإنسانية لرسالة الإسلام، والمعجزة الكبرى لهذا النبي الخاتم..

وبذلك يصلون إلى حقيقة الحقائق وكبرى اليقينيّات، وهي:

أشهد أن لا إله إلا الله.

وأشهد أن محمداً رسول الله.

هذا وقد أثّرت شبهات حول الوحي المحمدي، وهي - في حقيقتها - ترديد لشبهات تقوّلها أعداء الرسل في كل زمان ومكان..

وسنشير إلى بعض هذه الشبهات وندحض باطلها..

وليكن معلوماً أن الدفاع عن الوحي المحمدي هو دفاع عن شرف الأنبياء جميعاً، وأن إثبات النبوة لسيدنا محمد ﷺ والإيمان برسالته إنما هو إثبات لنبوة الأنبياء، وإيمان بهم جميعاً..

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لَا نَفَرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾<sup>(١)</sup>.

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٥.



وقال جلّ شأنه :

﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ، وما أُنزِلَ علينا، وما أُنزِلَ على إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ، وما أُوتِيَ موسى وعيسى والنبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ونَحْنُ لَهُ مسلمون ﴾ (١).

### الشبهة الأولى: البشرية

تساءل مشركو مكة وتعجبوا كيف يكون النبي بشراً، له خصائص البشرية في المأكل والمشرب وكافة شؤون المعاش؟! .

وحكى القرآن المجيد مقالتهم هذه فقال :

﴿ وَأَسْرُوا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشرٌ مثلكم ﴾ (٢).

﴿ وقالوا ما لهذا الرسولٍ يأكلُ الطعامَ ويمشي في الأسواقِ .. ﴾ (٣).

وتلك الشبهة الجاهلية سرت على لسان جميع الأمم ..

قالوها لنوح عليه السلام :

﴿ فقال الملأ الذين كفروا مِنْ قَوْمِهِ ما نراكِ إلا بشراً مثلاًنا ﴾ (٤).

﴿ فقال الملأ الذين كفروا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يريدُ أنْ يتفضّلَ عليكم ولو شاءَ اللّهُ لأنزَلَ ملائكةً، ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين ﴾ (٥).

فقوم نوح عليه السلام استبعدوا أن تكون النبوة في البشر، وظنوا أن

---

(١) سورة آل عمران، آية : ٨٤.

(٢) سورة الأنبياء، آية : ٣.

(٣) سورة الفرقان، آية : ٧.

(٤) سورة هود، آية : ٢٧.

(٥) سورة المؤمنون، آية : ٧٤.

المسألة شهوة تسلط، ثم أمعنوا في التضييل فزعموا أن هذا حدث لم يسبق . .

وقالها قوم موسى وهارون عليهما السلام:  
﴿ فقالوا أنؤمن لبشريّن مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾<sup>(٥)</sup>.

وقالها أصحاب القرية لرسولهم:  
﴿ قالوا ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا وما أنزلَ من الرحمنِ مِن شيءٍ إن أنتم إلا تكذبون ﴾<sup>(١)</sup>.

وحكى القرآن هذا المعنى على وجه العموم فقال:  
﴿ وما منعَ الناسَ أن يُؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعثَ اللهُ بَشَرًا رسولاً ﴾<sup>(٢)</sup>.

وكان منهج القرآن المجيد في معالجة هذه الشبهة على النحو التالي:

أولاً: إن محمداً - ﷺ - ليس بدعاً من الرسل، وكافة الأنبياء بشرٌ، يجوز عليهم ما يجوز على البشر مما لا يقدر في مراتبهم العالية . .

فالأنبياء يأكلون ويشربون:  
﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعامَ ويمشونَ في الأسواقِ ﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعامَ وما كانوا خالدين ﴾<sup>(٤)</sup>.

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٤٧ .

(٢) سورة يس، آية: ١٥ .

(٣) سورة الإسراء، آية: ٩٤ .

(٤) سورة الفرقان، آية: ٢٠ .

(٥) سورة الأنبياء، آية: ٨ .

والأنبياء يتزوجون ويتناسلون :

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذُرِّيَّةً ﴾ (١).

ثانياً: إن النبوة اصطفاء من الله لمن يشاء من عباده، والتمايز بين الأنبياء والبشر إنما هو في الوحي وتلقي الشرائع.. وتلك قضية لا اختيار للنبي فيها، وليست من تلقاء نفسه..

﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشرٌ مثلكم، ولكن الله يَمُنُّ على مَنْ يشاء من عباده، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ إلا بإذن الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٢).

﴿ قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يُوحى إليّ أنما إلهمكم إله واحد ﴾ (٣).

ثالثاً: إن الملك لا يصلح أن يكون رسولاً للبشر، لبعد الفجوة بين الملك والبشر فلا يكون المثل الأعلى قريباً للمحاكاة، ثم إن الإنسان ليس لديه القدرة على رؤية الملك في صورته الحقيقية، فيحتاج الأمر إلى أن يتشكّل الملك في صورة آدمي، وهنا يشتبه الأمر ويعود التساؤل: هل هو ملك أم بشر؟!.

وقد جرت سنة الله في خلقه أنه عند تلبية مطالب المعاندين ثم عدم استجابتهم للإيمان يستأصلهم الله تعالى بعذاب من عنده..

فكان من اللطف بالبشر أن أنبياءهم من جنسهم..

﴿ وقالوا لولا أنزلَ عليه ملكٌ، ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا يُنظرون، ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ (٤).

---

(١) سورة الرعد، آية: ٢٨.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ١٦.

(٣) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٨ - ٩.

﴿ وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾<sup>(١)</sup>.  
 ﴿ لَوْ مَا تَأْتَيْنَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾<sup>(٢)</sup>.

### الشبهة الثانية: السحر

سلك مشركو مكة مسالك شتى للنيل من الوحي المحمدي والإعجاز القرآني، وضاق بهم التفكير، واستبد بهم القلق، وسيطر عليهم الفزع الأكبر فأطلقوا ألسنتهم بالسوء وزعموا مزاعم باطلة فنسبوا الرسول ﷺ إلى السحر، واعتبروا المعجزة القرآنية ضرباً من السحر.. وحكى القرآن مقاتلتهم فقال:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ ﴾<sup>(٣)</sup>.  
 وروى كتب السيرة: أن عتبة بن ربيعة - وكان سيداً مطاعاً في قريش - قال يوماً وهو جالس في نادي قريش:

«يا معشر قريش ألا أقوم لمحمد وأكلّمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا؟!».

قالوا: يا أبا الوليد فقم إليه فكلّمه.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال:  
 يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة<sup>(٤)</sup> في العشيرة،  
 والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، مزّقت به جماعتهم

(١) سورة إبراهيم، آية: ٤.

(٢) سورة الحجر، آية: ٧ - ٨.

(٣) سورة سبأ، آية: ٤٣.

(٤) أي من الوسط أي الخيار حسباً ونسباً.

وسَفَّهت به أحلامهم، وعِبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم..

وفي رواية أنه قال أيضاً:

أنت خير أم عبدالله؟!

أنت خير أم عبد المطلب؟!

إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فقل يسمع لقولك، لقد أفضحتنا في العرب حتى طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى...!!

فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها..

فقال ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع..

فقال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً.

وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك.

وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا.

وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً من الجن تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى..

حتى إذا فرغ عتبة قال الرسول ﷺ:

لقد فرغت يا أبا الوليد؟! قال: نعم.

قال: فاسمع مني، فقرأ رسول الله ﷺ:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حم. تنزيل من الرحمن الرحيم.﴾

كَتَابُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قرآنًا عربياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ  
فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . ﴿١﴾ .

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها فقرأها عليه ، وقد أنصت عتبة لها وألقى  
يديه خلف ظهره معتمداً عليهما ، يسمع منه ، ثم انتهى الرسول ﷺ إلى  
قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ ﴿٢﴾ .

فأمسك عتبة على فيه ﷺ وناشده الرحم أن يكف عن ذلك ثم انتهى  
إلى السجدة فيها فسجد ثم قال :

قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك . . !!

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض :

لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . . !!

فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ !! .

قال : ورائي أنني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو  
بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . .

يا معشر قريش أطيعوني ، فاجعلوها لي ، خلّوا بين هذا الرجل وبين  
ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ ، فإن تصبه  
العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه  
عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . .

قالوا : سحرَك والله يا أبا الوليد بلسانه . . !!

قال : هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم . . ﴿٣﴾ .

---

(١) سورة فصلت ، آية : ١ - ٤ .

(٢) سورة فصلت ، آية : ١٣ .

(٣) السيرة الحلبية ج ١ ، ص ٤٨٦ .

وهذا الفكر الجاهلي هو فكر كل مجتمع ضالّ منحرف يصمّ آذانه  
عن دعوة الحق ويغمض عينيه دون نور الهداية..

لقد ألصقت تهمة السحر بكل نبي جاهد في الله حق جهاده..

قالها فرعون لموسى عليه السلام:

﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾<sup>(١)</sup>.

وظن سحرة فرعون أن موسى ينافسهم اختصاصهم ويزاحمهم  
عملهم:

﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ  
بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكَ الْمِثْلَى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوْا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ  
الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾<sup>(٢)</sup>.

ويشاء الله أن يشرق نور الإيمان في قلب هؤلاء السحرة ويدركوا  
الفرق بين فعل الخالق وفعل الخلق، ويميزوا بين الحقيقة والخيال..

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾<sup>(٣)</sup>.

ووصلت التهمة إلى صالح وشعيب عليهما السلام:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾<sup>(٤)</sup>.

والمسحور صيغة مبالغة من المسحور، أي أثر فيه السحر حتى غلب  
على عقله ووعيه فلا يكاد يفكر..

وسواء كانت التهمة أن النبي ساحر أو مسحور أو مسح فإن لها صلة  
بالكهانة والكهان فيجمعها الاتصال بالجن أو تسخيره أو التأثير به..

---

(١) سورة الإسراء، آية: ١٠١.

(٢) سورة طه، آية: ٦٣ - ٦٤.

(٣) سورة طه، آية: ٧٠.

(٤) سورة الشعراء، آية: ١٥٣ - ١٨٥.

ويمكن أن تتمثل منهج القرآن المجيد في رد هذه الشبهة على النحو التالي :

أولاً :

إن مرددي هذه الشبهة لا يعنيه الحق في ذاته، وأمرهم قائم على العناد والمكابرة، ولو شأؤوا لأنكروا الشمس في رابعة النهار..

قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذينَ كَفَرُوا إِنَّ هَـذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ ﴾ (١).

لقد بلغ من سفاهة القوم أن لو اجتمع لديهم الإدراك بالبصر واللمس باليد لظلموا على شكهم وارتياهم فيما أحسوه..

وقال جلّ شأنه : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (٢).

وهذا مثل آخر لمدى مكابرتهم في الحق وجدالهم بالباطل، فلو صعدوا إلى السماء واخترقوا الحجب وعاینوا الملاء الأعلى.. ما زادهم ذلك إلا استكباراً..

ثانياً :

إن العقل الإنساني الراشد هو فيصل التفرقة بين الحق والباطل، وهو آلة النظر والفكر، وقانون الاعتبار.. فهلا تأملوا في حياة الرسول قبل البعثة وبعدها؟!..

أليس هو الصادق الأمين؟!..

وهلا تأملوا فيما صاحب النبوة من آيات؟!..

---

(١) سورة الأنعام، آية : ٧.

(٢) سورة الحجر، آية : ١٤ - ١٥.



أليسوا عاجزين عن الإتيان بمثلها؟! .

يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ، وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَذْرَؤُنَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ، وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ، قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ، بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾<sup>(١)</sup> .

فرفض هؤلاء للإيمان لا يستند إلى نقل شرعي سابق، ولا إلى تفكير راشد.. فلم يسبق لأهل مكة تعامل مع الأنبياء ولا معرفة بأحوالهم؛ واغترارهم بما منحه الله لهم من قوة أو مال لا يغني عن الحق شيئاً، وسبقتهم أُمم أكثر أموالاً وأولاداً كذبوا فحاققت عليهم اللعنة..

ثم دعتهم الآيات إلى أمر فيه نصف، وهو أن يفرّدوا الوجهة لله ويخلصوا في طلب الحق، ويتأملوا دعوة هذا الرسول وسلوكه وتصرفاته وكافة ما يتعلق بشؤون حياته؛ تأملاً فيه روية فلن يجدوا مطعناً في خلق، ولا انحرافاً في سلوك، ولا طمعاً في رئاسة، ولا حباً في ظهور، وما مسّه جنّ ولا لحق به جنون..

والى هذا المعنى تشير آية أخرى:

﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ، أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ، أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ، أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ، بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم بِالْحَقِّ كَارِهُونَ﴾<sup>(٢)</sup> .

ثالثاً:

إن هناك فروقاً أساسية واضحة بين النبوة والسحر، في مصدرهما

(١) سورة سبأ، آية: ٤٣ - ٤٦ .

(٢) سورة المؤمنون، آية: ٦٨ - ٧٠ .

والموصوف بهما والأثر الناتج عنهما .

فمصدر النبوة هو الله تعالى الذي يصطفي من يشاء من عباده، والله هو أهل التقوى وأهل المغفرة، وهو سبحانه نور السموات والأرض، وهو جلّ شأنه الرحمن الرحيم . . ﴿ وهو الذي في السماء إلهٌ وفي الأرض إلهٌ وهو الحكيمُ العليمُ ﴾ .

أما مصدر السحر فهو شياطين الجن، المتمردون على الطاعة، المتربصون بالإنسان، وشعارهم قول إبليس الأول:

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَأَنْتَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ، وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

وصاحب النبوة هو الإنسان الكامل والنموذج الرفيع للبشرية، وسيرته أنقى سيرة يعرفها التاريخ . .

أما الساحر فهو الأفاك الأثيم، همته دنيئة، وسلوكه منحرف، وغايته سلب أموال الناس وهتك أعراضهم . .

وأثر النبوة هو صلاح المجتمع وكرامة الإنسان في الدنيا وسعادته في الآخرة، وأثر السحر هو تفريق الشمل وتمزيق الوحدة والإفساد في الأرض . .

وقد أكد القرآن هذه المعاني في أكثر من آية، فقال في مصدر السحر: ﴿ وما نَنْزِلُ بِهِ الشَّيَاطِينَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمُعْزُولُونَ ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال في صاحب السحر:

﴿ هَلْ أَنْبِئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَنْزِلُ الشَّيَاطِينُ؟ نَنْزِلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ

(١) سورة الأعراف، آية: ١٦ - ١٧ .

(٢) سورة الشعراء، آية: ١١٠ - ١١٢ .

يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١﴾.

وقال في أثر السحر:

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ ﴿٢﴾.

وقد طهر الله ساحة النبي عن التعلق بحطام الدنيا، وأكد استقامة الهدف ونقاء فقال:

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٣﴾.

وفي آية أخرى:

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ ﴿٤﴾.

وقد وضع هذا المعنى وتأكد لدى كافة الأنبياء، فقال نوح عليه السلام:

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ ﴿٥﴾.

وقال هود عليه السلام:

﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦﴾.

فما أبعد النبوة عن السحر..!!

وما أرفع مكانة الأنبياء..!!

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢٢١ - ٢٢٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٠٢.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٧٢ - ٧٣.

(٤) سورة الشورى، آية: ٢٣.

(٥) سورة هود، آية: ٢٩.

(٦) سورة هود، آية: ٥١.

#### رابعاً:

حرص القرآن المجيد كثيراً على تأكيد منع استراق السمع، وحفظ السماء من مردة الجن وحجبهم عنها والحيلولة بينهم وبين تلقف الأخبار من الملائكة الأعلى، واعتبر ذلك إرهاباً بالنبوة الخاتمة..

قال تعالى:

﴿وَحِفْظُهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مَبِينٌ﴾ (١).

وقال جلّ شأنه:

﴿وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ، لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَيُقَذِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصٌّ، إِلَّا مَنْ خَطَفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (٢).

وقد حكى القرآن في سورة الجن تلك الوقائع ماضيها وحاضرها، وذكر ما اعتري الجن من تساؤلات حين انقلب الأمر عليهم، فقال: ﴿وَأَنَا لَمُسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَ خَرَساً شَدِيداً وَشُهَباً، وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَاباً رَصَداً، وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْداً﴾.

هذا.. ولعل قائلًا يزعم أليس هذه التأكيدات تتنافى مع ما ثبت من أن النبي ﷺ سحره لبيد بن الأعصم، فيكون النبي مسحوراً؟!.

ونقول:

إن حديث السحر هذا ذكرته كتب الصحاح، ونصه - كما في البخاري (كتاب الطب) - عن عائشة رضي الله عنها قالت:

(١) سورة الحجر، آية: ١٧ - ١٨.

(٢) سورة الصافات، آية: ٧ - ١٠.

سحر رسول الله ﷺ رجلٌ من بني زريق، يقال له لبيد بن الأعصم<sup>(١)</sup>، حتى كان رسول الله ﷺ يمثل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم - أو ذات ليلة - وهو عندي - لكنه دعا ودعا .

ثم قال: يا عائشةُ أشعرتِ أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان<sup>(٢)</sup> ففعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه:

ما وجعُ الرجل؟ فقال: مطبوب<sup>(٣)</sup>.

قال: من طَبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم.

قال: في أي شيء؟ قال: في مُشط ومُشاطة وجُفّ طلع نخلة ذكر<sup>(٤)</sup>.

قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذُرّوان<sup>(٥)</sup>.

فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه.

فجاء فقال: يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحنّاء أو كأن رؤوس نخلها كأنه رؤوس الشياطين<sup>(٦)</sup>.

---

(١) من اليهود المنافقين.

(٢) في بعض الروايات أنهما ملكان هما جبريل وميكائيل.

(٣) أي مسحور، يقال طُبَّ الرجل إذا سحر، وقيل كفوا عن السحر بالطب تفاؤلاً كما قالوا للديغ سليم.

(٤) المشط - بضم فسكون - الآلة المعروفة التي يسرح بها الشعر، والمشاطة - بضم الميم وتخفيف الشين - ما يخرج من الشعر عند التسريح، وجف - بضم أوله وتشديد ثانيه - وعاء طلع النخل، وهو الغشاء الذي يكون عليه، ويطلق على الذكر والأنثى، ولذلك وصفه بقوله: «ذكر»، والطلع ما يطلع من النخل وهو الكمء قبل أن ينشق، وهو شيء أبيض تشبه رائحته المني.

(٥) موضع خارج المدينة.

(٦) تشبيهات لرداءة الماء وقبح المنظر.

قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟

قال: قد عافاني الله فكرهت أن أثور على الناس فيه شراً<sup>(١)</sup>، فأمر بها فدفنت<sup>(٢)</sup>.

وفهمنا لهذا الحديث على النحو التالي:

١- إن واقعة هذا السحر كانت في العام السابع للهجرة أي بعد البعثة بعشرين سنة، وادّعاء المشركين أنه ﷺ مسحور كان في العهد المكي..

٢- إن السحر المقطوع بعصمة النبي ﷺ منه هو ما يتعلق بالتبليغ عن الله تعالى، وهو الذي نفاه القرآن في مثل قوله: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا، انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾<sup>(٣)</sup>.

وتأثير السحر في بدن النبي فيما وراء ذلك يعتبر من باب الأمراض الخفيفة التي لا تقدح في النبوة.

٣- إن الشيء الذي كان يظن النبي ﷺ أنه يفعله، وما فعله، فسّره رواية أخرى صحيحة خرّجها البخاري عقب ذكر الرواية السابقة، وهو «كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن».

فإذن تعلق السحر بهذا الجانب فقط ولم يكن له تأثير على قواه العقلية.

٤- نصّت الرواية على أنه ﷺ «دعا ودعا»، والمعنى أنه توجه إلى

---

(١) لم يرغب الرسول في استخراج السحر فينتشر الموضوع وتقع فتن بين اليهود والمسلمين.

(٢) أمر باليثر فطمست معالمها وسواها بالأرض.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٨ - ٩.

الله جلّ شأنه بالدعاء الضارع، وألح في الدعاء كعادته ﷺ في تكرير مسألته من ربه واستغفاره لخالقه . الأمر الذي يؤكد سلامة الوعي، وصدق التوجّه واستقامة التفكير.

### الشبهة الثالثة : الجنون

أطلق المشركون ألسنتهم وأيديهم بالسوء على رسول الله ﷺ، واختلقوا الأكاذيب فقالوا: إن محمداً مجنون..!!  
لماذا؟! .

لأنه جعل الآلهة إلهاً واحداً.. . ولأنه أمرهم بالنظر والفكر..!!  
وبلغ من سفاهة القوم أن قالوا لأبي طالب:  
«يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش وأجمله  
فخذه، فلك عقله ونصره، واتخذهُ ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك  
هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك وسفّه أحلامنا،  
فنقتله فإنما هو رجل برجل..!!

قال أبو طالب:

والله لبئس ما تسوموني..!!

أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني فتقتلونه..!!  
هذا والله ما لا يكون أبداً»<sup>(١)</sup>.

وقد عرض القرآن مقالة هؤلاء السفهاء وناقشهم، وبيّن لهم طرائق الوصول إلى الحق، وكشف عن دخائل نفوسهم الخبيثة.. .

ولو تتبعنا حديث القرآن عن هذا الجانب فسنجده على النحو التالي:

---

(١) السيرة النبوية - ابن كثير ج ١، ص ٤٧٥.

## أولاً:

قال تعالى: ﴿وقالوا يا أيها الذي نُزِّلَ عليه الذكرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾<sup>(١)</sup>.

والذكر هو القرآن، وسمي به لشرف القرآن وعلو قدرة، ولما فيه من الموعظة وخبر القرون السوالمف..

وعندما قال المشركون «يا أيها الذي نزل عليه الذكر» قصدوا الاستهزاء والتهمك..

فكان الرد المناسب لافتراءهم هو ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ فما اتخذتموه سخرياً؛ كتاب عظيم القدر فيه شرفكم، وعز من آمن به، وهو تنزيل الملك العلام، وسيظل محفوظاً بعناية الله، يؤلف القلوب حوله، ويلهم الصدور حفظه، ويجعل العقول تهتم بشأنه، وتتوارثه الأجيال تواتراً متصلاً..

## ثانياً:

بين القرآن استكبارهم وافتراءهم فقال: ﴿إنهم كانوا إذا قيلَ لهم لا إلهَ إلا اللهُ يَستَكبرونَ وَيَقولونَ أَئِنا لَتأركو آلِهتنا لِساعِرٍ مَجْنونٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

فالقضية عند هؤلاء ليست بحثاً عن الحق، وليست معرفة بالقيم، وليست التزاماً بالصدق، وإنما هي التقاليد البالية والأعراف الفاسدة والتعلق بمظاهر الحياة الخادعة..

وقد أوقعهم هذا في التخبط فحين يريدون اتهام الرسول بالجنون حيث لا فكر ولا وعي ولا اختيار - يجمعون عليه وصف الشعر حيث الخيال الجامح، والتعبير الساحر، واختيار اللفظ البديع والإيقاع المؤثر..

---

(١) سورة الحجر، آية: ٦.

(٢) سورة الصافات، آية: ٣٥ - ٣٦.



وكان الرد القرآني هنا هو ﴿بل جاء بالحقّ وصدّق المرسلين﴾ .  
والحق هو الثابت، وهو المطابق للواقع، والمجنون لا يعرف الحق،  
والشاعر لا يلتزم بالواقع . .

والدعوة إلى الحق هي رسالة كل نبي، وقد التقى هتاف محمد ﷺ  
بهتاف إخوانه المرسلين وتطابقا في المبدأ والمعاد وأصول العبادات ومكارم  
الأخلاق . .

فليس في الأمر اختلاق ولا وهم . .

ثالثاً:

كشف القرآن عن تخلف القوم العقلي مع وضوح الدلائل وقوة  
البراهين فقال: «أنتي لهم الذكرى وقد جاءهم رسولٌ مبينٌ ثم تولّوا عنه  
وقالوا معلّمٌ مجنونٌ»<sup>(١)</sup>.

فدلائل النبوة واضحة، وكل من تأمل حياة محمد قبل الرسالة وبعدها  
عرف أنه الصادق الأمين، أيده الله بالمعجزة التي تتحداهم صباح مساء أن  
يأتوا بمثلها . .

ومع ذلك يختفي جانب العقل ويُلقى التفكير السليم، وتُلقي التهم  
بعشوائية وتخبُّط فيقال إن محمداً تلميذ فاشل مخبول العقل . . !!

فمتى كان محمد - ﷺ - تلميذاً؟!

ومتى جلس إلى معلم؟!

ومتى اعتراه الجنون؟!

رابعاً:

حرص القرآن في موضعين على تأكيد أن الاصطفاء الإلهي للوحي

---

(١) سورة الدخان، آية: ١٣ - ١٤ .

نعمة على محمد ﷺ وأن الله خير الشاهدين على خلقه وسلوكه..

فقال في سورة الطور:

﴿ فذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ . الآيات .

وقال في سورة القلم:

﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وأعقب ذلك في السورة الأولى التحدي بالقرآن فقال:

﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ .

وتلى ذلك في السورة الثانية تحدٍ من نوع آخر، يمكن أن نسميه التحدي بالخلق والسلوك المحمدي فقال:

﴿ فَسَتَبْصُرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيُّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴾ .

أي فستعلم يا محمد ويعلم الناس كافة من المجنون؟ ومن الضالّ عن الحق؟! .

خامساً:

انطلق القرآن في حديثه عن هذا الجانب انطلاقاً يصعق قلوب المشركين ويزيدهم حيرة وقلقاً واضطراباً..

إن الرسالة المحمدية ليست موجهة لكم فقط ولا خاصة بزمانكم أو عالمكم، إنها رسالة للعالمين..!!

وإن الرسول الذي يحرص على هدايتكم ويقدم لكم سبيل شرفكم ومجدكم، مؤهل لقيادة العالمين، ويولي وجهه إلى الثقلين في دعوة مخلصه للتي هي أقوم..

وقد عبّر القرآن عن هذا المعنى في موضعين:

فقال في سورة القلم: ﴿وإن يكاد الذين كفروا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ<sup>(١)</sup> لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون وما هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾.

وهكذا فجعت سورة القلم المشركين في عقيدتهم وعقولهم بأن هناك عالماً أرحب هو مجال هذه الدعوة وفجأتهم بهذا الأمر العظيم..

وقال في سورة التكوين:

﴿وما صاحبُكم بمجنونٍ، ولقد رآه بالأفق المبين، وما هو على الغيب بضنين، وما هو بقولِ شيطانٍ رجيمٍ، فأين تذهبون، إن هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾.

إن طرائق تفكير المشركين قد ضلت، وضاعت عليهم أنفسهم، فلا يدرون ماذا يقولون؟!.

إن محمداً - ﷺ - قد وضحت لديه الدلائل، وتحمل الرسالة في أمانة وصدق وثبات، محروساً بعناية الله حتى تصل دعوته إلى الآفاق وبلغها للعالمين..

سادساً:

خلال حديث القرآن في تعقب هؤلاء المشركين والرد عليهم في زعم الجنون لصاحب الرسالة العصماء؛ اتجه في أكثر من موضع إلى تسلية الرسول وتثبيت فؤاده فلفت نظره إلى أن تلك سنة جارية مع رسل الله، يتحملون البأساء والضراء، ويصبرون حتى يحكم الله بينهم وبين أقوامهم..

اتهم بالجنون موسى عليه السلام وهو ييسط آيات الأنفس والآفاق

---

(١) في هذا التعبير دلالة قوية على مدى حقدهم وحسدهم وبغضهم للرسالة والرسول حتى كادوا أن يصرعوه بشرر عيونهم..

أمام فرعون مصر ويرشده إلى الحق في العقيدة:

﴿ قَالَ فرعونُ وما ربُّ العالمين؟! ﴾

قال ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما إن كنتم مؤمنين .

قال لمن حوله ألا تستمعون؟! .

قال ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين .

قال إنَّ رسولكم الذي أرسلَ إليكم لمجنون .

قال ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينهما إن كنتم تعقلون .

قال لئن اتخذتُ إلهاً غيري لأجعلنَّكَ مِنَ المسجونين .

قال أولُو جثَّتكَ بشيءٍ مبين؟! .

قال فأت به إن كنت من الصادقين .

فألقي عصاهُ فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ، ونزعَ يدهُ فإذا هي بيضاءُ

لِلناظرين .

قال للملأ حوله إنَّ هذا لَساحِرٌ عليمٌ ﴿١﴾ .

ادعى فرعون الإلهية لنفسه وأرغم شعبه على العبودية له، فلما فاجأه

موسى عليه السلام بأن هناك إلهاً آخر هورب العالمين؛ دار حوار حول

آيات الأنفس والآفاق..

بدأ موسى عليه السلام بالإشارة على وجه العموم إلى مستقر الآيات

في العالم العلوي والعالم السفلي، ولم يفتن فرعون لتلك الإشارة اللطيفة

وتهكم بموسى عليه السلام؛ فواجهه موسى بالحقيقة الناطقة في نفسه ونبيه

إلى ظاهرتي الحدوث والفناء في نفسه ونسبه، فاستشاط غضباً ورمى

موسى بالجنون..

عاد موسى عليه السلام وواجهه بظاهرة متكررة متعاقبة هي شروق

الشمس وغروبها وليبدل فرعون هذا النظام إن استطاع..

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢٣ - ٣٤ .

حينئذ لم يجد فرعون بداً من قطع الحوار، فعمد إلى أسلوب القهر والقوة وهدد موسى بالسجن...!!

هنا بدأ موسى عليه السلام يظهر معجزة النبوة بعد أن لزمتهم حجة الربوبية والإلهية فاختلّ تفكير فرعون وناقض نفسه واتّهم موسى بالسحر والبراعة فيه...!!

فكيف تستقيم تهمة السحر مع سابقتها تهمة الجنون؟! .

وهل المجنون يكون ساحراً عليمًا؟! .

وهذا الحوار الطويل وما تبعه من أحداث اختصره القرآن في سورة الذاريات في ثلاث آيات جمعت مواقف ثلاثة:

- موقف موسى ودلائل نبوته .

- موقف فرعون وجبروته .

- موقف العدل الإلهي في ملاحقة المفسدين .

قال تعالى: ﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلاطين مبين، فتولّى برّكته وقال ساحراً أو مجنوناً، فأخذناه وجنوده فنبدناهم في اليم وهو مُلِيم ﴾ (١) .

وقيل انتهاء هذه السورة ساقط الآيات عبرة التاريخ وتشابه المكذبين وتقارب أفكارهم فقالت:

﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسولٍ إلا قالوا ساحرٌ أو مجنونٌ، أتواصوا به، بل هم قومٌ طاغون ﴾ .

وفي سورة القمر ذكرت نفس التهمة لشيخ الأنبياء نوح عليه السلام فقالت:

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٣٨ - ٤٠ .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾<sup>(١)</sup>.

وهكذا تعقب القرآن المجيد شوارد فكر هؤلاء المشركين، ويبيّن تهافتهم وسوء منقلبهم ليظل ذلك آية بيّنة على صدق محمد ﷺ وتصدق الله تعالى له..

### الشبهة الرابعة: الصرع

تعقب بعض المغرضين ما يعتري الرسول ﷺ عند تلقي الوحي، ووصل إلى نتيجة خاطئة مقطوعة الصلة بحياة الرسول الكريم..

أما الحالات التي تعتري الرسول فهي كما وضّحته مثل هذه الأحاديث:

ففي صحيح البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ولقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً».

وفي حديث الإفاك قالت عائشة: «فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء<sup>(٢)</sup> عند الوحي، حتى إنه ليتحدّر منه مثل الجمان<sup>(٣)</sup> من العرق وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي أنزل عليه».

وفي صحيح مسلم بسنده عن عباده بن الصامت قال: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي؛ كربه ذلك وتربّد وجهه، - وفي رواية وغمض عينيه - وكنا نعرف ذلك منه».

(١) سورة القمر، آية: ٩، ومعنى «وازدُجِرَ» زجره وانتهره وتواعده بالرجم.

(٢) البرحاء: شدة الحمى وقيل شدة الحر وقيل شدة الكرب.

(٣) الجمان: اللؤلؤ، شبهت به قطرات عرقه لتشابهها في الصفاء والحسن.

وفي الصحيح أيضاً عن يعلى بن أمية قال: «قال لي عمر: أيسرك أن تنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يوحى إليه؟!».

فرفع طرف الثوب من وجهه وهو يوحى إليه بالجفرانة فإذا هو محمر الوجه، وهو يغط كما يغط البكر<sup>(١)</sup>.

فهذه الحالات من التفصّد عرقاً وتغميض العينين واحمرار الوجه.. إلخ.

جعلت البعض يزعم أنها أعراض مرض الصرع، وما محمد - ﷺ - في زعمهم إلا مصروع تعتريه حالات فقدان للوعي والإدراك..

وما أكذب هؤلاء..!!

وما أشد افتراءهم على رسول الله..!!

إن الصرع حالة مرضية لا يعي صاحبها ما يحدث له ولا ما يحدث منه، ويفقد الذاكرة تماماً، وتصدر حركات عصبية لا يدري عنها شيئاً..

فإذا أفاق فكأنما ولد من جديد..

فأي شيء من ذلك وقع لرسول الله ﷺ؟!.

إن الرسول عقب الوحي يبلغ ما أنزل إليه، أحكاماً وتشريعاً، وقصصاً وتاريخاً، وأحداثاً في غابر الزمن ووقائع في سالف الأيام.. في إطار من النظم الدقيق المعجز لكافة للإنس والجن..

فهل هذا فعل مصروع؟!.

وكان من شدة حرص الرسول على الوحي وتمام إدراكه للتنزيل يسارع بتلاوة ما يوحى إليه قبل أن يفرغ الملك من إلقاء النجم القرآني فنهى ﷺ عن ذلك ونزل قوله تعالى: ﴿ لا تحرّك به لسانك لتعجل به، إنّ

---

(١) البكر: ولد الناقة.

علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتَّبِعْ قرآنه ثم إن علينا بيانه ﴿١﴾.

وحول هذه الآيات يقول الإمام ابن كثير:

«هذا تعليم من الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عزَّ وجلَّ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه.

فالحالة الأولى: جمعه في صدره.

والثانية: تلاوته.

والثالثة: تفسيره وإيضاح معناه.

ولهذا قال تعالى: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ أي بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً ﴾ (٢).

ثم قال تعالى: ﴿ إن علينا جمعه ﴾ أي في صدرك ﴿ وقرآنه ﴾ أي أن تقرأه ﴿ فإذا قرأناه ﴾ أي إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى ﴿ فاتَّبِعْ قرآنه ﴾ أي فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك.

﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ أي بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا ﴿ (٣) .

ومما يدل على أن الإحساس لم يكن يغيب بالكلية عما حوله ومن حوله - ما جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت:

«خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة

---

(١) سورة القيامة، آية: ١٦ - ١٩.

(٢) سورة طه، آية: ١١٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم ج ٤، ص ٤٤٩.



لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب، فقال: يا سودة أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين، قالت: فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشى، وفي يده عرق، فدخلت فقالت:

يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا؛ قالت: فأوحى الله إليه ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه، فقال: إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتك.

وإذا كان الواحد منا عندما يهمله شيء ويحرص عليه يشغل باله وفكره حتى لا يكاد يحس بمن حوله، فينادي عليه أقرب الناس منه مكاناً فلا يسمع له نداء..

فما بالك بالاتصال بالملاء الأعلى، والاستغراق في لقاء الملك الروحاني والتلقي عن الله تعالى؟!..

ثم إن الناس في كل زمان ومكان يرون المصروع ويعرفون الصرع فهل من المعقول أن يُخدع الصحابة جميعاً في رسول الله ﷺ، ويصعب عليهم التفريق بين حال الوحي وحال الصرع؟!..

إن فاقد الشيء لا يعطيه، والمصروع لا يشفي مصروعاً، ولقد كان الصرعى يأتون إلى رسول الله ﷺ طلباً للشفاء.. ففي صحيح البخاري عن عطاء بن رباح قال:

«قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟!..

قلت: بلى.

قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي.

قال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك.

فقلت: أصير.

فقلت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها.

فإذا كان الصرعى يأتون رسول الله طلباً للشفاء فهل يكون الصرع خفياً على الناس يومئذ حتى يختلط بالوحي؟! .  
ألا ساء ما يحكمون!!..

### الشبهة الخامسة: العبقريّة

قد يُعجب البعض كيف يكون وصف الأنبياء بالعبقرية شبهةً واتّهاماً؟! وقد يتساءل البعض أليس من الصفات الواجبة للرسل الفطنة والذكاء وحدة العقل وسرعة البديهة؟! .

بلى إنّ الأنبياء جميعاً يجب لهم راحة العقل وعمق التفكير، وما من نبيٍّ إلّا واجه مجتمعاً بكل فئاته، وألزم قومه الحجّة، وأقام لهم برهان صدقه.. لكنّ القائلين بعبقرية الأنبياء يقصدون معنى آخر، من ظاهره المدح والثناء وفي باطنه أقسى اتّهام وأشدّ جريمة وأنكى كذب..

إنّهم يقطعون صلة الأنبياء بالوحي الإلهي..

إنّ أحد هؤلاء وهو الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨ م) أتى بأمر عجاب عند حديثه عن نشأة القانون وعقائد الدين، فاعتبر الشرائع نتاج عبقرية عقلية استنطقت الذات الإلهية حتى يقبل الناس الخضوع لقوانين الدولة كما يخضعون لقوانين لنواميس الطبيعة..

ويزعم أنّه نظراً لوجود أفكار كثيرة لا يمكن ترجمتها إلى لغة يفهمها عامّة الشعب، وحيث إنّ من الصعوبة إقناعهم بمزايا تعود عليهم من حرمان تفرضه القوانين العادلة، وليس من الحكمة استعمال القوّة لإكراه فرد على تذوّق المبادئ السليمة والقواعد الأساسيّة لمصلحة الدولة.. فإنّ روسو

يرى أن نلجأ إلى سلطة من نوع آخر، تفقد بلا عنف، وتقنع بلا حجة؛ هي التجاء المشرعين إلى السماء ونسبة قوانينهم إلى الله...!!

ولكن لا يستطيع كل إنسان أن يجعل الآلهة تتكلم ولا أن يجعل الناس تصدّقه عندما يدّعي أنه يتحدّث باسمها، فيجب أن تكون روح المشرع العظيمة وعقله الساميّ دليلاً على رسالته..

وبناءً على هذه النظرة وذلك الاتجاه في فهم النبوة تحظى الشريعة الإسلامية بإكبار جان جاك روسو.. فهو يقول:

«والشريعة الإسلامية التي حكمت نصف العالم مدى عشرة قرون ما برحت اليوم تعلن عن عظمة أولئك الذين وضعوها، وقد لا يرى فيهم أولئك الذين أعمتهم الكبرياء الناجمة عن الفلسفة، أو روح التحيز العمياء؛ سوى دجالين حَسَنِي الحظ، ولكن السياسة الحسنة تعجب في أنظمتهم العبقريّة العظيمة»<sup>(١)</sup>.

وقد شرح روسو رأيه هذا بتفصيل من كتابه «إميل»، وفي ردّه على أسقف باريس الذي أصدر منشوراً في أغسطس ١٧٦٢ م يفند فيه آراء روسو ويسفّه أخلاقه..

وقد افتتح الأسقف منشوره بوصف دقيق لحياة روسو وفلسفته، قال فيه:

فقد نشأ في حظيرة الخطيئة رجل يتتخل لغة الفلاسفة من غير أن يكون فيلسوفاً حقاً، إنّما هو ذهنٌ أفعم من المعلومات بجمّ لم ينره، ويبعث بالظلمات إلى أذهان أخرى..

وطبّع مولع بغرائب الآراء وطرائق السير في الحياة، جمع بين بساطة الخلق وترف الفكر، وبين الشغف بقواعد الأقدمين وشهوة إقامة

---

(١) العقد الاجتماعي - ترجمة عبد الكريم أحمد ص ١٢٥.

المحدثات، وبين خفية العزلة والرغبة في أن يعرفه الناس جميعاً .

ورأيي يناهض العلوم التي يتعهدها، يقرر كمال الإنجيل ثم يهدمه من أصوله، ويصف جمال الفضائل ثم يمحوها من نفوس قرائه . .

وأقام نفسه مهذباً للنوع الإنساني كي يضلّه، ومرشداً عاماً ليغوي الناس جميعاً، وهادي العصر ليفسد عليه أمره . . .

وجاء في ردّ جان جاك روسو على الأسقف قوله :

«إنني أحترم جميع الذين وضعوا الأديان والمذاهب، لقد كان لهم جميعاً نبوغ عظيم وفضائل كبرى، وذلك محترم أبداً، ولقد قالوا إنهم رُسل من عند الله، وذلك ممكن أن يكون وأن لا يكون، والجماعة لا تستطيع أن تتفق في الحكم عليه أن ليست أدلته في متناول الكلّ على السواء . . على أنهم لو لم يكونوا رُسلًا فليس ذلك بداعٍ إلى إتهامهم في خفة بأنهم كذبة دجالون . .

فمن يدري إلى أيّ حدّ يصل التفكير المستمر في الإلهيات، والتناهي في الحرص على الفضيلة من أرواحهم، حتى يفسد عليها المنطق ونظامه، ويجعلها تتعلّق بشيء من أفكار العامة . .

فعند التناهي في السموّ يدور الرأس، ولا يرى الإنسان الأشياء على طبائعها . . .»

وهكذا يصرّ روسو على تناقضه في الجمع بين احترام الرُسل وتكذيبهم ويضيف تناقضاً آخر وهو أنّ التناهي في السموّ يؤدي إلى فساد المنطق ورؤية الأشياء على غير طبائعها . . .!!<sup>(١)</sup>

ونحن نناقش هذا الزعم وذلك الادّعاء - على وجه الإجمال - فنقول: إذا كان الهدف الرئيسي من نسبة المشرّعين قوانينهم إلى الله؛ هو

---

(١) راجع كتابنا «المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي» ص ٣٠٩ إلى ص ٣٣٠ ط الثانية .

إيجاد نوع من السلطة يقود بلا عنف ويقنع بلا حجة كما يزعم روسو،  
فنحن نتساءل: هل وجد الأنبياء الاستجابة السريعة لدعوتهم؟! .

إن القصص القرآني حافل بمواقف جهاد المرسلين الطويل والشاق  
في سبيل تبليغ الدعوة.. وما من نبي إلا عُودي في قومه، وأصابته البأساء  
والضراء، وزلزل المؤمنون زلزالاً شديداً

لقد مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة ألا خمسين عاماً  
يدعوهم ليلاً ونهاراً، وكانت النتيجة ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾<sup>(١)</sup>..

وعلى مدار كافة الرسالات الإلهية وجد المكذبون الذين أصروا  
واستكبروا استكباراً.. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ  
الرَّسِّ وَثَمُودُ، وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ، وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ، كُلٌّ  
كَذَّبَ الرِّسْلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾<sup>(٢)</sup>.

ومكث سيدنا محمد ﷺ في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة ذاق  
المسلمون خلالها صنوف العذاب، حتى أكلوا أوراق الأشجار في شعب  
بالجبل، وتسَلَّلوا سرّاً إلى الحبشة مرتين ثم إلى المدينة فراراً بدينهم وثباتاً  
على عقيدتهم..

ثم عاش النبي ﷺ عشر سنوات في المدينة يحمل السلاح،  
وأَمَسى المسلمون وأصبحوا في رباط وجهاد ﴿فمنهم من قضى نحبه  
ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾<sup>(٣)</sup>.

لقد أكد القرآن كثيراً أنَّ الإيمان جهاد، وأنَّ الدين مسؤولية، وأنَّ  
الشريعة تبعات وامتحان.. قال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ

(١) سورة هود آية ٤٠.

(٢) سورة ق آية ١٢ - ١٤.

(٣) سورة الأحزاب آية ٢٣.

يقولوا آمَنَّا وهم لا يُفْتَنُونَ، ولقد فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿١﴾.

وكشف القرآن عن حقيقة تاريخية هي أن المؤمنين أقل عدداً من الكافرين، وتكرر في سورة الشعراء عقب قصص الأنبياء قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمْرَ مَعَهُ الْأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يَمْرَ مَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يَمْرَ مَعَهُ الْعَشْرَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمْرَ مَعَهُ الْخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمْرَ وَحْدَهُ...».

ثم نتساءل تساؤلاً آخر:  
هل عقائد الدين وشرائع المعاملات التي بلغها الأنبياء تمثل اتجاهات فلسفياً خاصاً بشخصية النبي؟!.

وفي كل عصر ظهر الفلاسفة والحكماء وتباهوا بتتاج عقولهم، وقدموا للناس تأملاتهم فما السر في أن هؤلاء الأنبياء - إن كانوا فلاسفة - لم يعلنوا فلسفتهم ويواجهوا بها الزمان والتاريخ؟!.

إن ادعاء نسبة القوانين إلى الله تعالى لحيلة لجأ إليها المشرعون العباقر؛ فرض سخيف يعوزه الدليل، ويناقضه الواقع، ويرفضه التاريخ..

وصدقُ الأنبياء في التبليغ عن الله عز وجل هو الوسام الأكبر الذي يعلو هامتهم، وما كان النبي ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله...!!

وما دام الكون مربوباً لله جل شأنه، وما دام الإنسان - في وسط هذا الكون - محدود القوى والإدراك؛ فإن الله سبحانه وتعالى أولى بخلقه يضع

---

(١) سورة العنكبوت آية ٢، ٣.

لهم الشرائع ويسنّ لهم القوانين ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف  
الخبير﴾ (١) ..

وليس كل واحد من البشر مؤهلاً للتلقّي عند الله، فمسألة النبوة هي  
الحل العادل والأمثل .. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ  
يَجْتَنِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ  
عَظِيمٌ﴾ (٢) ..

ومن هنا تبرز عدّة قواعد أصيلة في فقه العقيدة هي :

١ - النبوة لا تُكتسب، وليس لها مؤهلات تحتم أن يكون صاحبها  
نبيّاً بل ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ، سُبْحَانَ اللَّهِ  
عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣) ..

٢ - الوحي ليس رغبات شخصية للنبي، ولا اتجاهات فكرية تخصّه  
بل التبليغ الصادق عن ربّه عزّ وجلّ هو فيصل التفرقة بين النّبي  
والمُتنبّي .. قال جلّ شأنه :

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقّاءٍ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى  
إِلَيَّ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٤) ..

٣ - لم يكن للنّبي قبل الوحي إليه مؤهلات التشريع .. قال تعالى :

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ،  
وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (٥) ..

---

(١) سورة الملك آية ١٤ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٧٩ .

(٣) سورة القصص آية ٦٨ .

(٤) سورة يونس آية ١٥ .

(٥) سورة النساء آية ١١٣ .

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ، وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾<sup>(١)</sup>.

٤ - المعجزة دليل النبوة الأكبر، وهي فعل الله تعالى على يدي نبيه مما لا يستطيعه المكلفون ويعجز عنه الخلائق أجمعون، فالتحدي وعدم إمكان المعارضة من ملامح المعجزة البارزة..

قال جلّ شأنه ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾<sup>(٢)</sup>.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات  
وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

---

(١) سورة يونس آية ١٦ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٣ .



# الفهرس

|     |                                              |
|-----|----------------------------------------------|
| ٥   | ..... المقدمة                                |
| ١٥  | ..... الباب الأول: ملامح الشخصية المحمدية    |
| ١٧  | ..... • اليتيم                               |
| ٢٩  | ..... • راعي الغنم                           |
| ٣٩  | ..... • الصادق الأمين                        |
| ٤٩  | ..... • الأمي                                |
| ٥٥  | ..... • كلمة تنبيه                           |
| ٦٣  | ..... • حديث هرقل                            |
| ٦٩  | ..... الباب الثاني: العمق التاريخي           |
| ٧١  | ..... • ميثاق النبئين                        |
| ٧٧  | ..... • دعوة إبراهيم                         |
| ٨٥  | ..... • بشرى عيسى                            |
| ٩٣  | ..... • دراسات عن البشائر                    |
| ٩٥  | ..... أ - الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح  |
| ٩٥  | ..... البشارة الأولى                         |
| ٩٩  | ..... البشارة الثانية                        |
| ١٠٤ | ..... ب - تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب |
| ١١١ | ..... مجموعة بشارات                          |
| ١١٤ | ..... ج - إظهار الحق                         |

|     |                                    |
|-----|------------------------------------|
| ١١٨ | مسالك إثبات النبوة .....           |
| ١١٩ | أمور ثمانية قبل ذكر البشارات ..... |
|     | البشارات :                         |
| ١٢٤ | الأولى .....                       |
| ١٢٥ | الثانية .....                      |
| ١٢٦ | الثالثة .....                      |
| ١٢٦ | الرابعة .....                      |
| ١٢٧ | الخامسة .....                      |
| ١٢٨ | السادسة .....                      |
| ١٢٩ | السابعة .....                      |
| ١٣٠ | الثامنة .....                      |
| ١٣٢ | التاسعة .....                      |
| ١٣٣ | العاشرة .....                      |
| ١٣٤ | الحادية عشرة .....                 |
| ١٣٤ | الثانية عشرة .....                 |
| ١٣٥ | الثالثة عشرة .....                 |
| ١٣٦ | الرابعة عشرة .....                 |
| ١٣٦ | الخامسة عشرة .....                 |
| ١٣٧ | السادسة عشرة .....                 |
| ١٣٩ | السابعة عشرة .....                 |
| ١٤٠ | الثامنة عشرة .....                 |
| ١٤١ | ● شاهد من أهلها .....              |
| ١٤٣ | ١ - ورفقة بن نوفل .....            |
| ١٤٦ | ٢ - نجاشي الحبشة .....             |
| ١٥٠ | ٣ - عبد الله بن سلام .....         |
| ١٥٦ | ٤ - سلمان الفارسي .....            |

|     |                                                   |
|-----|---------------------------------------------------|
| ١٦١ | ٥ - زيد بن سعة .....                              |
| ١٦٥ | الباب الثالث: الضرورة الإنسانية .....             |
| ١٦٧ | أ - الدين .....                                   |
| ١٦٨ | • الوثنية .....                                   |
| ١٧٤ | • المجوسية .....                                  |
| ١٧٨ | • اليهودية .....                                  |
| ١٨٠ | • النصرانية .....                                 |
| ١٨٥ | ب - الأخلاق .....                                 |
| ١٨٦ | • نكاح الجاهلية .....                             |
| ١٨٩ | • وأد الأولاد .....                               |
| ١٩٤ | • قانون الغاب .....                               |
| ١٩٩ | • كلمة توضيح .....                                |
| ٢٠٣ | الباب الرابع: الوحي .....                         |
| ٢٠٥ | ١ - الوحي في اللغة .....                          |
| ٢٠٩ | ٢ - الوحي في الفلسفة .....                        |
| ٢١١ | - مع سقراط .....                                  |
| ٢١١ | - مع أفلاطون .....                                |
| ٢١٥ | - مع الفارابي .....                               |
| ٢٢١ | - مع ابن سينا .....                               |
| ٢٢٥ | تعقيبات على الاتجاه الفلسفي .....                 |
| ٢٢٥ | أولاً: لم اقتصرت سلسلة العقول على عشرة فقط؟ ..... |
| ٢٢٦ | ثانياً: رأي الغزالي وابن رشد وأبي البركات .....   |
| ٢٢٧ | ثالثاً: هل العقول هي الملائكة .....               |
| ٢٣٠ | رابعاً: التفسير الفلسفي للنبوة يأباه الشرع .....  |
| ٢٣١ | خامساً: مخاطر التفسير الفلسفي للنبوة .....        |
| ٢٣٣ | ٣ - الوحي في الشرع .....                          |

|     |                                            |
|-----|--------------------------------------------|
| ٢٣٥ | ● الاصطفاء .....                           |
| ٢٣٧ | ● الاصطلاح الشرعي .....                    |
| ٢٣٨ | - أنواع التلقي عن الله .....               |
| ٢٣٩ | - مذاهب العلماء في حقيقة كلام الله .....   |
| ٢٤٠ | - حول اسم جبريل عليه السلام .....          |
| ٢٤٥ | ● الضمان الإلهي .....                      |
| ٢٤٧ | - كيفية تيقن النبي بمصدر الوحي إليه .....  |
| ٢٥٣ | - قصة الغرانيق .....                       |
| ٢٥٤ | - تأويلات فاسدة .....                      |
| ٢٥٦ | - مع المحققين .....                        |
| ٢٦٥ | ٤ - الوحي المحمدي .....                    |
| ٢٦٧ | أولاً: الرؤيا الصالحة .....                |
| ٢٧٠ | ثانياً: لقاء إسرافيل .....                 |
| ٢٧٤ | ثالثاً: صلصلة الجرس .....                  |
| ٢٧٧ | رابعاً: تشكل الملك في صورة رجل .....       |
| ٢٨٧ | خامساً: رؤية الملك في صورته الحقيقية ..... |
| ٢٩٣ | سادساً: المناجاة في الحضرة الإلهية .....   |
| ٢٩٦ | تذييل .....                                |
| ٣٠١ | ٥ - شبهات حول الوحي المحمدي .....          |
|     | تمهيد                                      |
| ٣٠٣ | الشبهة الأولى: البشرية .....               |
| ٣٠٨ | الشبهة الثانية: السحر .....                |
| ٣١٩ | الشبهة الثالثة: الجنون .....               |
| ٣٢٦ | الشبهة الرابعة: الصرع .....                |
| ٣٣٠ | الشبهة الخامسة: العبقرية .....             |

تم بحمد الله تعالى